
وقل رب زدني علما
جامعة دمشق
Damascus University

وقل رب زدني علما
جامعة دمشق
Damascus University

منشورات جامعة دمشق
كلية الآداب

مدخل إلى الأدب العربي في العصر المملوكي

د.محمود سالم محمد
أستاذ في قسم اللغة العربية

د.خليل قاسم غريري
أستاذ في قسم اللغة العربية

د.هناء علي سبيناتي
أستاذة مساعدة في قسم اللغة العربية

جامعة دمشق

وقل رب زدني علما
جامعة دمشق
Damascus University

الفهرس

المقدمة		٥
العصر المملوكي		٩
القسم الأول: الشعر		١٥
أبرز الشعراء:	شرف الدين الأنصاري	١٧
	الشاب الظريف	٢٠
	البوصيري	٢٦
	صفي الدين الحلي	٣٩
	ابن نباتة المصري	٤٨
	عائشة الباعونية	٥٦
أبرز أغراض الشعر:	المديح	٦٣
	الفخر والحماسة	٨٠
	الغزل	٨٩
	الرثاء	١٠٣
أغراض شعرية مختلفة:	الوصف	١١٧
	السخرية	١٢٤
	الزهد والتصوف	١٢٩
	التشوق والحنين	١٣٨
	الإخوانيات	١٤٥
	الألغاز والأحاجي	١٥٢
ألوان شعرية مستحدثة:	الموشحات	١٥٦
	الزجل	١٥٩

	الرباعيات	١٦٢
	الموالیات الشعبيّة	١٦٣
خصائص شعر العصر:	الصنعة البيانية	١٦٩
	الصنعة البديعية	١٧٣
القسم الثاني: النثر		١٩٥
النثر الديواني		١٩٧
النثر الأدبي		٢٠٧
الخطابة		٢٢٥
النثر الديني		٢٣٦
المقامات		٢٥٢
تمثيليات ابن دانيال		٢٧١
حكايات ابن سودون الملافيق		٢٨٢
خاتمة		٢٨٧
المصادر والمراجع		٢٨٩

Damascus University

مقدمة

كاد اهتمام الدارسين بالأدب العربي يقتصر على عهوده الأولى، من العصر الجاهلي حتى العصر العباسي، وانصرفوا عنه بعد سقوط بغداد بسبب الاعتقاد أن الأمة العربية راحت في سبات عميق حتى عصر النهضة، وأن إنجازاتها الحضارية توقفت أو كادت، وهذا ليس صحيحًا، لأن الأمة العربية استطاعت تحت سيطرة المماليك أن ترد المغول على أعقابهم، وأن تنهي الوجود الفرنجي من المشرق العربي، ثمّ تحولت تحت سيطرة العثمانيين إلى غزو أوروبا، والسيطرة على قسم كبير منها، واستمرّت الأمّة العربية في عطائها الحضاري، فتركت لنا من هذا العصر شواهد حضارية لا تزال ماثلة أمامنا في العمران وغيره، وأورثتنا علمًا غزيرًا وثقافة واسعة، أودعتها في كتب كثيرة، منها كتب موسوعية جامعة، ومنها كتب متخصصة، بعضها حُقّق وطبع، وبعضها لا يزال مخطوطًا، ينتظر يد التحقيق والنشر.

وقد عامل الدارسون أدب عصر المماليك والعثمانيين وأدباءه بشيء من الفتور والإهمال، ورسّخوا في أذهان الطلبة أنه أدب انحدار وانحطاط، ليس فيه إلا الزخرفة والتلاعب اللفظي، وهذا حكم يجانب الحقيقة، ومهما قيل في هذا الأدب، فإن من حقّه علينا أن ندرسه ونعرضه على الناس، لأنه جزء من أدبنا وثقافتنا وتراثنا، ولأنه ثمرة مرحلة طويلة من تاريخنا.

واتبعنا في وضع هذا الكتاب مخططًا واضحًا، يعتمد على النصوص في المقام الأول مع الخطوط العامة لأبرز أغراض الأدب وأبرز أعلامه، ليدرك الطلاب خصائص هذا الأدب وسماته وقضاياه من النصوص مباشرة من غير مصادرة لآرائهم، أو الإيحاء إليهم بأفكار مسبقة تشوه حقيقة الأدب ارتباحًا أو نفورًا.

ونأمل أن يحقق الكتاب الغاية المرجوّة منه، وأن يفيد منه الطلبة، والله من وراء القصد.

وقل رب زدني علما
جامعة دمشق
Damascus University

العصر المملوكي

نُسب هذا العصر إلى المماليك وبهم سُمي، والمماليك الذين حكموا مصر وبلاد الشام وقسمًا كبيرًا من الجزيرة العربية نحوًا من ثلاثة قرون، وقادوا حركة الجهاد ضد الغزو الفرنجي والمغولي، هم في الأصل من جملة الرقيق الذي كان يُجلب من بقاع مختلفة، ثم غدوا القوة الأولى في الدولة الأيوبية المجاهدة، واستطاعوا الوصول إلى السلطة بعدما تزوجت شجرة الدر التي تسلطنت وصيّةً على ابنها بقائد الجيش، وتنازلت له عن السلطنة.

كان المملوك يُشترى من تجار الرقيق صغيرًا، ويُربى تربية عسكرية ودينية، حتى إذا بلغ الشباب وأنهى تدريبه، تحرّر من الرق، وظل مرتبطًا بسيده، يخدمه ويخلص له.

وقد أعطت انتصارات المماليك على الفرنجة والمغول دولتهم الشرعية التي تفتقر إليها، فكانت دولتهم وليدة الانتصارات التاريخية الحاسمة، ولترسيخ هذه الشرعية، أحيوا الخلافة العباسية.

وأمضى المماليك مدة حكمهم في صراع خارجي وداخلي، فظلّ الفرنجة يشنّون الغارات على الثغور الشامية والمصرية، وتابع المغول محاولاتهم غزو بلاد الشام، ومع تقدم الوقت تصدّى المماليك للبرتغاليين الذين أفسدوا على الدولة المملوكية تنظيم التجارة بين الشرق والغرب، ثم اختلفوا مع العثمانيين الذين قضوا على الدولة المملوكية.

وظل المماليك في صراع دائم على السلطة، لأن نظام تولي الحكم لم يكن واضحًا ثابتًا، وكانت السلطة من نصيب الأمير القوي الذي يستطيع انتزاعها.

وكانت حال الدولة المملوكية مرتبطة بالسلطان، فإذا كان السلطان قويًا قادرًا على إخضاع المماليك، ساد الدولة الأمن والاستقرار، وتحققت الإنجازات الكبيرة فيها، وإذا كان السلطان ضعيفًا، عمت الفوضى واستشرت الفتن، ولاقى الناس الويلات.

وعلى صعيد الحياة الاجتماعية انقسم المجتمع أربع طبقات متمايزة في المستوى

الاقتصادي والمعيشي، وهذه الطبقات هي: طبقة رجال الدولة وتشمل السلطان والأمراء والوزراء وقادة الجند وكبار موظفي الدولة من القضاة ورؤساء الدواوين وكبار الكتّاب، ثم طبقة ذوي اليسار من التجار والفقهاء والعلماء، وطبقة متوسطي الحال من الباعة وأرباب الحرف وطلاب العلم وأهل الزراعات وسكّان الريف والقرى، وأخيرًا طبقة الفقراء والمساكين، وكان عددهم يزيد وينقص بحسب أحوال البلاد السياسية والاقتصادية.

أما السمة العامة للمجتمع في العصر المملوكي فهي التدين، وقد تجلّت في حركة الجهاد وإحياء الخلافة وانتشار التصوف، ومظاهر الاحتفال بالأعياد الدينية، ولا يعني هذا أن المجتمع لم يعرف المفاسد، بل عُرفت فيه مفاسد كثيرة، منها تعاطي الخمر والحشيش المخدر، وكان يُجهَرُ بها أحيانًا، وتُستر أحيانًا أخرى.

وظلت هذه الظواهر الاجتماعية الفاسدة قليلة، ولم تغلب على المجتمع، ولكنها كانت موجودة، وظهر أثرها في الأدب، فالجانب الاجتماعي للعصر المملوكي حافل بالمتناقضات التي كانت تتلاشى عندما يدهم الدولة خطر خارجي، وتتعاون فئات المجتمع كلها على ردّه.

وكان اقتصاد الدولة المملوكية في بداية أمرها على جانب كبير من القوة والازدهار، ولكن توزيع الثروة لم يكن عادلًا، وقد تعرّض هذا الاقتصاد لهزات عنيفة بسبب الغزوات الخارجية والكوارث وسوء الحكم وفساد الإدارة أحيانًا.

وقد كانت مدخولات الزراعة عصب الحياة الاقتصادية، واهتمّ السلاطين بتطويرها، وزيادة مساحة الأراضي الزراعية، فشقّوا الترع، واستصلحوا الأراضي، وبنوا الجسور.

وازدهرت الصناعة آنذاك، وتوزّعت على ثلاثة أنواع من الصناعات، الصناعة الحربية كصناعة المراكب والسفن، وجميع أنواع الأسلحة من سيوف ورماح ومجانيق وغيرها، والصناعات الغذائية كصناعة السكر وصنوف الأطعمة والأشربة، وصناعة الملابس والأثاث وأدوات الزينة والزخارف وغيرها من التحف التي زخرت بها قصور

الأمراء والسلاطين.

وكانت التجارة المورد الأول للدولة، بسبب موقعها الذي يتوسط العالم القديم، وسيطرتها على طرق التجارة بين المشرق والمغرب، وقد وفّر المماليك للتجار ما يسهل وصولهم إلى الدولة والإقامة فيها، وعقدوا المعاهدات التجارية مع الدول المجاورة والدول التي يبادلونها التجارة، وفرضوا على التجار الضرائب والرسوم المختلفة، وشاركوا بأنفسهم في التجارة.

ولكن التجارة تأثرت بالاضطرابات والحروب، وثقل الضرائب والتلاعب بالنقد وتزييفه، ثم ظهر منافسون للدولة المملوكية على التجارة الدولية بعد اكتشاف رأس الرجاء الصالح، ومباشرة الأوروبيين التجارة مع الشرق بأنفسهم، واستغنائهم عن الوسيط المملوكي.

أما الجانب الثقافي فقد شهد العصر المملوكي حركة ثقافية جيدة، وشهد عوامل تنهض بالنشاط المعرفي، منها الحروب العاتية التي تثير العواطف، وتبعث على القول وتحرّك الهمم للدفاع عن الأمة في ميادين المواجهة كلها، ومنها ميدان الثقافة.

يضاف إلى ذلك التشجيع الذي أبداه بعض السلاطين للعلوم المختلفة التي تحتاج إليها الدولة، وقد حظيت الدولة المملوكيّة بظرف خاص، أفاد الحركة الثقافيّة، وهو هجرة العلماء العرب والمسلمين من مشرق البلاد الإسلاميّة ومغربها إليها، فاجتياح المغول للمشرق وضغط الفرنجة المتواصل على الأندلس والمغرب دفع العلماء إلى مأمن لهم في الدولة المملوكيّة، فجاؤوا إليها واستقرّوا في حواضرها، يواصلون نشاطهم العلمي.

وانتشر في العصر المملوكي ضربان من التعليم: الأول هو التعليم في المساجد، والثاني هو التعليم في المدارس، فقد ظلت المساجد منابر للعلم وأماكن للدرس والتحصيل، يتاح فيها للناس جميعهم أن يأخذوا من العلم ما يشاؤون، وعمت المدارس حواضر الدولة، وحُبست عليها الأوقاف الكبيرة التي تفي بحاجتها، وكان مشيدوها يعيّنون

لها المدرسين، ويحدّدون العلوم التي تدرّس فيها، وكان التعليم على قدر كبير من الاتساق الكامل، يلتحق الطالب بالمدرسة بعد انتهائه من الكُتّاب، ويرتقي من مبتدئ إلى مُفيد إلى منتهٍ، ثم يُجاز، وكان لكل علم شيخ ومدرّس ومعيد وكاتب غيبة.

وقد نَبَهَ في هذا العصر عدد كبير من العلماء في مختلف صنوف المعرفة، أضافوا إلى العلوم التي اشتغلوا بها إضافات مهمة، وتركوا لنا عددًا كبيرًا من الكتب يصعب حصره، واتّصفت هذه الكتب بالشمولية والتنظيم، وحفظت لنا قدرًا كبيرًا من علوم العرب وثقافتهم، وهذا يدلّ على اهتمام أهل ذلك العصر بالكتاب، إذ جمعوا الكتب ونسخوها وأقاموا لها المكتبات، فرافقت الكتب كل مدرسة ومسجد وزاوية، وأودعت القباب والمدافن واستقلت بنفسها، ودخلت بيوت الأغنياء والعلماء، وانفردت بأسواق خاصة، عمل بها الورّاقون والنسّاخون والمجلّدون والمزخرفون، وتسابق الناس إلى اقتنائها، وبذلوا فيها الأموال الطائلة، ونظموا من أجلها الرحلات بين مشرق البلاد ومغربها.

إن الكتب الكثيرة التي وصلت إلينا من العصر المملوكي، ليست كلها جمعًا أو شروحًا فقط، بل كان فيها كتب أصيلة في تأليفها، خدمت التراث وحفظته وأنارته، وقدمت ما استجدّ في عصرها وما نفثت عنه قرائح العلماء وعقولهم، وانتشر الجديد في حناياها، واقتربت من دوائر المعارف في شمولها وتنظيمها.

ويُسجل للمؤلفين في هذا العصر أنهم أدركوا المكتبة العربية حين كادت تندثر، فأحبوها وجبروا كسرها، وحافظوا عليها من شراسة الغزاة وهمجيتهم، فلم يقلّوا درجة عن المجاهدين الأبطال الذين ردّوا كيد الغزاة وحافظوا على العروبة والإسلام.

أما الأدب فقد قسا النقاد عليه، ووسموه بالجمود، ولم يروا فيه إلا الأعيب لفظية وشكلية وحرموه من كل حسنة، وهو حكم غير عادل، مبني على عجلة وتسرع، وعلى نقص في الدراسة، ومن منطلق حُكْمٍ مسبق، فالعصر الذي شهد نشاطًا ثقافيًا كبيرًا وحوادث ضخمة، لا يمكن أن يكون على هذه الصورة من التخلف الأدبي، ولا بدّ أن

أدباءه قد استجابوا لهذه الحوادث وتأثّروا بها، وهذا ما كان، فالنشاط الأدبي كان على أشدّه، وكان محكومًا بذوق أهل العصر ومفهومهم للأدب وقيمهم الجمالية، ومن الظلم أن نقارن أدبهم بأدب عصور أخرى، ولا بدّ من الإلمام بالمؤثرات العامة في الأدب ومعرفة الظواهر الأدبية وأسبابها، لتكوين صورة صحيحة أو أقرب إلى الصحة للأدب العربي في العصر المملوكي.

Damascus University

وقل رب زدني علما
جامعة دمشق
Damascus University

القسم الأول: الشعر

وقل رب زدني علما
جامعة دمشق
Damascus University

وقل رب زدني علما
جامعة دمشق
Damascus University

أبرز الشعراء

١- شرف الدين الأنصاري (٥٨٦-٦٦٢هـ) [١]:

عبد العزيز بن محمد بن عبد المحسن الأنصاري الأوسيّ، ولد في دمشق، ونشأ في مملكة حماة الأيوبية وفي بيئتها العلمية على سنّة أبيه الذي كان عالمًا فقيهًا وخطيبًا شاعرًا، زار بغداد وتنقل في بلاد الشام يسمع من علمائها، ثم عاد إلى حماة واستقر فيها، فصار العلماء وطلبة العلم يتوافدون إلى مجلسه، ومنهم سبط ابن الجوزي وبدر الدين ابن جماعة وعز الدين ابن القاضي الفاضل، وتألق نجمه العلمي فصار يُدعى (شيخ شيوخ حماة) وكسب احترام ملوكها وتقديرهم، فاستعملوه في الوزارة وفي تدبير أمور الحكم والسياسة وفي السفارة، ولمّا زحف التتار إلى حماة فرّ ملكها المنصور الثاني إلى مصر طالبًا نجدة السلطان المظفر قطز، واشترك معه في معركة عين جالوت، وهُزم التتار، وعاد إلى عاصمة ملكه في حماة، فأقبل عليه شاعره شرف الدين مادحًا ومهنئًا بقصيدة جيدة مطلعها:

رُعْتَ العِدا فضمنتْ كُلٌّ عروشها ... ولقيتَها فأخذتَ فُلَّ جيوشها

وله قصائد أخرى يذكر فيها هذه المعركة وحسن بلاء الملك فيها.

له ديوان مطبوع، وأبرز أغراضه الشعرية المديح وذكر الحوادث المهمة والغزل والزهد والألغاز، وكثيرًا ما كان ينظم في المناسبات الخاصة كالتهنئة بحلول رمضان أو أحد العيدين أو الشفاء أو بمولود؛ وكان ذا طبع سليم، وقد حرص على الابتعاد عن التعقيد والإغراب، وإن كان شديد الكلف بالتورية حتى عدّ إمامًا فيها، وله إضافة إلى ديوانه الكبير ديوان (لزوم ما لا يلزم) و(نظرة

---

(١) تنظر ترجمته في: فوات الوفيات ٢/٣٥٤-٣٦٣، والنجوم الزاهرة ٧/٢١٤، وبغية الوعاة ١/٣٠٩، وشذرات الذهب ٥/٣٠٩، والأعلام ٤/٢٥، ومقدمة الديوان: ١٣-٤٥.

المعشوق إلى وجه المشوق) و(تذكار الواجد بأخبار الوالد)، وقد أثنى عليه كثيرون حتى قال الصفدي: "لا أعرف في شعراء الشام بعد الخمسمئة وقبلها مَنْ نظم أحسن من شرف الدين، ولا أجزلَ، ولا أفصحَ ولا أصنعَ، فإن له لزوم ما لا يلزم مجلد كبير، وما رأيت له شيئًا إلا وعلّقته لما فيه من النكت والتوريات الفائقة والقوافي المتمكّنة والتراكيب العذاب واللفظ الفصيح والمعنى البليغ"[1].

قال يرثي الملك المعظم[2]:

١- انْظُرْ إلى حَدَثانِ الدَّهْرِ ما صَنَعا ... فأيَّ رُزْءٍ لأكبادِ العُلا صَدَعا

٢- سَمَتْ إلى مَلِكِ الأمْلاكِ صَوْلَتُهُ ... فَفَرَّقَتْ مِنْ أمورِ النَّاسِ ما جَمَعا

٣- ويحَ الزَّمانِ لَقَدْ نابَتْ نوائبُهُ ... بِصَيْلَمٍ أكَلَتْ لَحْمَ الوَرَى مِزَعا

٤- أوْدَى بأسْمَحِ مَنْ أجْدَى وأفْصَحِ مَنْ ... قَالَ الصَّوابَ وأوْعَى مَنْ لَهُ سُمِعَا

٥- وغَالَ مَنْ هالَهُ فِقْدانُهُ فَزِعًا ... إنَّ الزَّمانَ لمَفْجوعٌ بمَنْ فَجَعا

٦- لا تَبْكِهِ فَهْوَ حَيٌّ بالقِياسِ على ... سَمِيِّهِ وابْكِ فيهِ المُسْكَ والوَرَعا

٧- عَهْدي بِهِ لا يُضيعُ الدَّهْرُ مُنْتَصِرًا ... بِهِ ولا تَضَعُ الأقْدارُ مَنْ رَفَعا

٨- يُحِسُّ مِنْهُ الوَغَى في كلِّ مُعْضِلَةٍ ... ثَبْتًا إذا نَقَزَتْ أبْطالُها رَبَعا

٩- ذو تالِدٍ في العُلاَ أوْدَى بطارِفِهِ ... عليهِ مُتَّبِعًا طَوْرًا ومُبْتَدِعا

١٠- لِتُبْكِ مِنْهُ الرَّدَيْنِيَّاتُ مُشْرِعَها ... وَلْيَنْدُبِ المَجْدُ مِنْهُ مَنْ لَهُ شَرَعَا

---

(١) فوات الوفيات ٢/٣٥٥.

(٢) الديوان: ٣٠٩، والمرثي: هو الملك المعظم شرف الدين عيسى بن الملك العادل أبي بكر محمد بن أيوب (٥٧٦-٦٢٤هـ) سلطان الشام، كان له ما بين حمص والعريش والساحل، وكان فارسًا شجاعًا مجاهدًا، من علماء الملوك، وله ديوان شعر، مولده بالقاهرة ومنشؤه ووفاته بدمشق. الأعلام ٥/١٠٧.

١١- إنّ المعظّمَ عيسى مُذْ أقصدَهُ ... حِمامُهُ لم يَدَعْ في عيشةٍ طَمَعا

١٢- فليَنْتَهِزْ فُرْصَةَ الدُّنيا يُقَدِّمُها ... لَدَيْهِ مَنْ رامَ في عُقْباهُ مُلْتَقَعا

١٣- ولْيُسْلِمِ الغزْوَ فِكْرًا في رَدَى مَلِكٍ ... لو قادَ للضَّيْمِ قَسْرًا ثُبَّعًا تَبِعا

١٤- تَعَزَّ يا بنَ مُعِزِّ الدِّينِ عَلَّهُ فقدْ ... جَلَّ المُصابُ وجَلَّ الأجْرُ فيهِ مَعًا

١٥- لَئِنْ جَزِعْتَ عليهِ فهْيَ حادِثَةٌ ... صَمَّاءُ يُسْمَعُ فيها عُذْرُ مَنْ جَزِعَا

١٦- وإنْ صَبَرْتَ على ما كانَ مِنْ مَضَضٍ ... بِها فمِثْلُكَ في أمْثالِها شَجُعَا

١٧- لا زِلْتَ مِنْ كُلِّ مَفْقودٍ لنا خَلَفًا ... حتى نَظُنَّ جميعًا أنَّهُ رَجَعَا

وقال في الغزل[1]:

١- زَعَمُوا أنّني هَوِيتُ سِواكُمْ ... كَذَبُوا ما عَرَفْتُ إلّا هَواكُمْ

٢- قد عَلِمْتُمْ بِصِدْقِ مُرْسَلِ دَمْعي ... فاسْألوهُ إنْ كانَ قَلْبي سَلاكُمْ

٣- طالَ عَهْدي بِكُمْ ووَجْدي وجِدّي ... فَسَقَى اللهُ عَهْدَكُمْ ورَعاكُمْ

٤- ذِلَّتي فيكُمُ كعِزّي، ومَوْتي ... كَحياتي فلا عَدِمْتُ رِضاكُمْ

٥- أنا لولاكُمُ لَما لَذَّ عَيْشي ... وكَذا ما كَرِهْتُهُ لولاكُمْ

٦- كم جَفَوْني فقُلْتُ مِنْ فَرْطِ وَجْدي ... ما أمَرَّ الجَفا وما أحْلاكُمْ

٧- وعلى كُلِّ حالَةٍ مِنْ نَعيمٍ ... وشَقاءٍ ما راحَتي إلّا كُمْ

٨- إنْ بَعُدْتُمْ لا تَعْجَبوا مِنْ ثَلاثي ... واعْجَبُوا كيفَ عاشَ مَنْ لا يَراكُمْ

٩- إنَّ عِنْدي مِنْ هَجْرِكُمْ ما كَفاني ... في جُنوني فلَيْتَ هذا كَفاكُمْ

١٠- قالَ لي عُذْلي مَتى تُبصِرُ الرُّشْـ ... ـدَ وتَسْلو فقُلْتُ يَوْمَ عَماكُمْ

---

(١) الديوان: ٤٥٠.

١١- حـاولوا سـلوتي بلـومي فـأغروْ ... نـي فمـن ذا يصـدكم أغـراكم

١٢- كيـف أزنـو إلـى سـواكم بطـرف ... لا يـرى الحسـن كـاملاً فـي سـواكم

١٣- صـدق الواصـفون إلا قـد حكـوه لكنـه مـا حكـاكم

١٤- يـا وجوهـا زانـت سـناها فـروع ... حالكـات أغنـتكم عـن حلاكـم

١٥- لـي مـن حسـنكم لهـار وليـل ... أنعـم الله صـبحكم ومسـاكم

١٦- منيـز الله مـا تخيـر منـه ... وحبـاكم مـن صـفوه مـا حباكم

١٧- واهتـدى الممتـك إذ تشـبه منكم ... بشـذا عـرفكم وليس هناكم

١٨- سـادتي لثـت حبكم لـي كحبيـ ... ـكم ولكـن مـن لـوعتي حاشـاكم

١٩- لا تحيلـوا قلبـي علـى حسـن صبر ... أحسـن الله فـي اصـطباري عزاكم

٢٠- فـاكتبوا لـي منشـور وصـل وإلا ... كـاتبوا بالوصـول عنـد ولاكـم

٢١- قـد تعللـت بالأمـاني فـيكم ... فعسـاكم تحققوهـا عسـاكم

٢٢- إن متعتـم جنـابكم فبحـق ... يقتضـيه سـبحان مـن أعطـاكم

٢- الشاب الظريف (٦٦١-٦٨٨هـ) [1]:

شـمس الـدين محمـد بـن عفيـف الـدين التلمسـاني، لُقّـب لرقتـه وطرافـة شـعره بالشـابّ الظريـف، فغلـب عليـه هـذا اللقـب وعُـرف بـه، ولـد فـي القـاهرة، ونشـأ فـي دمشـق، إذ ولـي أبـوه عمالـة الخزانـة فيهـا، وكـان والـده مـن أهـل العلـم والتصـوف، فتتلمـذ الفتـى علـى والـده ابتـداءً وعلـى ثلـة مـن العلمـاء، ويـدلّ مـا فـي شـعره مـن مصـطلحات الفقهـاء وأصـحاب الأصـول وأهـل المنطـق علـى طبيعـة ثقافتـه ومعارفـه

(١) تنظر ترجمتـه فـي: الـوافي بالوفيـات ١٢٩/٣، وفـوات الوفيـات ٣٧٢/٣، والنجـوم الزاهـرة ٢٩/٨، وشذرات الذهب ٤٠٥/٥، والأعلام ١٥٠/٦.

العامة، كما كان أبوه شاعرًا فأورثه هذه الموهبة، فقرض الشعر الخفيف، ونظم الغزل الرقيق، وأولع بالبديع فجاء لديه عذبًا، ولعلّ إقامته في منزل يحتضنه جبل قاسيون قد أتاحت له من المناظر الساحرة ما أنضج موهبته الفنية، وها هو ذا يقول:

يا قُطْرَ غُمَّ دمشقَ واخصُصْ منزلًا ... في قاسيونَ، وحَلِّه بنباتِ

وترنّمي يا وُرْقُ فيه، ويا صَبًا ... مُرّي عليه بأطيب النفحاتِ

فيه الرضا، فيه الهوى، فيه الهُدى ... فيه أصول سعادتي وحياتي

فيه الذي كشف العمى عن ناظري ... وجلا شموسَ الحقّ في مرآتي

فيه الأب البرّ الشفيقُ فديته ... من سائرِ الأسواء والآفات

وبلغ قمّة مجده الأدبي وهو بعدُ في عنفوان شبابه، ولقي شعره رواجًا لسهولته وعذوبته، وقد جرّت شهرته عليه حسد الكثيرين، ولم يطل عمر الشاعر إذ توفي في دمشق سنة (٦٨٨هـ) وهو غضّ الشباب لم يتجاوز السابعة العشرين من عمره، ودفن في مقابر الصوفية[1].

خلّف الشاب الظريف ديوانًا شعرياً، ورسالة صغيرة في ورقتين سمّاها (مقامات العشّاق)، وقد طرق في شعره ثلاثة أغراض بارزة هي: المدح والغزل والخمريات؛ وكان مديحه يمثل حياته، ويبرز مواقف أعدائه وحساده، ويتصف بالمبالغة في نعت الممدوح، وفي غزله كان مقلّدًا لغيره من الشعراء، وكثيرًا ما كان يصف مجالس الشراب واللهو جامعًا بين الخمريات والغزل.

قال ابن فضل الله العمري صاحب (مسالك الأبصار في ممالك الأمصار) في حقّه: "نسيم سرى، ونعيم جرى، وطيف لا بل أخفّ موقعًا منه في الكرى، لم

---

(١) البداية والنهاية ١٣/٣٣٤.

يـأت إلا بمـا خـفّ علـى القلـوب، ويـرئ مـن العيـوب، رقّ شـعره فكـاد أن يُشـرَب، ودقّ فـلا غـرو للقُضـب أن تـرقص والحمـام أن يَطـرب، ولـزم طريقـةً دخـل فيهـا بـلا استئذان، وولـج القلـوب ولـم يقـرع بـاب الآذان، وكـان لأهـل عصـره ومَـنْ جـاء علـى آثـارهم افتتـانٌ بشـعره، وخاصـة أهـل (دمشـق)، فإنـه بـين غمـائم حياضـهم رَيّـا، وفـي كمـائم ريـاضـهم خِبّـا، حتـى تـدفّق نهـره، وأينـع زهـره، وقـد أدركـتُ جماعـة مـن خُلطائـه لا يـرون عليـه تفضـيل شـاعر، ولا يـروون لـه شـعرًا إلا وهـم يعظمونـه كالمشـاعر، لا ينظـرون لـه بيتًـا إلا كالبيـت، لا يقـدّمون عليـه سـابقًا حتـى لـو قلـتَ ولا امـرأ القـيس لمـا بَالَيْـت، ومـرّتْ لـه ولهـم بـالحِمى أوقـاتٌ لـم يبـق مـن زمانهـا إلا تَذكُّره، ولا مـن إحسـانها إلا تشـكّره، وأكثـر شـعره لا بـل كلّـه رشـيق الألفـاظ، سـهل علـى الحفّـاظ، لا يخلـو مـن الألفـاظ العاميـة، ومـا تحلـو بـه المـذاهب الكلاميـة، فلهـذا غَلِـقَ بكـل خـاطر، وولـع بـه كـلّ ذاكـر، وعاجلـه أجلُـه فـاختُرِم، وحَـرَمَ أحبّـاءه لـذة الحيـاة وحُرِم»[1].

قال في مدح النبي ﷺ[2]:

١- أرضَ الأحبّـةِ مـن سفحٍ ومـن كُثُـبِ ... سـقاكِ منهمـرُ الأنـواءِ مـن كَثَـبِ

٢- ولا عدَتْ أهْلَكِ الثّانين من نفس الصَّـ ... ـبا تحيـةُ عـاني القلـب مكتئـبِ

٣- قـومٌ هـم العَـرَب المحمـيُّ جـارُهمُ ... فـلا رعـى اللهُ إلا أوجـه العـربِ

٤- أعزُّ عندِيَ من سمعي ومن بصري ... ومـن فـؤادِيَ ومـن أهلـي ومـن نشـبي

٥- لهـم علـيَّ حقـوق مـذ عـرفتُهمُ ... كـأنني بـين أمٍّ مـنهمُ وأبِ

٦- إن كـانَ أحسنُ مـا فـي الشّعر أكذبُـهُ ... فحُسنُ شِـعريَ فـيهم غيـرُ ذي كـذبِ

---

(١) فوات الوفيات ٣/٣٧٢.

(٢) الديوان: ٥٦.

٧- حيّاكِ يا تربةَ الهادي الشفيعِ حيًا ... بمنطقِ الرعدِ بادٍ من فمِ السُّحبِ

٨- يا ساكني طيبةَ الفيحاءِ هل زمنٌ ... يُدني المحبَّ لنيلِ السؤلِ والأربِ

٩- ضَمَمتِ أعظمَ من يُدعى بأعظمِ مَنْ ... يُسعى إليه أخو صدقٍ فلم يخِبِ

١٠- وحُزتِ أفصحَ مَنْ يهدي وأوضحَ من ... يُبدي وأرجحَ من يُعزى إلى نسبِ

١١- تحدو النياقَ كرامٌ نحو تربتِه ... فتملأ الأرضَ من نُجبٍ ومن نُجُبِ

١٢- يسْعَون نحو هضابٍ طابَ مَوردُها ... كأنما العَذْبُ مشتقٌّ من العَذَبِ

١٣- أرضٌ مع الله عينُ الشمسِ تحرسها ... فإنْ تَغِبْ حرَستْها أعينُ الشُّهُبِ

١٤- يا خيرَ ساعٍ ببساعٍ لا يُردُّ ويا ... أجلَّ داعٍ مطاعٍ طاهرِ الحَسَبِ

١٥- ما كان يرضى لك الرحمن منزلةً ... يا أشرفَ الخلقِ إلا أشرفَ الرُّتبِ

١٦- لي من ذنوبيَ ذنبٌ وافرٌ فعسى ... شفاعةٌ منك تنجيني من اللَّهبِ

١٧- جعلتُ حبَّك لي ذُخرًا ومعتمَدًا ... فكان لي ناظرًا من ناظرِ النُّوبِ

١٨- إليك وجَّهتُ آمالي فلا حُجِبَتْ ... عن بابِ جودك إنَّ الموتَ في الحُجبِ

١٩- وقد دعوتُك أرجو منك مكرمةً ... حاشاك حاشاك أن تُدعى فلم تُجِبِ

وقال في الغزل[1]:

١- لا تُخفِ ما صنعتْ بك الأشواقُ ... واشرحْ هواكَ فكلُّنا عشّاقُ

٢- قد كان يخفى الحبُّ لولا دمعُك الـ ... ـجاري ولولا قلبُك الخفّاقُ

٣- فعسى يُعينك مَنْ شكوتَ له الهوى ... في حمْلِه فالعاشقون رفاقُ!

٤- لا تجزعنّ فلستَ أوّلَ مُغرمٍ ... فتكتْ به الوجَناتُ والأحداقُ

---

(١) الديوان: ١٨٥.

٥- واصبرْ على هجْرِ الحبيبِ فربّما ... عادَ الوصالُ وللهوى أخلاقُ

٦- كم ليلةٍ أسهرْتَ أحداقي بها ... مُلقًى وللأفكارِ بيَ إحداقُ

٧- يا ربِّ قد بَعُدَ الذين أحبُّهم ... عنّي وقد أَلِفَ الرِّفاقَ فِراقُ

٨- واسودَّ حظّي عندهم لمّا سرى ... فيه بنارِ صبابتي إحراقُ

٩- عَرَبٌ رأيتُ أصحّ ميثاقٍ لهم ... أن لا يصحَّ لديهمُ ميثاقُ

١٠- وعلى النِّفاقِ وفي الأكلّةِ مُعْرِضٌ ... فيه نِفارٌ دائمٌ ونفاقُ

١١- ترنو العيونُ إليه في إطراقه ... فإذا رنا فلكلِّها إطراقُ

إن ثقافة الشاب الظريف الدينية على يد أبيه، أحد كبار المتصوفة (عفيف الدين التلمساني) طبعت بعض قصائده بأسلوب التصوف، وقد توضحت هذه المزية في هذه القصيدة[1]:

١- حديثُ غرامي في هواكِ قديمُ ... وفَرْطُ عذابي في هواكِ نعيمُ

٢- بما شئتِ عذِّبْ غيرَ سُخْطِكِ إنّه ... وصدقِ ولائي في هواكِ أليمُ

٣- تمثّلُكِ الأشواقُ وهمًا لخاطري ... فيدركُني بالخوف منكِ وُجومُ[2]

٤- وتُقْنِعُ منكِ الروحُ لمحَ توهُّمٍ ... فتحيا بها الأعضاءُ وهي رميمُ[3]

٥- هنيئًا لطرْفٍ فيكِ لا يعرفُ الكرى ... وتبًّا لقلبٍ فيكِ ليس يهيمُ[4]

---

(١) الديوان: ٢٤٩.

(٢) وجم يجم وجومًا: سكت على غيظ، وعبس وأطرق وسكت عن الكلام لشدة الحزن، فهو واجم.

(٣) الرميم: البالي من كل شيء، يقال: عظم رميم، وعظام رميم ورمائم.

(٤) التب: الخسار، التباب: الخسران والهلاك، وتبًا له، على الدعاء، نصب لأنه مصدر محمول على فعله، كما تقول سقيًا لفلان، أي سقي فلان سقيًا، ومعنى تبًا لفلان: أي ألزمه الله خسرانًا وهلاكًا، قال تعالى: "تبت يدا أبي لهب وتب" سورة المسد: ١، أي: خسئا وخسرتا.

٦- ولمّا جلاك الفكرُ -يا غاية المنى- فظلّ بقلبي مُقعَد ومقيم

٧- وما الكونُ إلا صورةٌ أنتَ روحُها وجسمٌ بغير الروح كيف يقوم؟

٨- توهّم صحبي أنّ بي مسّ جنّةٍ وأنكرَ حالي صاحبٌ وحميم

٩- فبُحتُ بما ألقاه منك مصرّحًا وما نال لذّات الغرام كتومُ

١٠- أغصنَ النقا إني أغارُ إذا غدا يُلاعبُ عطفيك الرشاقَ نسيمُ[1]

١١- ولمّا بَدتْ في طُور خدّك جَذوةٌ ولاحت لقلبي عادَ وهْوَ كليمُ[2]

١٢- يلذُّ لقلبي في هواك عذابُه ولسمُ لا وبالأحوال أنتَ عليم

١٣- رميتُ بأصوات الحجيج على مِنًى وصحبٍ لهم بالمأزمَيْنِ زميمُ[3]

١٤- لأنت -وإن أصبحت بالوصل باخلًا علىّ احتقارًا بي- لديّ كريمُ

١٥- ويا شرفي لمّا غدوتُ وللهوى على جسدي المُضنَى النحيلِ رسومُ

١٦- ويا سائقًا يُضني الركائبَ طُلَّحًا لها في الرسوم المقفرات زَسيمُ[4]

---

(١) النقا: القطعة المحدودبة من الرمل، وهو أيضًا: نبت يعيش في الرمال، له أغصان دقيقة لينة.

(٢) الطور: جبل قرب أيلة، يضاف إلى سيناء أو سيناء، وهو الذي أنس موسى الكليم عليه السلام النار بجانبه فقصدها، ولما قاربها كلمه الله سبحانه وتعالى، الجذوة: النار الملتهبة، الجمع: جُذًا وجِذاء، والكليم: هو الذي تكلمه ويكلمك، وسمي موسى عليه السلام بـ (الكليم) لقوله عز وجل في التنزيل العزيز: "وكلم الله موسى تكليمًا" النساء: ٦٤.

(٣) مِنًى: على وزن (إلى): الموضع المعروف بمكة، المأزمين (بلفظ التثنية): موضع بين المَشْعَر وعرفة، وهو من المأزم: المضيق في الجبال حتى يلتقي بعضها ببعض ويتسع ما وراءه، وفي الحديث قوله ﷺ: "إني حَرَّمتُ المدينة حرامًا ما بين مأزميها"، والزميم: دوي النحل: لسان العرب مادة (أزم).

(٤) طَلَّح البعير: أعيا وكلّ، والطَّلْح والطَّلاحة: الإعياء والسقوط من السفر، الرسوم: جمع الرسم، وهو الأثر الباقي من الدار بعد أن عفت، الرسيم: ضرب من سير الإبل، سريع مؤثر في الأرض، وهو من قولهم: رسمت الناقة ترسمُ رسيمًا: أثرت في الأرض من شدة وطئها.

١٧- إذا عايَنْتَ عيناك بارقَ أبرَقٍ ... يلوح كما في الأفق لاحَ نجومُ[١]

١٨- وباحتْ بأسرار الرُّبا نَسَمةُ الصَّبا ... وعطَّر أقطارَ القِفار شميمُ[٢]

١٩- وعايَنْتَ سَلْعًا قِفْ وسائِلْ أحبَّتي ... فهذا الذي أصبحتُ منك أرومُ[٣]

٢٠- فثَمَّ رِمْنا شوقي إليه مبرِّحٌ ... وريعَ فؤادي عنه ليس يَريم[٤]

٢١- أُغالط عنه بالكلام مُجالِسي ... وفي القلب من ذكري سواه كُلُوم

٢٢- له من سُويداء الفؤاد معاهدٌ ... وبين سوادِ المقلتين رسومُ

٢٣- وقل: يا غريبَ الحُسنِ رِقَّ لنازحٍ ... غريبٍ له قلبٌ لديك مقيمُ

٢٤- ترحَّلْ عنه مذ ترحَّلتَ نافرًا ... فليس له حتى القدوم قدومُ

٢٥- عليك سلامٌ من كئيبٍ متيَّمٍ ... تظلّ سليمًا وهو منك سليم[٥]

٣- البوصيري (٦٠٨-٦٩٧هـ)[٦]:

شرف الدين أبو عبد الله محمد بن سعيد بن حمّاد الصّنهاجي، أصله من قلعة حماد ببلاد المغرب، كان أبوه من ناحية "بوصير" بمصر وأمه من "دلاص" ولهذا قيل له : "الدلاصيري" بنحت النسبتين وجمعهما في واحدة، غير أن نسبته السائدة هي البوصيري.

---

(١) الأبرق: الأرض الغليظة فيها حجارة وطين ورمل، وأبرَقُ ديار العرب لا تكاد تحصى لكثرتها.

(٢) الشميم: الرائحة الطيبة.

(٣) سلع: اسم موضع.

(٤) الرشأ: الظبي إذا قوي وتحرك ومشى مع أمه، والجمع أرشاء، الرّيم: الظبي الأبيض الخالص البياض، الريم: البراح، ورام يريم: إذا برح، ولا يريم أي لا يبرح.

(٥) السليم (الأولى): المعافى، السليم (الثانية): الملدوغ.

(٦) تنظر ترجمته في: فوات الوفيات ٣٦٢/٣، والوافي بالوفيات ١٠٥/٣، والأعلام ١٣٩/٦.

تلقّى علومه الأولى في بلده، فحفظ القرآن الكريم، ثم انتقل إلى القاهرة، وتفقّه فيها وتعلّم علوم العربية والأدب، كان من أظهر شيوخه أبو الحسن الشاذلي، وأبو العباس المُرْسي، وقد صحب هذا الأخير بالإسكندرية ردحًا من الزمن، وكان البوصيري وابن عطاء الله السكندري ممن تشربوا روح أبي العباس المرسي، وأخذوا عنه مذهبه في السلوك، وطريقه في التصوف، وانتفعوا أكبر نفع بصحبته، حتى قيل: "إنه خلع على البوصيري الشعر، وعلى ابن عطاء الله النثر"، ومن تلامذة البوصيري محقق عصره العزّ بن جماعة الذي تولّى قضاء مصر وعمّر طويلًا، وأبو حيّان الأندلسي (٧٤٥هـ) وكان إمامًا في النحو، ومنهم أبو الفتح بن سيّد الناس اليعمري (٧٣٤هـ)، وعاصر البوصيريُّ من الشعراء أيام الدولة الأيوبية ابنَ النبيه (٦٥٤هـ)، والبهاء زهيرًا (٦٥٦هـ)، وغيرهم ممن كانت تموج بهم مصر والشام[1].

عانى صناعة الكتابة، وعُيّن مباشِرًا (أي كاتبًا) في الشرقية ببلبيس، وعُرف بالصراحة في القول، والشدّة في الحقّ فهجا مباشري الشرقية بقصيدة مطلعها:

ثكلتُ طوائفَ المستخدَمينا ... فلم أرَ فيهمُ رجلًا أمينا

فقدّ عاشرتُهم ولبثتُ فيهم ... مع التجريبِ من عُمري سنينا

حسوتُ بُلْبيسُ طائفةً لصوصًا ... غدلتُ بواحدٍ منهم مِئينا

ثم انتقل إلى القاهرة وحاول التكسب بالشعر فلم يفلح، وعُرض عليه أن يتولى حِسْبَة القاهرة فأبى، وقال:

لا تظلموني وتظلموا الحِسْبَةْ ... فليس بيني وبينها نِسْبَةْ

غيري في البيعِ والشرا ذَرِبٌ ... وليس في الحالتين لي ذَرْبَةْ

---

(١) فوات الوفيات ٣/٣٩١.

وافتتح كتّابًا لتعليم القرآن الكريم في القاهرة، وبقي فيها حتى أسنّ، ودَرَسَ الإنجيل والتوراة واطّلع على كتب اليهود والنصارى، وضمّن شعره كثيرًا من ذلك في مجادلتهم، وضمّن قصائده كثيرًا من التعليقات والشروح النثرية الدالّة على هذه المعاني.

وإذا ذُكر شعر البوصيري ذكر معه الغرض الرئيس الذي أفاض فيه واستغرق جلّ ديوانه، وهو شعر المديح النبوي، وقد بلغ عدد قصائده أربع عشرة قصيدة، وقصيدتاه البردة والهمزية سارتا مسير الشمس، وضرب بهما المثل في البلاغة والروعة والبيان على مرّ العصور، أما الهمزية فقد أشار ابن تغري بردي إليها نقلًا عن الشيخ أثير الدين في قوله: "وله في مديح النبي ﷺ عدة قصائد طنانة منها قصيدة مهموزة أولها:

كيف ترقى رُقيّك الأنبياءُ ... يا سماءً ما طاولتها سماءُ"[1]

وسمّاها (أم القرى في مدح خير الورى) وهي تاريخ لحياة الرسول الكريم ﷺ، وسجّل لمعجزاته وغزواته، وأبياتها تزيد على أربعمئة بيت، فهي تمتاز بطول النفس، وبساطة القول، وعدم الاحتفال بالزينة اللفظية، ولها شروح كثيرة ومعارضات طويلة.

وأما الميمية فهي القصيدة النبوية الكبرى المعروفة بـ(البردة)، وهي أفضل ما قيل في مدح الرسول ﷺ بعد لامية كعب بن زهير، وقد اشتُهرت كثيرًا في المحافل الدينية، وتناقلت روايتها الحلقات الأدبية، ولا نبالغ إن ذكرنا أنها حظيت باهتمام المتصوفة والأدباء والنقاد وطوائف الناس عامة[2]، ولم يعرف مثلها أيّ قصيدة في أدبنا العربي على اختلاف عصوره، فقد شرحها كثير من الشعراء

---

(١) ملحق ديوان البوصيري، تحقيق محمد سيد الكيلاني: ٢٤٤.

(٢) تاريخ الأدب العربي، د. عمر موسى باشا ١٩٣/١.

عشرات الشروح[1] وشطّروها وخمّسوها وسبّعوها وعشّروها وضمّنوها وعارضوها، ومن الشعراء المعارضين من المتأخرين والمحدثين: العاملي والبارودي وأحمد شوقي.

ترجمت البردة إلى عدة لغات (الفرنسية والألمانية والإنكليزية والألبانية)، وطبعت عدة طبعات مختلفة في فيينا والأستانة ومكة وبمباي، وبلغ عدد طبعاتها في القاهرة أكثر من خمسين طبعة.

ولهذه القصيدة مناسبة لطيفة أوردها ابن شاكر على لسان الشاعر وفيها يقول: "كنت قد نظمت قصائد في مدح الرسول ﷺ، ثم اتفق بعد ذلك أنه أصابني فالج أبطل نصفي، ففكرت في عمل قصيدتي هذه البردة فعملتها، واستشفعت بها إلى الله في أن يعافيني، وكررت إنشادها، وبكيت ودعوت، وتوسلت ونمتُ، فرأيتُ النبي ﷺ فمسح على جنبي بيده المباركة وألقى عليّ بردة، فانتبهت، ووجدت فيّ نهضةً، فقمت، وخرجت من بيتي"[2].

أكثر البوصيري من مدح رسول الله ﷺ، وله فيه غير الهمزية والبردة، قصيدة (ذخر المعاد في معارضة بانت سعاد) وهي التي عارض فيها قصيدة كعب بن زهير، وعدد أبياتها أكثر من مئتي بيت، ومنها:

إلى متى أنت باللذات مشغولُ ... وأنتَ عن كلّ ما قدّمتَ مسؤولُ؟

في كلّ يومٍ تُرجّي أن تتوبَ غدًا ... وعَقْدُ عزمِكَ بالتسويف محلولُ

---

(١) وجدير بالذكر أن ابن خلدون -صاحب المقدمة والتاريخ- كان من أقدم من شرحوا بردة البوصيري "شرحًا بديعًا دلّ على انفساح ذرعه، وتفنن إدراكه، وغزارة حفظه" كما يقول المقرّي التلمساني في كتاب نفح الطيب ٦/ ١٨٠، ولابن خلدون شعر في المديح النبوي، وربما تكون البردة هي التي أوحت به، ولإعجابه بها قدّم ابن خلدون بردة البوصيري هدية لـ (تيمورلنك) عندما التقاه في مفاوضات الصلح في دمشق.

(٢) فوات الوفيات ٢/ ٢٥٦، ٢٦١.

فجـرِّدِ العـزمَ إن المـوتَ صـارمُه ... مجـرَّدٌ بيـدِ الآجـالِ مسـلولُ

واقطـعْ حبـالَ الأمـانيِّ التـي اتَّصَـلَتْ ... فإنمـا حبلُهـا بـالزورِ موصـولُ

أنفقْـتَ عمـرَكَ فـي مـالٍ تحصّـلـه ... ومـا علـى غيـرِ إثـمٍ منـك تحصـولُ

ورُحْـتَ تعْمُـرُ دارًا لا بقـاء لهـا ... وأنـتَ عنهـا وإن عُمِّـرْتَ منقـولُ

جـاء النـذيرُ فشـمِّرْ للمسـيرِ بـلا ... مَهْـلٍ فلـيس مـع الإنـذار تمهيـلُ

ومنها قصيدته التي أولها:

أمـدائحٌ لـي فيـك أم تسـبيحُ ... لـولاكَ مـا غفـرَ الـذنوبَ مـديحُ

ثمّ مِدْحـة أخـرى اعتـذر فيهـا بسـبب احتـراق الحـرم النبـوي الشـريف، وسمّاها (تقـديس الحـرم مـن تـدنيس الضَّـرَم)، وكنّاهـا بـأمّ النّـارين، وعـدد أبياتهـا تسـعة وتسعون، وأولها:

إلهـي علـى كـلّ الأمـور لـك الحمـدُ ... فلـيس لمـا أوليْـتَ مـن نعـمٍ عَـدُّ

وسـائر شـعر البوصـيري فـي المـديح والهجـاء والشـكوى مـن الحيـاة والنـاس والدعابـة، وظهـرت فـي مدائحـه البيئـة المصـرية الخالصـة كالاهتمـام بـالترع والـري وضـبط ميـاه النيـل، وتناولـت شـكواه مسـائل الحيـاة اليوميـة، "وشـعره غايـةٌ فـي الحسن واللطافة، عذب الألفاظ، منسجم التراكيب"[1].

طبـع ديوانـه فـي القـاهرة سـنة ١٩٥٥م بتحقيـق محمـد سـيد كيلانـي، ولـم يُعـرف الـديوان ولـم يُتـداول بـين أيـدي النـاس تـداول البـردة والهمزيـة واشـتهارهما، فقـد طبعتـا مستقلّتين، ومع شروحهما طبعات مختلفة.

قال يمدح النبي ﷺ في بردته[2]:

---

(١) فوات الوفيات ٢/٢٦٠.

(٢) الديوان: ١٩٠.

١- أمِنْ تَذَكُّرِ جيرانٍ بذي سَلَمِ[1] مَزَجْتَ دَمعاً جرى من مُقلةٍ بدمِ

٢- أم هَبَّتِ الريحُ من تِلْقاءِ كاظِمَةٍ وأومضَ البرقُ في الظلماءِ من إضَمِ[2]

٣- فما لِعَينيكَ إن قُلتَ اكْفُفا هَمَتا ومالِ قلبِكَ إن قُلتَ استَفِقْ يَهِمِ

٤- أيحسبُ الصَّبُّ أنَّ الحبَّ مُنكَتِمٌ ما بينَ منسَجِمٍ منه ومُضْطَرِمِ[3]

٥- لولا الهوى لم تُرِقْ دمعاً على طَلَلٍ ولا أرِقْتَ لذكرِ البانِ والعَلَمِ[4]

٦- فكيفَ تُنكِرُ حبّاً بعدما شَهِدَت بهِ عليكَ عُدولُ الدمعِ والسَّقَمِ

٧- وأثبتَ الوَجْدُ خَطّي عَبْرَةٍ وضَنىً مثلَ البَهارِ على خَدَّيكَ والعَنَمِ[5]

٨- نَعَم سرى طيفُ مَن أهوى فأرَّقَني والحُبُّ يعتَرِضُ اللَّذاتِ بالأَلَمِ

٩- يا لائمي في الهوى العُذْرِيِّ معذِرَةً مِنّي إليكَ ولو أنصَفتَ لم تَلُمِ

١٠- عَذَلْتَ حالِيَ لا سِرّي بمُستَتِرٍ عن الوُشاةِ ولا دائي بمُنحَسِمِ

١١- مَحَضْتَنِي[6] النُّصحَ لكِنْ لستُ أسمَعُهُ إنَّ المُحِبَّ عَنِ العُذّالِ في صَمَمِ

١٢- إنّي اتَّهَمْتُ نصيحَ الشَّيْبِ في عَذَلٍ والشَّيْبُ أبعَدُ في نُصحٍ من التُّهَمِ

١٣- فإنَّ أمّارَتي بالسوءِ[7] ما اتَّعَظَت مِن جهلِها بنذيرِ الشَّيْبِ والهَرَمِ

١٤- ولا أعَدَّتْ مِنَ الفِعلِ الجميلِ قِرًى ضَيفٍ ألَمَّ برأسي غيرَ مُحتَشِمِ

---

(١) ذو سلم: موضع بين مكة والمدينة.

(٢) إضم واد بجبال تهامة، وهو الوادي الذي فيه المدينة.

(٣) المنسجم: الدمع السائل، والمضطرم: القلب المتقد بالحب.

(٤) البان: شجر معروف، والعلم: اسم جبل، والمراد هنا موضعان في الحجاز.

(٥) البهار: ورد أصفر، وإحمته بهارة، والعنم: شجر له أغصان حمر لينة، وقيل: أطراف الخروب.

(٦) محضتني النصح: أي أخلصته.

(٧) الأمارة بالسوء: كناية عن النفس.

١٥- لو كنتُ أعلمُ ألّي ما أوقّرُهُ كتمتُ سِرًّا بَدَا لي منه بالكَتَمِ[١]

١٦- مَنْ لي بِرَدِّ جِمَاحٍ مِن غَوَايتِهَا كما يُرَدُّ جِمَاحُ الخيلِ باللُّجُمِ

١٧- والنفسُ كالطفلِ إنْ تُهمِلْهُ شَبَّ عَلَى حُبِّ الرَّضَاعِ وإنْ تَفطِمْهُ يَنفطِمِ

١٨- فاصْرِفْ هواها وحاذِرْ أن تُوَلِّيَهُ إنَّ الهوى ما تَوَلَّى يُصْمِ أو يَصِمِ[٢]

١٩- كَمْ حسَّنَتْ لَذَّةٌ للمرءِ قاتِلَةً من حيثُ لم يَدْرِ أنَّ السُّمَّ في الدَّسَمِ

٢٠- واستفرغِ الدمعَ مِن عينٍ قَدِ امْتَلأَتْ مِنَ المَحَارِمِ واْلزَمْ حِميَةَ النَّدَمِ[٣]

٢١- وخالِفِ النفسَ والشيطانَ واعصِهِما وإنْ هما مَحَضَاكَ النُّصحَ فاتَّهِمِ

٢٢- ولا تُطِعْ منهما خَصْمًا ولا حَكَمًا فأنت تَعرِفُ كيدَ الخَصمِ والحَكَمِ

٢٣- أستغفرُ اللهَ من قولٍ بلا عملٍ لقد نسبتُ به نسلًا لذي عُقُمِ

٢٤- أمرتُك الخيرَ لكنْ ما ائتمرتُ به وما استقمتُ فما قولي لك استقِمِ

٢٥- ولا تَزَوَّدتُ قبلَ الموتِ نافلةً ولم أصلِّ سوى فرضٍ ولم أصُمِ

٢٦- ظَلَمتُ سُنَّةَ مَن أحيا الظلامَ إلى أنِ اشتَكَتْ قدماهُ الضُّرَّ مِن وَرَمِ

٢٧- وشَدَّ مِن سَغَبٍ أحشاءَه وطَوَى تحتَ الحجارةِ كَشْحًا[٤] مُتْرَفَ الأدَمِ[٥]

٢٨- وراوَدَتْهُ الجبالُ الشُّمُّ مِن ذَهَبٍ عن نفسِه فأراها أيَّما شَمَمِ

٢٩- وأكْدَتْ زُهدَهُ فيها ضرورَتُهُ إنَّ الضرورةَ لا تَعدُو على العِصَمِ

---

(١) الكتم: نبت يخلط بالحناء ويخضب به.

(٢) يُصْمِي: من أصمى أي يقتل، ويصم: من وصَمَ، أي يعيب.

(٣) حمية الندم: الحمية عن الشيء هي الامتناع عنه.

(٤) الكشح: هو ما بين الخاصرة إلى الضلع أو أقصى الجنب.

(٥) مترف الأدم: المترف: المنعم، ومترف الأدم: كناية عن نعومة جلده الزائدة.

٣٠- وكيف تدعو إلى الدنيا ضرورةُ مَنْ ... لولاه لم تخرجِ الدنيا من العدمِ

٣١- محمدٌ سيّدُ الكونين والثقلَيْـ ... ـنِ[1] والفريقين من عُربٍ ومن عَجَمِ

٣٢- نبيُّنا الآمرُ الناهي فلا أحَدٌ ... أبرُّ في قولِ (لا) منه ولا (نَعَمِ)

٣٣- هُو الحبيبُ الذي تُرجَى شفاعَتُهُ ... لكلِّ هولٍ من الأهوالِ مُقتحمِ

٣٤- دَعا إلى اللهِ فالمُستمسكُون بهِ ... مُستمسكُون بحبلٍ غيرِ مُنفصمِ

٣٥- فاقَ النبيّينَ في خَلْقٍ وفي خُلُقٍ ... ولم يُدانُوهُ في علمٍ ولا كَرَمِ

٣٦- وكُلُّهُم من رسولِ اللهِ مُلتمسٌ ... غرفًا من البحرِ أو رَشفًا من الدِّيَمِ

٣٧- دَعْ ما ادَّعَتهُ النصارى في نبيِّهِمُ ... واحكُم بما شئتَ مدحًا فيه واحتكِمِ

٣٨- وانسُبْ إلى ذاتِهِ ما شئتَ من شَرَفٍ ... وانسُب إلى قَدْرِهِ ما شئتَ من عِظَمِ

٣٩- فإنَّ فضلَ رسولِ اللهِ ليس لهُ ... حَدٌّ فيُعرِبَ عنهُ ناطقٌ بفَمِ

٤٠- أعيا الورى فَهْمُ معناهُ فليس يُرَى ... في القُربِ والبُعدِ فيه غيرُ مُنفحِمِ[2]

٤١- كالشمسِ تظهرُ للعينَيْنِ من بُعُدٍ ... صغيرةً وتُكِلُّ الطَّرْفَ من أمَمِ[3]

٤٢- وكيفَ يُدرِكُ في الدنيا حقيقتَهُ ... قومٌ نيامٌ تسلَّوا عنه بالحُلُمِ؟

٤٣- فمبلَغُ العلمِ فيه أنَّه بشَرٌ ... وأنَّهُ خيرُ خلقِ اللهِ كُلِّهِمِ

٤٤- أكرِمْ بخَلْقٍ نبيٍّ زانهُ خُلُقٌ ... بالحُسنِ مشتمِلٍ بالبِشرِ مُتَّسِمِ

٤٥- كالزَّهرِ في تَرَفٍ والبدرِ في شَرَفٍ ... والبحرِ في كَرَمٍ والدهرِ في هِمَمِ

٤٦- كأنَّهُ وهُوَ فَرْدٌ من جلالتِهِ ... في عسكرٍ حينَ تلقاهُ وفي حَشَمِ

---

(١) الثقلان: الإنس والجن.

(٢) منفحم: الساكت عجزًا في المناظرة، والمفحم عن المجادلة: إذا سكت ولم يجب.

(٣) تُكِلّ: أي تتعب. والأمم: القرب.

٤٧- لا طيبَ يَعدِلُ تُربًا ضَمَّ أعظُمَهُ ... طُوبى[1] لمُنتَشِقٍ منه ومُلتَثِمِ

٤٨- ما ساءَني الدَّهرُ ضيمًا واستَجَرتُ بِهِ ... إلا ونِلتُ جِوارًا منه لم يُضَمِ

٤٩- ولا التَمستُ غِنى الدارَينِ مِن يَدِهِ ... إلا استَلَمتُ النَّدى مِن خيرِ مُستَلَمِ

٥٠- لا تُنكِرِ الوَحيَ مِن رُؤياهُ إنَّ لَهُ ... قَلبًا إذا نامَتِ العَينانِ لم يَنَمِ

٥١- دَعني وَوَصفِيَ آياتٍ لَهُ ظَهَرَت ... ظُهورَ نارِ القِرى لَيلًا على عَلَمِ

٥٢- فالدُّرُّ يَزدادُ حُسنًا وَهوَ مُنتَظِمٌ ... ولَيسَ يَنقُصُ قَدرًا غَيرَ مُنتَظِمِ

٥٣- لا تَعجَبَنَّ لِحَسُودٍ راحَ يُنكِرُها ... تَجاهُلًا وَهوَ عَينُ الحاذِقِ الفَهِمِ

٥٤- قد تُنكِرُ العَينُ ضَوءَ الشَمسِ مِن رَمَدٍ ... وَيُنكِرُ الفَمُ طَعمَ الماءِ مِن سَقَمِ

٥٥- يا خَيرَ مَن يَمَّمَ العافونَ ساحَتَهُ ... سَعيًا وَفَوقَ مُتونِ الأَينُقِ الرُسُمِ[2]

٥٦- سَرَيتَ مِن حَرَمٍ لَيلًا الى حَرَمٍ ... كَما سَرَى البَدرُ في داجٍ مِنَ الظُلَمِ

٥٧- وَبِتَّ تَرقى الى أَن نِلتَ مَنزِلَةً ... مِن قابِ قَوسَينِ[3] لَم تُدرَك وَلَم تُرَمِ

٥٨- راعَتكَ قُلوبَ العِدا أَنباءُ بَغتَتِهِ ... كَنَبأَةٍ[4] أَجفَلَتكَ غُفلًا مِنَ الغَنَمِ

٥٩- ما زالَ يَلقاهُمُ في كُلِّ مُعتَرَكٍ ... حَتّى حَكَوا بِالقَنا لَحمًا على وَضَمِ[5]

---

(١) طوبى: مصدر من الطيب قلبت الياء واوًا لضم ما قبلها.

(٢) العافون: جمع عاف، وهو طالب المعروف. والأينق: جمع ناقة، وتجمع على نياق أيضًا، وهي الناقة التي تؤثر في الأرض من شدة الوطء.

(٣) (قاب قوسين) مقتبسة من قوله تعالى: "فكان قاب قوسين أو أدنى" (النجم: ٩).

(٤) نبأة: صرخة.

(٥) وضم: هو ما يضع عليه الجزار اللحم.

٦٠- وَدُّوا الفِرَارَ فكادُوا يَغبِطُونَ بِهِ ... أشلاءَ شَالَتْ مَعَ العِقبَانِ والرَّخَمِ[1]

٦١- ومَنْ تكُنْ برسولِ اللهِ نُصرَتُه ... إنْ تلقَهُ الأُسْدُ فِي آجامِهَا تَجِمِ

٦٢- ولَن ترى مِنْ وَلِيٍّ غيرَ مُنْتَصِرٍ ... بِهِ ولا مِنْ عَدُوٍّ غيرَ منقصِمِ

٦٣- أحَلَّ أُمَّتَهُ فِي حِرزِ مِلَّتِهِ ... كاللَّيثِ حَلَّ مَعَ الأَشبالِ فِي الأَجَمِ

٦٤- كفاكَ بالعلمِ فِي الأُمِّيِّ معجزةً ... فِي الجاهليةِ والتأديبِ فِي اليُتُمِ

٦٥- إنْ آتِ ذَنْبًا فما عَهدِي بِمُنْتَقِضٍ ... مِنَ النَّبِيِّ ولا حَبلِي بِمُنْصَرِمِ

٦٦- فإنَّ لِي ذِمَّةً منه بتسميَتِي ... مُحَمَّدًا وهُوَ أوفَى الخلقِ بالذِّمَمِ

٦٧- إنْ لَم يكُن فِي مَعَادِي آخِذًا بِيَدِي ... فَضْلًا وإلَّا فقُلْ يا زَلَّةَ القَدَمِ

٦٨- يا أكرَمَ الرُّسْلِ ما لِي مَن أَلُوذُ بِهِ ... سِوَاكَ عِندَ حُلُولِ الحادِثِ العَمِمِ[2]

٦٩- ولَن يَضِيقَ رسولَ اللهِ جاهُكَ بِي ... إذا الكريمُ تَحَلَّى باسمِ مُنتَقِمِ

٧٠- فإنَّ مِنْ جودِكَ الدنيا وضَرَّتَها[3] ... ومِن علومِكَ علمَ اللَّوحِ والقَلَمِ

٧١- يا نَفْسُ لا تُقنِطِي مِن زَلَّةٍ عَظُمَتْ ... إنَّ الكَبَائِرَ فِي الغُفرَانِ كاللَّمَمِ[4]

٧٢- لعَلَّ رحمَةُ رَبِّي حِينَ يَقسِمُهَا ... تَأتِي على حَسَبِ العِصيَانِ فِي القِسَمِ

٧٣- يا ربِّ واجعَلْ رجائي غيرَ منعكسٍ ... لَدَيكَ واجعَلْ حسابِي غيرَ مُنْخَرِمِ

٧٤- والطُفْ بعبدِكَ فِي الدارَيْنِ إنَّ لَهُ ... صَبرًا متى تَدْعُهُ الأهوالُ ينهزِمِ

---

(١) أشلاء: جمع شلو، وهو العضو من اللحم، والعقبان: جمع عقاب وهو من كرائم الطير، والرخم: جمع رخمة، وهو طائر يشبه النسر يقع على الميتات.

(٢) الحادث العمم: أي الشامل للخلق وهو هول يوم القيامة.

(٣) ضرتها: ضرة الدنيا: هي الآخرة.

(٤) اللمم: صغار الذنوب.

٧٥- وائذن لسُحْبِ صلاةٍ منك دائمةٍ على النبيِّ بسُنهَلٍّ ومنسجم

وقال يمدح الرسول أيضًا، وهي الهمزية المعروفة بأم القرى[1]:

١- كيف ترقى رُقيُّكَ الأنبياءُ يا سماءً ما طاولتها سماءُ؟

٢- لمْ يُساووكَ في عُلاكَ وقدْ حا لَ سنًا منكَ دونهم وسناءُ

٣- إنّما مثّلوا صفاتكَ للنّا سِ كما مثّلَ النجومَ الماءُ

٤- أنتَ مصباحُ كلِّ فضلٍ فما تُصـ ـذرُ إلّا عن ضوئك الأضواءُ

٥- ألِفَ النُّسكَ والعبادةَ والخُلْـ ـوةَ طفلًا وهكذا النُّجباءُ

٦- وإذا حلّتِ الهدايةُ قلبًا نشطَتْ في العبادة الأعضاءُ

٧- وبَنو قومِ جفّوا نبيًّا بأرضٍ ألِفَتْهُ ضِباؤها والظِّباءُ

٨- ومَلأوه وخنَّ جِذعٌ إليه وقلوهُ ووَدَّهُ الغُرباءُ

٩- أخرجوه منها وآواه غارٌ وحمَتْهُ حمامةٌ وزَفاءُ

١٠- وكفَتْهُ بنسجها عنكبوتٌ ما كفَتْهُ الحمامةُ الحصداءُ[2]

١١- ونحا المصطفى المدينةَ واشتا قت إليه من مكّةَ الأنحاءُ

١٢- ثمّ وافى يُحَدِّثُ النّاسَ شُكرًا إذْ أتتْهُ من ربِّهِ النُّعماءُ

١٣- وهْوَ يَدْعُو إلى الإلهِ وإنْ شَقْـ ـقَ عليْهِ كُفْرٌ بهِ وازْدِراءُ

١٤- وَيَدُلُّ الْوَرَى عَلَى اللهِ بِالنُّو رِ وَهُوَ الْمَحَجَّةُ الْبَيْضاءُ

١٥- فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لانْتْ صَخْرَةٌ مِنْ إبائِهِمْ صَمّاءُ

---

(١) الديوان: ٤٩، والقصيدة في الديوان أربعمئة واثنان وستون بيتًا، وها هنا مختارات منها.

(٢) الحصداء: الحمامة الكثيرة الريش.

١٦- وَاسْتَجَابَتْ لَهُ بِنَصْرٍ وَفَتْحٍ بَعْدَ ذَاكَ الْخَضْرَاءُ وَالْغَبْرَاءُ

١٧- سَيِّدٌ ضِحْكُهُ التَّبَسُّمُ وَالْمَشْـ ـيُ الْهُوَيْنَا وَلَوْمُهُ الإِغْفَاءُ

١٨- لا تَحُسُّ الْبَأْسَاءُ مِنْهُ عُرَا الصَّبْـ ـرِ وَلا تَسْتَخِفُّهُ السَّرَّاءُ

١٩- جَهِلَتْ قَوْمُهُ عَلَيْهِ فَأَغْضَى وَأَخُو الْحِلْمِ دَأْبُهُ الإِغْضَاءُ

٢٠- كَرُمَتْ نَفْسُهُ فَمَا يَخْطُرُ السُّو ءُ عَلَى قَلْبِهِ وَلا الْفَحْشَاءُ

٢١- لا تَقِسْ بِالنَّبِيِّ فِي الْفَضْلِ خَلْقًا فَهُوَ الْبَحْرُ وَالأَنَامُ إِنَاءُ

٢٢- كُلُّ فَضْلٍ فِي الْعَالَمِينَ فَمِنْ فَضْـ ـلِ النَّبِيِّ اسْتِعَارَةُ الْفُضَلاءُ

٢٣- سُتِرَ الْحُسْنُ مِنْهُ بِالْحُسْنِ فَاعْجَبْ لِجَمَالٍ لَهُ الْجَمَالُ وَقَاءُ

٢٤- فَهْوَ كَالزَّهْرِ لاحَ مِنْ سَحَبِ الأَكْـ ـمَامِ وَالْعُودِ شُقَّ عَنْهُ اللِّحَاءُ

٢٥- فِعْلُهُ كُلُّهُ جَمِيلٌ وَهَلْ يَنْـ ـضَحُ إِلاَّ بِمَا حَوَاهُ الإِنَاءُ

٢٦- أَيُّ نُورٍ وَأَيَّ نَوْرٍ شَهِدْنَا يَوْمَ أَبْدَتْ لَنَا الْقِبَابُ قُبَاءُ

٢٧- قَرَّ مِنْهَا دَمْعِي وَقَرَّ اصْطِبَارِي فَدُمُوعِي سَيْلٌ وَصَبْرِي جُفَاءُ

٢٨- فَتَرَى الرَّكْبَ طَائِرِينَ مِنَ الشَّوْ قِ إِلَى طَيْبَةٍ لَهُمْ ضَوْضَاءُ

٢٩- كُلُّ نَفْسٍ مِنْهَا ابْتِهَالٌ وَسُؤْلٌ وَدُعَاءٌ وَرَغْبَةٌ وَابْتِغَاءُ

٣٠- وَبُكَاءٌ يُغْرِيهِ بِالْعَيْنِ مَدٌّ وَنَحِيبٌ يَحُثُّهُ اسْتِعْلاءُ

٣١- وَدُمُوعٌ كَأَنَّمَا أَرْسَلَتْهَا مِنْ جُفُونٍ سَحَابَةٌ وَطَفَاءُ

٣٢- فَخَطَطْنَا الرِّحَالَ حَيْثُ يُخَطُّ الـ ـرِّزْرُ عَنَّا وَتُرْفَعُ الْحَوْبَاءُ

٣٣- وَقَرَأْنَا السَّلامَ أَكْرَمَ خَلْقِ اللـ ـلهِ مِنْ حَيْثُ يُسْمَعُ الإِقْرَاءُ

٣٤- وَدَهِلْنَا عِنْدَ اللِّقَاءِ وَكَمْ أَذْ هَلَ صَبًّا مِنَ الْحَبِيبِ لِقَاءُ

٣٥- وَوَجَمْنَا مِنَ الْمَهَابَةِ حَتَّى ... لاَ كَلاَمٌ مِنَّا وَلاَ إِيمَاءُ

٣٦- وَرَجَعْنَا وَلِلْقُلُوبِ الْتِفَاتَا ... تٌ إِلَيْهِ وَلِلْجُسُومِ انْثِنَاءُ

٣٧- لَيْتَهُ خَصَّنِي بِرُؤْيَةِ وَجْهِهِ ... زَالَ عَنْ كُلِّ مَنْ رَآهُ الشَّقَاءُ

٣٨- أَوْ بِتَقْبِيلِ رَاحَةٍ كَانَ لِلْـ ... ـهِ وَبِاللهِ أَخْذُهَا وَالْعَطَاءُ

٣٩- أَوْ بِلَثْمِ التُّرَابِ مِنْ قَدَمٍ لا ... نَتْ حَيَاةً مِنْ مَشْيِهَا الصَّفْوَاءُ

٤٠- فَهْيَ قُطْبُ الْمِحْرَابِ وَالْحَرْبِ كَمْ دا ... رَتْ عَلَيْهَا فِي طَاعَةٍ أَرْحَاءُ

٤١- آلَ بَيْتِ النَّبِيِّ طِبْتُمْ فَطَابَ الـ ... ـمَدْحُ لِي فِيكُمْ وَطَابَ الرِّثَاءُ

٤٢- أَنَا (حَسَّانُ) مَدْحِكُمْ فَإِذَا لَمْ ... تُ عَلَيْكُمْ فَإِنَّنِي (الْخَنْسَاءُ)

٤٣- سُدْتُمُ النَّاسَ بِالتُّقَى وَسِوَاكُمْ ... سَوَّدَتْهُ الْبَيْضَاءُ وَالصَّفْرَاءُ

٤٤- الأَمَانَ الأَمَانَ إِنَّ فُؤَادِي ... مِنْ ذُنُوبٍ أَثْقَلْتُهُنَّ هَوَاءُ

٤٥- هَذِهِ عِلَّتِي وَأَنْتَ طَبِيبِي ... لَيْسَ يَخْفَى عَلَيْكَ فِي الْقَلْبِ دَاءُ

٤٦- قَدْ تَمَسَّكْتُ مِنْ وِدَادِكَ بِالْحَبْـ ... ـلِ الَّذِي اسْتَمْسَكَتْ بِهِ الشُّفَعَاءُ

٤٧- وَأَبَى اللهُ أَنْ يَمَسَّنِيَ السُّو ... ءُ بِحَالٍ وَلِي إِلَيْكَ الْتِجَاءُ

٤٨- وَانْطَوَتْ فِي الصُّدُورِ حَاجَاتُ نَفْسٍ ... مَا أَنَا عَنْ نَدَى يَدَيْكَ الْعِلْوَاءُ

٤٩- آهِ مِمَّا جَنَيْتُ إِنْ كَانَ يُغْنِي ... أَلَفٌ مِنْ عَظِيمِ ذَنْبٍ وَهَاءُ!

٥٠- أَرْتَجِي تَوْبَةً نَصُوحًا وَفِي الْقَلْـ ... ـبِ نِفَاقٌ وَفِي اللِّسَانِ رِيَاءُ

٥١- وَمَتَى يَسْتَقِيمُ قَلْبِي وَلِلْجِسْـ ... ـمِ اعْوِجَاجٌ مِنْ كِبْرَتِي وَالْخُيَلاءُ؟

٥٢- كُنْتُ فِي نَوْمَةِ الشَّبَابِ فَمَا اسْتَيْـ ... ـقَظْتُ إِلا وَلِلْمَشِيبِ شَمَطَاءُ

٥٣- صَاحِ لاَ تَأْسَ إِنْ ضَعُفْتَ عَنِ الطَّا ... عَةِ وَاسْتَأْثَرَتْ بِهَا الأَهْوِيَاءُ

٥٤- إنَّ للهِ رَحْمَـــةً وَأَخَـــقُّ اللَّـــ ـــنَاسِ مِنْـــهُ بِالرَّحْمَـــةِ الضُّـــعَفَاءُ

٥٥- لاَ تَقُـلْ حَاسِـدًا لِغَيْـرِكَ: هَـذَا أَثَمَـرَتْ نَخْلُـهُ وَنَخْلِـي عَفَـاءُ

٥٦- أَيُّ حُـبٍّ يَصِـحُّ مِنْـهُ وَطَرْفِـي لِلْكَـرَى وَاصِـلٌ وَطَيْفُـكَ رَاءُ؟

٥٧- كَيْـفَ يَصْـدَا بِالـذَّنْبِ قَلْـبٌ مُحِـبٌّ وَلَـهُ ذِكْـرُكَ الْجَمِيـلُ جَـلاَءُ؟

٥٨- كَيْـفَ يَسْـتَوْعِبُ الْكَـلاَمُ سَـجَايَا كَ وَهَـلْ تَنْـزَحُ الْبِحَـارَ الرِّكَـاءُ؟(١)

٥٩- إنَّ مِـنْ معجزاتِكَ العجزَ عن وَصْـ ـــفِكَ إذ لا يحـــدّه الإحصـــاءُ

٦٠- لَـيْسَ مِـنْ غَايَـةٍ لِوَصْـفِكَ أَبْغِيـ ـــهَا وَلِلْقَـوْلِ غَايَـةٌ وَانْتِهَـاءُ

٦١- فَسَـلاَمٌ عَلَيْـكَ تَنْـزِى مِـنَ الْمِـ ـــلْكِ وَتَنْمِـى بِـهِ لَـكَ الْبُـأْوَاءُ

٦٢- وَسَـلاَمٌ عَلَيْـكَ مِنْ كُلِّ مَا خَلَقَ اللَّـ ـــهُ لِتَحْيَـا بِـذِكْرِكَ الأَمْـلاَءُ

٦٣- وَسَـلاَمٌ عَلَـى ضَـرِيحِكَ تَحْضُلْـ ـــلُ بِـهِ مِنْـهُ نُزْلَـةٌ وَعُسَـاءُ

٦٤- وَثَنَـاءٌ قَـدْ مُتَّ بَـيْنَ يَـدَيْ نَجْـ ـــوَايَ إِذْ لَـمْ يَكُـنْ لَـدَيَّ ثَـرَاءُ

٦٥- مَـا أَقَـامَ الصَّـلاَةَ مَـنْ عَبَـدَ اللَّـ ـــهَ وَقَامَـتْ بِرَبِّهَـا الأَشْـيَاءُ

٤- صفيُّ الدين الحِلّيّ (٦٧٧-٧٥٠هـ) (٢):

عبد العزيز بن سرايا، ولد في الحِلّة وهي بلدة بين الكوفة وبغداد، وبها نشأ وتأدّب ونظم الشعر وعُدَّ فيه من المجيدين، عمل في التجارة، ورحل لها إلى الشام ومصر وماردين وغيرها، ترك العراق بعد حروب وفتن وقعت بين قومه

---

(١) الركاء: جمع ركوة، إناء صغير من الجلد يشرب فيه الماء.

(٢) تنظر ترجمته في: فوات الوفيات ٣٣٥/٢، والدرر الكامنة ٣٦٩/٢، والنجوم الزاهرة ٢٣٨/١٠، والأعلام ١٧/٤.

وخصوم لهم، شارك فيها وفخر في شعره بنفسه وقومه، وساقته الحوادث إلى الرحيل إلى ماردين إذ انقطع إلى بعض ملوك الدولة الأرتقية، فمدح منهم الملك المنصور غازي الأرتقي، وولده الملك الصالح نجم الدين بما عرف بالقصائد المنصوريات، وتشمل ثماني قصائد، والصالحيات وهي خمس عشرة قصيدة، وفي طريقه إلى الديار المقدّسة مرّ بالقاهرة ومدح فيها السلطان الناصر قلاوون الذي كان على عرش المماليك البحرية في مصر، بقصائد ثلاث عرفت بالناصريات، ثم عاد إلى ماردين فبغداد حيث توفي.

نظم الشعر يافعًا، وأتقن أساليبه وتراكيبه لكثرة ما وقف على شعر المتقدمين وما ملك من زمام اللغة، فبرز من بين شعراء عصره وبزّهم، وصار يتصرّف بلا جهد ولا تكلُّف، فجاد نظمه وغزر شعره، وتنوعت أغراضه، حتى قال فيه صاحب (فوات الوفيات): "الإمام العلّامة البليغ المفوّه الناظم الناثر شاعر عصرنا على الإطلاق، أجاد القصائد المطوّلة والمقاطيع، تطريك ألفاظه المصقولة ومعانيه المعسولة، ومقاصده التي كأنها سهام راشقة وسيوف مسلولة"[1]، وكان ينظر إلى الشعراء العباسيين فيحتذي حذوهم ويعارضهم، إلا أنه أبدع في كثير من الفنون الشعرية؛ فقد قصّد القصيدة ونظم المشطّر والمخمّس والمسمّط والموشّح، وتفنن في النظم؛ وكان رائد فنّ البديعيات، إذ نظم معارضةً لبردة البوصيري في مدح الرسول ﷺ (الكافية البديعية) التي مطلعها[2]:

إن جئت سلعًا فسل عن جيرة العَلَم واقرأ السلام على عُرْبٍ بذي سَلَم

وحشد فيها ضروبًا كثيرة من المحسنات البديعية، فشقّ بذلك طريق البديعيات للشعراء الذين جاؤوا من بعده، أما في ميدان الموشحات فلم يقف عند

---

(١) فوات الوفيات ٢/٢٣٥.

(٢) الديوان: ٦٨٥.

الأشكال المألوفة من قبل، بل تجاوزها إلى أشكال جديدة مبتدعة، غيّر فيها من بناء الموشح الخارجي وأقسامه المعروفة، والناظر في ديوانه يجد فيه فنونًا من النظم عجيبة، وضروبًا من الإبداع غريبة، تدلّ على قدرة في الشعر وتمكّن في اللغة.

للحلّي ديوان شعر جمعه بنفسه، وجعله في أحد عشر بابًا بحسب فنون الشعر التي قالها، وله فيه شعر كثير في الفخر والمدح والوصف والإخوانيات والغزل والرثاء، وضمّ إليه ديوانه الذي أخلص قصائده كلها لمدح الملك المنصور الأرتقي ووسمه بـ (درر النحور في مدائح الملك المنصور) وتسمّى قصائده (الأرتقيات) [1] نسبة إلى أرتق وتعرف أيضًا باسم (المحبوكات) [2]، كما خلّف بالإضافة إلى ديوانه الضخم آثارًا شعرية ونثرية، فله (العاطل الحالي) وهي رسالة في الزجل والمواليا، و(الأغلاطي) وهو معجم للأغلاط، و(الخدمة الجليلة) وهي رسالة في وصف الصيد بالبندق، وله مختارات شعرية بعنوان (صفوة الشعراء وخلاصة البلغاء).

قال الحلي في المديح[3]:

١- لا يمتطي المجدَ من لم يركبِ ولا ينالُ العلا من قدّمَ الحذرا

٢- ومن أرادَ العلا عفوًا بلا تعبٍ قضّى ولم يقضِ من إدراكِها وطرا

٣- لا بُدَّ للشهدِ من نحلٍ يُمنّعهُ لا يجتني النفعَ من لم يحملِ الضررا

---

(١) وعددها تسع وعشرون قصيدة بعدد أحرف الهجاء، وتتألف كل واحدة منها من تسعة وعشرين بيتًا، وتختصّ كلّ واحدة منها بحرف من حروف الهجاء، يكون في أول كل بيت من أبياتها وفي آخره.

(٢) الديوان: ٦٨٥.

(٣) هذه القصيدة في مدح الملك الصالح وتهنئته بعيد النحر، وفيها تحريض على التحرر من المغول، الديوان: ٦٩.

٤- لا يُبلِغُ السُّؤلَ إلاّ بعدَ مُؤلمةٍ ... ولا تَتِمُّ المُنى إلاّ لِمَنْ صَبَرَا

٥- وأحزَمُ النّاسِ مَن لو ماتَ مِنْ ظَمَأ ... لا يَقرَبُ الوِردَ حتى يَعرِفَ الصَّدَرَا

٦- وأعزَزُ النّاسِ عَقلاً مَن إذا نظَرَتْ ... عيناهُ أمرًا غدا بالغيرِ معتبِرا

٧- فقد يُقالُ عِثارُ الرّجلِ إن عثَرَتْ ... ولا يُقالُ عِثارُ الرّأيِ إنْ عثَرَا

٨- مَن دبَّرَ العيشَ بالآراءِ دامَ لهُ ... صفوًا وجاءَ إليهِ الخطبُ معتذِرَا

٩- يَهونُ بالرّأيِ ما يَجري القضاءُ بهِ ... مَنْ أخطأَ الرّأيَ لا يستذنبُ القدَرَا

١٠- مَن فاتَهُ العزُّ بالأقلامِ أدركَهُ ... بالبيضِ يَقذِفُ مِن أعطافِها الشَّرَرَا

١١- بكلِّ أبيَضَ قد أجرى الفِرِندُ بهِ ... ماءَ الرَّدى فلو استقطرتَه قطَرَا

١٢- خاضَ العجاجةَ عُريانًا فما انفَشَعَتْ ... حتى أتى بدمِ الأبطالِ مُؤتَزِرَا

١٣- لا يُحسِنُ الحِلمُ إلّا في مواطنِهِ ... ولا يَليقُ الوَفا إلا لِمَنْ شَكَرَا

١٤- ولا يَنالُ العُلى إلّا فتًى شَرِقَتْ ... حِلالُهُ فأطاعَ الدّهرَ ما أمَرَا

١٥- كالصّالحِ الملكِ الموهوبِ مَنطِقُه ... فلو توعَّدَ قلبَ الدّهرِ لانفطَرَا

١٦- لمّا رأى الشرُّ قد أبدَى نواجِذَهُ ... والغدرَ عن نابِهِ للحربِ قد كشَرَا

١٧- فجَرَّدَ العزمَ من قتلِ الصِّفاحِ لها ... مَلَكٌ عن البيضِ يستغني بما شُهِرَا

١٨- يكادُ يُقرأُ مِنْ عُنوانِ همّتِهِ ... ما في صحائفِ ظهرِ الغيبِ قد سُطِرَا

١٩- كالبحرِ والدّهرِ في يومَيْ ندًى وردًى ... والليثِ والغيثِ في يومَيْ وغًى وقِرَى

٢٠- ما جادَ النّاسِ إلّا قبلَ ما سألوا ... ولا عفا قطُّ إلاّ بعدما قدَرَا

٢١- لامُوهُ في بذلِهِ الأموالَ قلتُ لهم: ... هل تقدُرُ السُّحبُ ألاّ ترسلَ المطَرَا؟

٢٢- إذا غدا الغصنُ غضًّا في مذانبِهِ ... مَنْ شاءَ فليجنِ مِنْ أفنانِهِ الثَّمَرَا

٢٣- مِـن آلِ أزْرَقَ المشـهورِ ذكـرهُمُ ... إذ كـانَ كالمِسـكِ إن أخفَيتَـهُ ظَهَـرَا

٢٤- الحـاملينَ مـن الخطّـيّ أطولَـهُ ... والنـاقلينَ مـن الأسـيافِ مـا قصـرَا

٢٥- لم يَرحَلوا عن حِمى أرضٍ إذا نزلوا ... إلّا وأبقَـوْا بهـا مِـن جـودِهم أثـرَا

٢٦- تبقَـى صَنـائعُهم فـي الأرضِ بعدَهمُ ... والغَيـثُ إن سـارَ أبقَـى بعـدَهُ الزَّهَـرَا

٢٧- لِلّـهِ دَرُّ سَـما الشّـهباءِ مِـنْ فَلَـكٍ ... فكلّمـا غـابَ نجـمٌ أطلعَـتْ قمـرَا

٢٨- يـا أيّهـا الملـكُ البـاني لدولتِـهِ ... ذكـرًا طـوى ذكـرَ أهـلِ الأرضِ وانتشـرَا

٢٩- فاوقِعْ[1] إذا غدروا سوطَ العذابِ بهمْ ... يظـلّ يخشـاكَ صـرفُ الـدّهرِ إن غـدرَا

٣٠- وارعِبْ قلوبَ العِدى تُنصَرْ بخَذْلِهمُ ... إنّ النبـيَّ بفضـلِ الرّعـبِ قـد نُصِـرَا

٣١- ولا تكـدّرْ بهـمْ نفسًـا مطهّـرَةً ... فـالبحرُ مـن رومِـه لا يعـرفُ الكـدرَا

٣٢- نادَوا تأنّيكَ عن عَجزٍ، وما علِموا ... أنّ التـأنّيَ فـيهمْ يُعقِـبُ الظفَـرَا

٣٣- أحمَـدُهُ فبغَـوا جَهـلًا ومـا اعتزفـوا ... لكـم ومـن كفـرَ النُّعمـى فقـد كفـرَا

٣٤- واسعدْ بعيدِك ذا الأضحى وضحِّ بهِ ... وصـلْ وصـلّ لـربِّ العـرشِ مـؤتمرَا

٣٥- وانحَرْ عِداكَ فبالإنعامِ مـا انصَلَحوا ... إنْ كـانَ غيـرُك للأنعـامِ قـد نحـرا

وقال يمدح السلطان الناصر محمد بن قلاوون بقصيدة عارض بها المتنبي في قصيدته التي مطلعها:

بـأبي الشّـموسُ الجانحـاتُ غوارِبًـا ... اللابسـاتُ مـن الحريـرِ جَلابِبًـا

فقال في مطلعها[2]:

١- أسَـبلنَ مِـنْ فـوقِ النحـورِ ذوائبًـا ... فتـركْنَ حبّـاتِ القلـوبِ ذوائبًـا

---

(١) لجأ إلى الضرورة في جعل همزة القطع وصلًا لضرورة الوزن.

(٢) الديوان: ٩٥.

٢- وَجَلَّوْنَ من صُبْحِ الوجوهِ أشعةً غادَرْنَ قُوْدَ الليلِ منها شانبا[١]

٣- بيضٌ دعاهُنَّ الغبيُّ كواعبًا ولو استبانَ الرُّشدَ قال: كواكبا

٤- وربائبٌ فإذا رأيتَ نِفارَها من بَسْطِ أنسكَ خِلْتَهُنَّ ربارِبا[٢]

٥- سفهًا رأينَ المانويَّةَ علدما أسبلْنَ من ظُلَمِ الشُّعورِ غياهِبا[٣]

٦- وسَفَرْنَ لي فرأين شَخصًا حاضرًا شُدهت بصيرتُه وقلبًا غائبا

٧- أشرقْنَ في حُلَلٍ كأن وميضَها شَفَقٌ تدرَّعُه الشموسُ جلابيا[٤]

٨- وغربْنَ في كِلَلٍ فقلتُ لصاحبي: بأبي الشموسُ الجانحاتُ غواربا[٥]

٩- ومعربدِ الألحاظِ يَثْني عِطْفَهُ فيُخالُ من مَرَحِ الشبيبةِ شاربا

١٠- حلوُ التعتُّبِ والدلالُ يروعُهُ عتبي، ولستُ أراه إلا عاتبا

١١- عاتبْتُهُ فتضرَّجَتْ وَجَناتُه وازورَّ الحاظًا وقطَّبَ حاجبا

١٢- فأذابني الخَدُّ الكليمُ وطَرْفُه ذو النونِ إذْ ذَهَبَ الغداةَ مُغاضِبا

١٣- ذو منظرٍ تغدو القلوبُ بحُسْنِهِ نَهْبًا وإن مُنِحَ العيونَ مواهِبا

١٤- لا بِدْعَ أنْ وَهَبَ النواظرَ حُظْوَةً مِنْ نُورِهِ وغدا لقلبي ناهِبا

وقال صفيّ الدين الحلّي هذه الأبيات، وهي من إحدى أرتقياته، وهي الكافيّة، رقيقة الغزل، عذبة الأسلوب، وهي في جملتها مثال لغيرها من الأرتقيّات في غرضها الرئيسي وأغراضها العارضة، كالغزل أو وصف الخمر، وفي التزام

---

(١) القُوْد: معظم شعر الرأس مما يلي الأذن.

(٢) ربائب: الفتيات، الرباب: قطيع بقر الوحش.

(٣) المانوية: ديانة الفرس القديمة القائلة بإله النور وإله الظلمة، غياهب: جمع غيهب: الظلام الشديد.

(٤) تدرّع: لبس الدرع.

(٥) الكِلَل جمع كِلّة: الستر الرقيق.

اتفاق حروف أبياتها الأولى مع حرف الروي[1]:

١- كُفِّي القتالَ وفُكِّي قَيْدَ أسراكِ ... بكفيكِ ما فعلتْ بالناس عيناكِ

٢- كَلَّتْ لحاظُكِ ممَّا قد فتكتْ بنا ... فَمَنْ تُرَى في ذمِ العُشَّاقِ أفتاكِ

٣- كفاكِ ما أنتِ بالعُشَّاقِ فاعلةٌ ... لو أنصفَ الدهرُ في العُشَّاقِ عَزَّاكِ

٤- كَمَّلْتِ أوصافَ حُسْنٍ غيرَ ناقصةٍ ... لو أنَّ حُسْنَكِ مقرونٌ بحُسْناكِ

٥- كيفَ انثنيتِ إلى الأعداءِ كاشفةً ... عوامضَ السِّرِّ لمَّا استنطقوا فاكِ

٦- كتمتُ سِرَّكِ حتى قالَ فيكِ فمي ... شِعْرًا ولم يَدرِ أن القلبَ يهواكِ

٧- كِدْتِ المحبَّ فماذا أنتِ طالبةٌ ... فَلَا مُحِبَّكِ مع إشماتِ أعداكِ

٨- كافَيْتِني بذنوبٍ لستُ أعرفُها ... فسامحي واذكري مَنْ ليسَ يَسْلاكِ

٩- كلَّفتِني حَمْلَ أثقالٍ عجَزْتُ بها ... وجُبْتُ ذا بِثِقْلِها إنْ كانَ أرضاكِ

١٠- كابدتُ هَوْلَ السُّرى في البيدِ مُكْتَسِبًا ... مالًا وما كنتُ أبغي المالَ لولاكِ

١١- كلَّا ولا بِتُّ أطوي كُلَّ مُفْزِعَةٍ ... ومَهْمَهٍ لم تَسُرِ فيه مطاياكِ

١٢- كأنَّ فيه السما والأرضَ واحدةٌ ... ولوقُنا لُجَبٌ سودٌ تحتَ أملاكِ

١٣- كَبَتْ من الأينِ فيهِ ناقتي فَعَدَتْ ... تشكو إليَّ بطرفٍ شاخصٍ باكِ

١٤- كوماءُ تَسْحَبُ من سُقْمٍ مناسِمَها ... كأنَّ أرْجُلَها شُدَّتْ بأشراكِ

١٥- كَفَفْتُ عن السَّيرِ للمَرْعى مُحَاوِلَةً ... فقُلْتُ سيري إلى مَرْعَى النَّدى الزَّاكي

١٦- كَرَرْتُ وقالتْ إلى مَنْ ذا فقُلْتُ لها ... إلى أبي الفتحِ مولانا ومولاكِ

١٧- كَهْفِ الضيوفِ وهَضَّابِ الأُلوفِ وَجِدْ ... دَاعِ الأُنوفِ وأَمْنِ الخائفِ الشاكي

---

(١) الديوان: ٧٤٧.

١٨- كـريم أصـلٍ يُعيـدُ الـرُّوحَ مَنْظَـرُهُ ... فلـو قضـيتَ بـإذن الله أحيـاكِ

١٩- كساكِ مـن سُنْدُسِ الإنعـامِ أرْبِيـةً ... حتـى كـأنَّ جِنَـانَ الخُلْـدِ مـأواكِ

٢٠- كُلـي هنيئًـا ونـامي غيـرَ جازعـةٍ ... فـي مَرْبَـعٍ فيـهِ مَرْعانـا ومَرْعـاكِ

٢١- كـأنَّ الرجـاءُ بِلُقيـاهُ يُعَلِّلُنـي ... وحادثـاتُ الليـالي دونَ إدراكـي

٢٢- كـذا طِـلابُ العُلـى يـا نفْسُ مُمْتَنِـعٌ ... فـإن صـبرتِ لـه نالَتْـهُ كفّـاكِ

٢٣- كَواكِـبُ القَطْـرِ إلّا أنَّ راحتَـه ... إنْ أمْسَـكَ القَطْـرُ لا تُعْنِـا بإمسـاكِ

٢٤- كـفٌّ حَكَـى وابِـلُ الأنـواءِ وابِلُهـا ... حتـى غـدا يَخيـدُ المحكـيُّ للحـاكي

٢٥- كـم أبكـتِ البـيضَ فـي كفّيـهِ إذ غِنًـا ... وأضـحكَ سِـنًّا مالَـهُ البـاكي

٢٦- كـلُّ الأنـامِ لِمَـا أولاهُ شـاكرةٌ ... فمـا لَـهُ غيـرُ بيـتِ المـالِ مِـن شـاكِ

٢٧- كُـنْ كيـفَ شئتَ بـأمْنِ الله يـا مَلِكًـا ... أضْـحَتْ عزائمُـه أقطـابَ أفـلاكِ

وقال يصف الربيع ومفارقته[1]:

١- وَرَدَ الربيـعُ فمرحبًـا بـوُرودِهِ ... وبِنُـورِ بهجتِـهِ ونَـوْرِ وُرُودِهِ

٢- وبحُسْـنِ منظـرِهِ وطيـبِ نسـيمِهِ ... وأنيـقِ مَلْبَسِـهِ ورَوْنَـقِ بُـرُودِهِ

٣- فصْـلٌ إذا افتخـرَ الزّمـانُ فإنَّـهُ ... إنسـانُ مُقْلَتِـهِ وبَيْـتُ قصـيدِهِ

٤- يُغْنـي المِـزاجَ عـن العـلاجِ نسـيمُهُ ... بـاللُّطفِ عنـد هبوبـهِ وركُـودِهِ

٥- يـا حبّـذا أزهـارُهُ وثمـارُهُ ... ونبـاتُ ناجِمِـهِ وحَـبُّ حصـيدِهِ

٦- وتجـاوُبُ الأطيـارِ فـي أشـجارِهِ ... كبنـاتِ مَعْبَـدَ فـي مواجـبِ عُـودِهِ[2]

---

(١) الديوان: ٥٥١.

(٢) مَعْبَدَ: مغنٍّ مشهور في العصر الأموي.

٧- والغصنُ قد كُسيَ الغلائلَ بعدما أخذتْ يَدا كانونَ في تجريدِهِ

٨- نال الصِّبا بعد المشيبِ وقد جَزى ماءُ الشبيبةِ في منابتِ عُودِهِ

٩- والوردُ في أعلى الغصُونِ كأنَّهُ مَلِكٌ تَحُفُّ بهِ مَرَازَةُ جُنُودِه

١٠- وكأنَّما القَدَّاحُ سِمْطُ لآلِئٍ هوَ للقضيبِ قِلادةٌ في جِيدِهِ

١١- والياسمينُ كعاشقٍ قد شفَّهُ جَوْرُ الحبيبِ بهجرِهِ وصُدودِهِ

١٢- وانظرْ لِإرجسِهِ الشَّهيِّ كأنَّه طَرْفٌ تَنَبَّهَ بعد طُولِ هُجُودِه

١٣- واعجبْ لأَذْرُونِيِّهِ وبَهَارِه كالتِّبرِ يَزْهُو باختلافِ لَقودِه

١٤- وانظرْ إلى المنظومِ من منثورِهِ متنوِّعاً بفُصولِهِ وعُقُودِهِ

١٥- أوَما ترى الغَيْمَ الرقيقَ وما بَدَا للعينِ مِنْ أشكالِهِ وطُرُودِه

١٦- والسُّحْبُ تَعْقِدُ في السماءِ مآتِماً والأرضُ في عُرْسِ الزَّمانِ وعيدِهِ

١٧- نَبَتَتْ فَسُقَّ لها الشَّقيقُ جُرُوبَهُ وازْرقَّ مَوْسَمُها لِلَطْمِ خُدُودِهِ

١٨- والماءُ في تيَّارِ دِجْلَةَ مُطْلَقٌ والجسرُ في أصفادِهِ وقُيُودِهِ

١٩- والغَيْمُ يحكي الماءَ في جَرَيانِهِ والماءُ يحكي الغيمَ في تَجْعِيدِهِ

٢٠- فانْكُرْ إلى زَوْضٍ أريقَ ظِلُّهُ فالعيشُ بينَ بسيطِهِ ومَديدِهِ

٢١- وإذا رأيتَ جديدَ روضٍ ناضرٍ فارْشُفْ عتيقَ الرَّاحِ فَوْقَ جَديدِهِ

٢٢- مِنْ كَفِّ ذِي هَيَفٍ يُضَاعِفُ خُلْقَه سُكْرُ المُدامِ بِشَدْوِهِ ونشيدِهِ

٢٣- صافي الأديمِ ترى إذا شاهَدْتَهُ تمثالَ شخصِكَ في صفاءِ خُدُودِهِ

٢٤- وإذا بلغتَ من المُدامةِ غايةً فاقْلِلْ لِتُذْكِيَ الفَهْمَ بَعْدَ خُمُودِهِ

٢٥- إنَّ المُدامَ إذا تَزايدَ حَدُّها في الشُّرْبِ كان النَّقصُ في مَخْدودِهِ

٥- ابن نُباتة المصري (٦٨٦-٧٦٨هـ)[١]:

وهو جمال الدين محمد بن محمد بن الحسن الفارقيّ المصريّ، ينتهي نسبه إلى خطيب مشهور كان في زمن سيف الدولة الحمداني يدعى (ابن نباتة)[٢].

أصله من (ميافارقين) وينتمي إلى أسرة عريقة في العلم والأدب، ومولده ووفاته في القاهرة، وفيها نشأ وتتلمذ على أساتذة من حفظة الأدب والأخبار، وتمرّس بالكتابة على أيدي رؤساء الدواوين في القاهرة، وشُغف منذ شبابه بأدب القاضي الفاضل الذي كان إمام النثر في زمنه، وعميد الصناعة اللفظية والمحسنات البديعية في الكتابة والترسل، فكان مثله وأوعى بفنون التوريات وأنواع المحسنات البديعية.

ولما بلغ أشدّه رحل إلى بلاد الشام، واتصل بالملك المؤيّد أبي الفداء صاحب حماة، وكتب له ومدحه، فنال عنده حظوة، وعلت منزلته عنده ولازمه حتى وفاته، ثم صار ناظرًا على كنيسة القيامة في القدس، ثم اتصل بالقاضي شهاب الدين ابن فضل الله العمري فأدخله ديوان التوقيع في دمشق، وكذلك اتصل بآل السبكي هناك ومنهم تقي الدين، وابنه تاج الدين ومدحهما، وعاد إلى القاهرة واختصّ بالسلطان الناصر حسن وصار صاحب سرّه، واضطربت أحواله في آخر حياته بعد مقتل السلطان حسن وما لبث أن توفي.

كان شاعرًا ممتازًا، أكثر من الشعر والنثر وبزّ فيهما أقرانه، وأثّر في معاصريه فطبعهم بطوابعه اللفظية، وولج أبواب الشعر جميعها، فله في المديح،

---

(١) تنظر ترجمته في: الوافي بالوفيات ٣١١/١، والدرر الكامنة ٣٤٧/٤، والنجوم الزاهرة ٩٥/١١، وشذرات الذهب ٢١٢/٦، والأعلام ٣٨/٧.

(٢) توفي هذا الجدّ سنة ٤٧٤هـ، وهناك الشاعر ابن نباتة السعدي (ت٤٠٥هـ)، وابن نباتة (ت٧٥٠) وهو والد شاعرنا.

والرثاء، والغزل، والوصف، والهجاء، والإخوانيات، والزهد، والمديح النبوي، وله أراجيز، وموشحات، وألغاز، ولزوميّات، وقد احتلت الشكوى حيّزًا غير قليل من ديوانه، وكان عتابه ليّنًا لطيفًا، وكثيرًا ما كان يتحسّر على شبابه ويئنّ لخيبة آماله، وجمهرة أشعاره في المديح، ولا تفصح ديباجات المدائح عن أصحابها ما لم يقف قارئها سلفًا على صلات الشاعر بممدوحيه فيعرفهم من ذلك؛ فمن تلك الديباجات مثلًا: قال مؤيديّة [في مدح الملك المؤيد صاحب حماة] وقال قاضويّة تاجيّة سبكيّة [في مدح القاضي تاج الدين السبكي] وهكذا، والناظر في شعره يرى أنه شاعر متمكّن، قوي التراكيب رصين العبارة رائق الصور، يمتاز شعره بالجودة وبكثير من المجازات والتشبيهات، وفي ديوانه قصائد مطولات، وفيه كثير من المقطعات.

أما نثره فنهج فيه منهج القاضي الفاضل، فقد أغرم بالصناعة البديعية حتى عُدّ أمير الأدباء فيها.

وله فضلًا عن ديوانه الشعري الضخم المطبوع كتب كثيرة مخطوطة ومطبوعة، تحدث عنها فقال فيما نقل عنه ابن حجّة: "أما مصنفاتي فهي: كتاب مجمع الفرائد، القطر النباتي، سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون، منتخب الهدية من المدائح المؤيدية، الفاضل من إنشاء الفاضل، زهر المنثور، أبرار الأخيار، شعائر البيت النقوي، الأرجوزة المسماة فرائد السلوك في مصائد الملوك"[1]، وله ديوان خطب منبرية عمله للسلطان الناصر حسن في مصر.

عدّه معاصروه ومن جاء بعده أمير الشعراء وحامل لواء الشعر، وقال عنه الذهبي: "صاحب النظم البديع وشعره في الذروة"، وقال ابن كثير: "كان حامل لواء الشعر في زمانه"، وقال ابن إياس: "وكان من فحول المولّدين، وله شعر

---

(١) خزانة الأدب ١/٤٤.

جيد فاق به على من تقدّمه من الشعراء"، وقال ابن تغري بردي: "وفاق أهل زمانه في نظم القريض، وله الشعر الرائق"، وقال السبكي: "ومن أراد من أهل هذه المئة -الثامنة- أن يلحق بابن نباتة في نظم أو نثر أو خط فقد أراد المحال، وحاول ما لا يصير بحال".

قال يمدح الملك المؤيد[1]:

١- سرى طيفها حيث العواذل هُجَّعُ ... فنمّ عليها نشرُهُ المتضوّعُ

٢- وباتَ يعاطيني الأحاديث في دجًى ... كأنّ الثريّا فيه كأسٌ مُرَصَّعُ

٣- أجيراننا حيّا الربيعُ ديارَكم ... وإنْ لم يكن فيها لطَرْفي مَربع

٤- شكوتُ إلى سفحِ النقا طولَ نأيكم ... وسفحُ النقا بالنأي مثلي مُروَّع

٥- ولا بدَّ من شكوى إلى ذي مروءةٍ ... يواسيك أو يسليك أو يتوجّع

٦- فديتُ حبيبًا قد خلا عنهُ ناظري ... ولم يخلُ منه في فؤاديَ موضع

٧- مقيمٌ بأكناف (الغضا) وهي مهجةٌ ... وإلّا بوادي (المنحنى) وهي أضلعُ

٨- أطال حجازُ الصدِّ بيني وبينه ... فمقلتهُ الحَورا ودمعيَ ينبعُ

٩- لئن عرضتْ من دون رؤيتهِ الفلا ... فيا ربَّ روضٍ ضمَّنا فيه مَجمع

١٠- محلٌّ ترى فيه جوامعَ لذّةٍ ... بها تخطُبُ الأطيارُ والقُضْبُ تركعُ

١٢- وقد أمّنتنا دولةٌ شاذوية ... فما نختشي اللأوا، ولا نتخشّع[2]

١٣- مدائحها تمحو الأثامَ ورِفدُها ... يُعوّض مِنْ وَفْر الغنى ما نضيّعُ

---

(١) الديوان: ٢٩٥، والممدوح هو إسماعيل بن علي صاحب حماة، أبو الفداء المعروف بكتابه (المختصر في أخبار البشر)، ت٧٣٢هـ.

(٢) الدولة الشاذوية: يقصد بها دولة الأيوبيين، نسبة إلى صلاح الدين الأيوبي وهو: (يوسف بن أيوب بن شاذي)، اللأواء: الشدة والمحنة، وخُففت همزتها.

١٤- رعى الله أيامَ المؤيَّد إننا وجدنا بها أهل المقاصد قد رَعوا

١٥- مليكٌ له في الجود صنعٌ تأنّقت معانيه حتى خِلتُهُ يتصنّعُ

١٦- وعلياءُ لو أنّا وضعنا حديثها وجدنا سناها فوق ما كان يُوضعُ

١٧- مُذال الغِنى لو حاولتْ يدُ سارقٍ خزائنَه ما كان في الشّرعِ يُقطَعُ

١٨- أرانا طباقَ المال والمجد في الورى فذلك مبذولٌ وهذا مُمنَّعُ

١٩- وجانس ما بين القراءة والقِرى فالجود منه والإجادة مطلعُ

٢٠- توقَّدَ ذهنًا واستفاض مكارمًا فاعلم أن الشُّهبَ بالغيث تهمَعُ

٢١- وصانَ فجاجَ المُلكِ عدلًا وهيبةً فلا جانبٌ إلا من الروض مرتعُ

٢٢- عزائمُ وضّاحِ المحامدِ أروعٍ إذا فلّ وضّاحُ المحامد أروعُ

٢٣- تُفرّقُ أحمالَ النُّضارِ يمينُه لما راح بالسّمر الطّوال يُجمّعُ

٢٤- ولا عيبَ في أخلاقه غيرَ أنه إذا عذلوه في الندى ليس يرجعُ

٢٥- له كلَّ يومٍ في السيادة والعلا أحاديثُ تملي المادحين فتُبدِعُ

٢٦- إذا دعتِ الحربُ الغوانُ حسامَهُ جلا أفقها والرمحُ للسنّ يقرَعُ

٢٧- وإن مشتِ الأمالُ نحو جنابه رأتْ جود كفّيهِ لها كيف يُهرَعُ

٢٨- فلا تفتخرْ من نيل مصرَ أصابعٌ فما النّيلُ إلا من يمينك يَرْضَعُ

٢٩- أيا ملكًا لما دَعَتْه ضراعتي نيقّنتُ أن الدهر لي سوف يضرَعُ

٣٠- قصدتُك ظمآنًا فجُدتَ بزاخر أشُقُّ كما قد قيل فيه وأُذرَعُ

٣١- وفي بعض ما أسديتَ قُلّعٌ وإنما فتًى كنتَ مرمى ظنّه ليس يقلعُ

٣٢- لك الله ما أزكى وأشرفَ همّةً وأحسنَ في العلياء ما تتنوعُ

٣٣- مـديحُك فـرضٌ لازمٌ لـي ذِمّتُـهُ ومـدحُ بنـي العليـا سـواك تطـوُّعُ

وقال يرثي الملك المؤيد[١]:

١- مـا للنـدى لا يُلبّـي صـوت داعيـه؟ أظـنُّ أن ابـن شـاذٍ[٢] قـام ناعيـه

٢- مـا للرجـاء قـد اشـتدّت مذاهبُـه مـا للزمـان قـد اسـودّت نواحيـه؟

٣- ما لي أرى المُلك قد فُضّت مواقفه؟ مـا لـي أرى الوفـد قـد فاضـت مآقيـه؟

٤- نعـى المؤيّـد ناعيـه فيـا أسـفي للغيـثِ كيـف غـدت عنـا غواديـه[٣]

٥- واروعتـا لصـباحٍ عنـد رؤيتـه أظـنُّ أن صـباح الحشـر ثانيـه

٦- واحسـرتاه لنظمـي فـي مدائحـه كيـف اسـتحال لنظمـي فـي مراثيـه

٧- أبكيـه بالـدّرّ مـن جَفنـي ومـن كَلِمـي والبحـرُ أحسـنُ مـا بالـدّرّ أبكيـه

٨- أروي بـدمعي قـرى مَلْـكٍ لـه شـيمٌ قـد كـان يـذكرها الصـادي فترويـه

٩- أذيـلُ[٤] مـاء جفـوني بعـدهُ أسـفًا لمـاء وجهـي الـذي قـد كـان يحميـه

١٠- جـارٍ مـن الـدمع لا ينفـكّ يُطلقـه مَـنْ كـان يُطلـق بالإنعـام جاريـه[٥]

١١- ومهجـةٍ كلّمـا فاهـت بلَوْعتهـا قالـت رزيـةُ مولاهـا لهـا: إيـه

١٢- ليـت المؤيـد لا زالـت عوارفـه[٦] فـزاد قلـبَ المعنّـى فـي تلظّيـه

---

(١) الديوان: ٥٧٠-٥٧٣.

(٢) ابن شاذ: هو شاذي بن مروان جد الملوك والسلاطين الأيوبيين.

(٣) الغوادي: جمع الغادية، وهي السحابة تنشأ غدوة، أو: هي مطر الغداة.

(٤) أذيل الدمع، أي: أهيلُه.

(٥) جاريه: أي ما كان يجري عليه من عطاء وصلات.

(٦) عوارف: جمع عارفة، وهي بمعنى المعروف، أي العطية، واستعمال اسم الفاعل (عارفة) وهو بمعنى اسم المفعول (مفعولة).

١٣- ليت الحمام حبا الأيام موهبة ... فكان يُفني بني الدنيا ويُبقيه

١٤- ليتَ الأصاغرَ تُفدَى الأكبرون بها ... فكانت الشهب بالآفاق تفديه

١٥- أعزز عليّ بأن ألقى عوارفه ... ملء الزمان وإني لا ألاقيه

١٦- أعزز عليّ بأن تبلى شمائله ... تحت التراب وما تبلى أياديه[1]

١٧- هلّا بغير عماد الدين حادثةٌ ... ألفت رداه وأوهت من مبانيه

١٨- هلا ثنى الدهرُ غربًا من محاسنه ... فكان كوكب سعد في لياليه

١٩- تُرى درى الدهرُ مقدارَ الذي فقدت ... من فيض أدمعه أحوال أهليه

٢٠- لا أعتبُ الزمن المُودي بسيّده ... يكفيه ما قد تولّى عنه يكفيه

٢١- لهفي وهل نافعي لهفي على مَلِكٍ ... بات الغمام على الآفاق يبكيه

٢٢- لهفي وهل نافعي لهفي على ملك ... كُسي الزمانُ حدادًا من دياجيه

٢٣- لهفي على المُلك قد أهوت إلى التراب وقد حُطّت غواشيه[3]

٢٤- لهفي على الخيل قد وُلّت صواهلها ... حقّ العزا فَهْوَ يُشجيها وتُشجيه

٢٥- لهفي على ذلك السلطان حين قضى ... من الحمام عليه حكم قاضيه

---

(١) أياديه: جمع الجمع، فالمعروف أن كلمة (يد) تجمع على (أيد) و (يُدِيّ) وجمع الجمع (أياد)، وهي: النعمة أو الإحسان الذي تصطنعه، وتأتي بمعنى الجاه والوقار أيضًا.

(٢) سناجق: جمع سنجق، وهو: اللواء، واللفظة فارسية معربة.

(٣) غواشيه: جمع غاشية، وهي "من أديم مخروز بالذهب يخالها الناظر جميعها مصنوعة من الذهب، تُحمَلُ بين يديه (أي السلطان) عند الركوب في المواكب كالميادين والأعياد ونحوها"، (انظر كتاب صبح الأعشى في صناعة الإنشا للقلقشندي ٤/٧).

٢٦- لهفي عليه لممتارٍ[١] ومُطَّلِب ... بالمال يَقْريه[٢] أو بالعلم يُقْريه[٣]

٢٧- لهفي عليه لجود كان يعجبه ... فيه السلامُ كأنّ اللوم يُغريه

٢٨- لهفي عليه لحُكم كان يبسُطه ... على العُفاة ومدحٍ كان يجنيه

٢٩- ما خلّف ابن عليٍّ من ذخائره ... إلّا ثنًا أضحت الدنيا تُواليه

٣٠- كان المديح له عرضًا بدولته ... فأحسن الله للشعر العزا فيه

٣١- كان الفقير إذا أمْرُ الزمان بغى ... عليه قام إلى السلطان يُنهيه

٣٢- كان المؤيد في يومَيْ ندى وردى ... غيثًا لراجيه أو غوثًا للاجيه

٣٣- تروي صحاح القضايا عن براعته ... والنصر في الحرب يروي عن عواليه[٤]

٣٤- مَنْ للعلوم وللأعلام ينشرها ... وللوغى ورداء الخوف يطويه؟

٣٥- مَنْ للكسير مِنَ الأهوال يجبره؟ ... وللطريد من الأيام يؤويه؟

٣٦- من للتصانيف أمثال الكواكب في ... ليل المداد لساري الفكر يهديه

٣٧- مضى وقد كان عضبًا[٥] للزمان فيا ... لهفي على مُغمدٍ في التربِ ماضيه

٣٨- لو أمكن الصبرُ عنه ما أنست به ... فكيف والحزن من أحشايَ يذعيه

٣٩- آها لأحمرِ دمعٍ بعد أشهبِهِ[٦] ... أجراه حتى لقد أفناه مُجريه

---

(١) ممتار: امتار لعياله، مارهم، وأمارهم، أي: جلب لهم الطعام والمؤنة.

(٢) يقريه: يقال: قرى الضيف يقريه قِرى: أي أضافه.

(٣) يُقريه: أي يقرئه، وذلك بتسهيل الهمز لضرورة شعرية وهو من القراءة.

(٤) عواليه: جمع عالية، وهي أعلى قناة الرمح أو رأسه أو النصف الذي يلي السنان، وتطلق العوالي على الرماح عامة.

(٥) عضبًا: العضب: السيف القاطع، ويطلق هذا اللفظ على الرجل الحديد الكلام.

(٦) أشهبه: من الشهبة، وهي بياض يصدعه سواد.

٤٠- كيف المُسْلو وحولي من صنائعه ... ما يمنع الصخر من أدنى تسأّيه

٤١- هذي (حماةُ) أغصّ الهمُّ وادِيَها ... وطاوع الحزنَ فيه دمعُ عاصيه[1]

٤٢- كأنه استشعر الأحزان من قِدَمٍ ... فالنواعير[2] نَوْحٌ في نواحيه

٤٣- هذي المنازل والدنيا معطّلةٌ ... كأنها اللفظ خالٍ من معانيه

٤٤- جاد الحيا قبرةُ الزاكي فلا برحت ... سحائب العفو والرضوان تسقيه

٤٥- نِعْمَ الضريحُ ونعم المرءُ ثاويه ... صَوْبٌ وابلها[3] سحائب تسقي

٤٦- مَنْ كان يُتعب في المعروف راحته ... فَهُوَ المهنّأ بترحيب وترفيه

٤٧- يا آل أيوبَ صبرًا إنّ إرثكُمُ ... من اسم أيوبَ صبرٌ كان يُنجيه

٤٨- هي المنايا على الأقوام دائرة ... كلٌّ سيأتيه منها دورُ ساقيه

٤٩- هي المقادير هذا الأصل تَزْرَعُهُ ... بَعْدُ النموّ وهذا الفَرْعُ تُنميه

٥٠- كأنني بسليل المكرمات[4] وقد ... سعى بحقّ تراث المُلك ساعيه

٥١- محمّدٌ وهُوَ اسم عنه مُشتَهَرٌ ... وأبي به بيتَ إسماعيل يُنْتَميه

٥٢- يا ناصر الدين[5] أنت المَلْكُ قد ... علائمَ المُلك فيه عينُ رائيه

٥٣- ومِن أبيك تعلّمت الثبات فما ... تحتاج تذكرُ أمرًا أنت تدريه

---

(١) عاصيه: التورية بنهر مدينة حماة (العاصي)، وهو المعنى البعيد المراد، والمعنى القريب المعروف غير المراد.

(٢) النواعير: إشارة إلى نواعير مدينة حماة، حاضرة الملك المؤيد إسماعيل أبي الفداء.

(٣) صوب وابلها: الصوب: أي الانصباب، والوابل: هو المطر الشديد، الضخم القطر.

(٤) سليل: السلالة والسليل، أي: النسل أو الولد، يقال: (هو سليل الأكارم) أي ابن المكارم.

(٥) ناصر الدين: هو الملك الأفضل محمد، وهو لقبه من قبل، وقد تولى الملك بعد وفاة أبيه الملك المؤيد سنة (٧٣٢هـ)، وتوفي بعد عزله سنة (٧٤٢هـ).

٥- لا تخش بيتك أن يأوي الزمان به فإنّ للبيتِ ربًّا سوف يحميه

٦- عائشة الباعونية(...-٩٢٢هـ)[١]:

هي عائشة بنت يوسف بن أحمد بن ناصر الدين بن خليفة الباعونية الدمشقية الصالحية، أم عبد الوهاب، ولدت بدمشق ونشأت في بيت علم وشعر ورئاسة وقضاء أتاح لها التوجه إلى العلم والتحصيل، حفظت القرآن الكريم وهي في سن الثامنة، وتلقت مبادئ العلم عن والدها يوسف وعمها الشاعر البرهان الباعوني، ثمّ درست الفقه والحديث والنحو والعروض على علماء دمشق والقاهرة يومذاك، ومن شيوخها إسماعيل الخوارزمي ويحيى الأزموي والشهاب أحمد القسطلاني[٢] شارح البخاري، وقد اتجهت تحت تأثير هذا الشيخ إلى التصوف، فقد كان ينزع إليه، ويعجب بأقطابه، كما أنّ شيوخها في دمشق كان بعضهم من أقطاب التصوف[٣].

جلست للإفتاء والتدريس، فانتفع بها خلق كثير، ومن أشهر تلاميذها محمد بن علي بن طولون شيخ مؤرخي الشام في أواخر العصر المملوكي، ثم جمعت نفسها على العبادة والتصنيف والكتابة، وتوفيت سنة ٩٢٢هـ، ودفنت في أعلى الروضة بدمشق، في بستان

---

(١) تنظر ترجمتها في: الكواكب السائرة في أعيان المئة العاشرة لنجم الدين الغزي ١/٢٨٧-٢٩٢، وشذرات الذهب لابن العماد ٨/١١١-١١٣، ودرّ الحبب في تاريخ أعيان حلب للحنبلي ٢/٤٥٦، والدر المنثور في طبقات ربات الخدور لزينب فواز العاملي ٢/٦٥-٨٠، تاريخ الأدب العربي لعمر فروخ ٣/٩٢٦-٩٣٠، الأعلام ٣/٢٤١.

(٢) أحمد بن محمد بن أبي بكر القسطلاني، جلس للوعظ والإرشاد بالجامع العمري بالقاهرة، ثم تفرغ للعبادة والتأليف، ومن أشهر مؤلفاته (إرشاد الساري إلى شرح صحيح البخاري)، توفي سنة ٩٢٣هـ، البدر الطالع ١/١٠٢.

(٣) الكواكب السائرة ١/٢٨٨.

يملكه الآن آل شلبي العائلة المعروفة بدمشق[1].

وصفها الغزي بقوله: "الشيخة الأريبة، العالمة العاملة أمّ عبد الوهاب الصوفية، أحد أفراد الدهر، وبوادر الزمان فضلًا وعلمًا وأدبًا وشعرًا وديانة وصيانة"[2]، وقالت عنها زينب فوّاز العامليّ: "كانت شاعرة مطبوعة، فاضلة أديبة، لبيبة عاقلة، وكان على وجهها من الجمال لمحة، جمّلها الأدب وحلّتها بلاغة العرب، والذي أجمع عليه العارفون أن عائشة هذه بين المولّدين تزيد على الخنساء بين الجاهليّين، وقد وصفها الشيخ عبد الغني النابلسيّ بأنها فاضلة الزمان، وحليفة الأدب في كلّ مكان، ووصفها غيره من العلماء الأعلام بأنها ربّة الفضل والأدب، وصاحبة الشرف والنسب"[3].

فهي المرأة الوحيدة في تاريخ حضارتنا الإسلامية التي كان لها عدد كبير من المؤلفات، لم تضارعها في مثلها امرأة أخرى، فقد بلغ عدد مؤلفاتها ما يزيد على عشرين مؤلّفًا، تدور في أغلبها حول الرسول الكريم ﷺ حياته ورسالته ونبوته، ويختلط الشعر بالنثر في هذه المؤلفات، على عادة مؤلفي العصر المملوكي ومؤرخيه بومذاك، ومنها:

ديوان شعر بعنوان (فيض الفضل وجمع الشمل)، وقد ضمّ هذا الديوان شعرها في فني المديح النبوي والشعر الصوفي، وشرح بديعيتها المسماة (الفتح المبين في مدح الأمين)، والقصائد النبويات: وهي خمس قصائد طوال في المديح النبوي، والمورد الأهنى في المولد الأسنى، وهو كتاب نثر يخالطه شعر، والفتح الحقي من مدح التلقي، والملامح الشريفة في الآثار اللطيفة، ودر الغائص في بحر المعجزات والخصائص، والإشارات الخفية في المنازل العلية.

---

(١) انظر تحقيقًا في مكان وفاتها: عبد القادر المغربي، "اثنا عشر كوكبًا"، مجلة المجمع العلمي ومجمع اللغة العربية بدمشق، مج١٢ (١٩٣٢)، ص: ٦٤١-٦٥٣.

(٢) الكواكب السائرة في أعيان المئة العاشرة ١/٢٨٧-٢٨٨.

(٣) الدر المنثور في طبقات ربات الخدور ٢/٦٥-٦٦.

وأكثر شعرها في مدح النبي ﷺ، وفي التصوّف، وما تبقى من قصائدها مدحت فيها أعيان عصرها وأدبائه، أو وصفت فيها بعض الأمكنة، أو أجابت فيها عن بعض الأسئلة الفقهية التي وجهت إليها شعرًا.

وتُعدُّ قصيدتها المسماة (الفتح المبين في مدح الأمين) من أشهر البديعيات، وقد حازت بفضل بديعيّتها على لقب (شاعرة البديع الأولى في الإسلام)، وربما فاقت غيرها من أصحاب البديعيات في كثير من أبياتها، تقول زينب فوّاز العامليّ: "ومن نظمها قصيدتها البديعيّة التي سارت بذكرها الركبان، وفاقت بمعانيها على الصفيّ وابن حجّة وسائر أهل البديع وذوي العرفان"[1].

وتتألف هذه البديعية من مئة وثلاثين بيتًا، حشدت فيها مئة وثلاثين نوعًا من المحسنات البديعية، ومنها[2]:

١- في حُسنِ مطلعِ أقمارٍ بذي سَلَم ... أصبحتُ في زُمرةِ العشّاقِ كالعَلَم

٢- أقول والدمعُ جارٍ جارحٌ مُقلتي ... والجارُ جارَ بغدْلٍ فيه مُتَّهَم

٣- يا للهوى في الهوى روحٌ سمحتُ بها ... ولم أجدْ روحَ بشرى منهمُ بهم

٤- يا سعدُ إن أبصرتْ عيناك كاظمةً ... وجئتَ سلْعًا فسلْ عن أهلها القُدُم

٥- فثَمَّ أقمارُ ثَمَّ طالعين على ... طُويلعٍ، خيِّمْ وانزلْ بخيِّهم

٦- أحبّةٌ لم يزالوا منتهى أملي ... وإن همُ بالتنائي أوجبوا الصمي

٧- أحبّةٌ ما لقلبي غيرهُمْ أربٌ ... وحبُّهم لم يزل يربو من القِدَم

٨- كيف السُّلوُّ ونارُ الحبِّ موقدةٌ ... وسطَ الحشا وعيونُ الدمع كالدِّيَم

---

(١) الدر المنثور: ٢/٦٦.

(٢) الدر المنثور: ٢/٦٨-٧١.

٩- ولي جفون بغير السُّهد ما اكتحلت ... ولي رسومٌ بغير السُّقم لم تُسَمِ

١٠- قالوا: ارْعَوِي قلت: قلبي ما بطاوعني ... قالوا: انثني قلتُ: عهدي غيرُ مُنفصِمِ

١١- لَزِمتُ صدقَ وَلاهُمُ والتزمتُ به ... فلستُ أسلوهُ إلا عن سُلُوّهِم

١٢- حَلُّوا بقلبي وحلّى جود مِنَّتِهم ... جيدي وشكر الأيادي مسمعي وفمي

١٣- لا مكّنتني المعالي من سيادتها ... إنْ لم أكنْ لهمُ من جملة الخدمِ

١٤- بفضلهم غمروني من فواضلهم ... بما عجزتُ به عن حقّ شكرهمِ

١٥- وألبسوني مُذْ آنستُ نارَهُمُ ... من نُورِ حضرتهم نورًا جلا ظُلَمي

١٦- وألبسوني ثيابَ الوصلِ مُعْلَمَةً ... بقربهم وأقرّوا في العُلا عَلَمي

١٧- لهم شمائل بالإحسانِ قد شَملتْ ... وعلّمتْ كرمَ الأخلاقِ والشيمِ

١٨- حلّوا بقلبي فيا قلبي تَهَنَّ بهمْ ... وافرحْ ولا تلتفت عنهم لغيرِهم

١٩- فليتَ شعريَ هل حالي بمنتظمٍ ... قبلَ الفواتِ وهلْ شَملي بملتئمِ؟

٢٠- نعمْ نعمْ حدثتني -وهي صادقةٌ- ... ظنونُ سرّي حديثًا غيرَ مُتَّهَمِ

٢١- سادوا فجودُهمُ جَمٌّ ونائلُهمُ ... حتمٌ ومَوردهم عَذْبٌ لكلّ ظمي

٢٢- كتمتُ حالي ويأبى كتمَهُ شجني ... بحُكْمَيِ الفاضِحَيْنِ: الدمعِ والسقمِ

٢٣- أعظِمْ بهِ من نبيٍّ مُرْسَلٍ نزلتْ ... في مدحِهِ محكَمُ الآياتِ من حِكَمِ

٢٤- خيرِ النبيّينَ والبرهانُ متضحٌ ... عقلًا ونقلًا فلم تَرْتَبْ ولم تَهِمِ

٢٥- أسناهُمُ نسبًا أزكاهُمُ حسبًا ... أعلاهُمُ قربًا من بارئ النَّسَمِ

٢٦- أعظِمْ به من نبيٍّ سيِّدٍ سندٍ ... هادٍ سراجٍ منيرٍ صفوةِ القِدَمِ

٢٧- كمْ أعقبتْ راحةٌ باللمسِ راحتُهُ ... وكم محا مِحنةً ريقٌ لهُ بفمِ

٢٨- وذكرُهُ كاد -لولا سُنّةٌ سبقتْ- إذا تكرّر يحيي باليَ الرِّمَم

٢٩- قالوا: هو الغيثُ قلت: الغيثُ آونةً يهمي وغيثُ نداه لا يزالُ هَمي

٣٠- جرّدتُ حبّي له من كلّ مُفسدةٍ ولم تزل بالصفا تسعى له قدمي

٣١- ولو غدا البحرُ حبرًا والفضا وَرَقًا في حصرِ أوصافِهِ ضاقا ببعضهم

٣٢- طه الذي إن أخَفْ ذنبي ولُذتُ بهِ أمِنتُ خوفي ونجّاني من السّقَم

٣٣- ولا طمحتُ إلى شيءٍ منَ الكرمِ إلا وبلّغني فوقَ الذي أرم

٣٤- يا أكرمَ الرُّسْلِ سُؤلي منك غيرُ خفيّ وأنتَ أكرمُ مدعوٍّ إلى الكرم

٣٥- حسبي بحبّك أنّ المرءَ يُحشَرُ مع أحبابِهِ فهنائي غيرُ منحَسِم

٣٦- مَدَحْتُ مجدكَ والإخلاصُ مُلتزمي فيه وحسنُ امتداحي فيك مُختَتَمي

ومن شعرها الصوفي قولها[1]:

١- حبيبي أنتَ من قلبي قريبُ وعن سرّي جمالُك لا يغيبُ

٢- خلعتَ الحسنَ في خِلَعِ التَّجلّي فشاهدتُ الجمالَ ولا رقيبُ

٣- وأبديتَ الوصالَ فلا صدودٌ ولا وهمٌ ولا شيءٌ يَريبُ

٤- وطفتَ عليَّ في حانِ التصابي بكأسٍ عيشُ شاربِهِ يطيبُ

٥- وصرتُ إلى مقامٍ ليسَ فيه سواكَ حبيبَ قلبي لي نصيبُ

٦- تُنادِمُني وتَسقيني مُدامي وتُحضِرُني لديكَ فلا أغيبُ

٧- وتُذكِرُني وتُشهِدُني جمالًا تقدّسَ أن يكونَ له ضريبُ

٨- فلا خوفٌ وأنتَ أمانُ قلبي ولا سقمٌ وأنتَ لي الطبيبُ

---

(١) الكواكب السائرة ١/٢٩١.

٩- ولا حـــزنٌ وأنـــت ســـرورُ ســـرّي ولا ســـؤلٌ وأنـــتَ لـــيَ الحبيـــبُ

إنّ شعرها الصوفي إجمالاً شعر قريب إلى القلب، تضيء فيه عاطفة صادقة متأججة، وأسلوبها عامر بمحاسن الرقة والانسجام والسهولة.

كما تتفوق في شعر المديح النبوي على كثير من شعراء عصرها في إبداعها وجمال أسلوبها، وصدق عاطفتها، وموسيقاها الشعرية الصالحة للإنشاد والغناء، ولعلّ من أروع الصور التي رسمها الشعراء لمولد الرسول الكريم ﷺ الصورة التي رسمتها الباعونية بقولها:

١- اللّـــهُ أكبَـــرُ كَـــمْ وافَـــتْ بِشَـــاراتُ وَكَـــم تَبَـــدّتْ لِتَعظـــيمٍ إشَـــاراتُ

٢- وَكَـــم تَجلّـــتْ بَـــراهينٌ ومُعجـــزةٌ وَكَـــم تَوالَـــتْ كَرامـــاتٌ وآيـــاتُ

٣- بِلَيلـــةِ المَولِـــدِ الغَـــرّاءِ حـــينَ دَنَـــا لِوَضـــعِ أحمَـــدَ خَيـــرِ الخَلـــقِ مِيقـــاتُ

٤- أعظِـــمْ بِهـــا لَيلَـــةً جَلّـــت بَـــدائِعُها وَأفصَـــحَتْ بِالهَنَـــا فيهـــا الجمـــاداتُ

٥- وضُـــمّخَتْ سائِرُ الأرجـــاءِ وَامتَلأَتْ عطـــرًا وَفاحَـــتْ مِـــنَ الأنحـــاءِ نَفحَـــاتُ

٦- وَدَقّ طَبـــلُ الهَنَـــا فـــي كُـــلِ ناحِيَـــةٍ وَقابَلَتْـــهُ مِـــنَ الآفـــاقِ كُومَـــاتُ[1]

٧- وَزُيّنَـــتْ حَضَـــراتُ الغَيـــبِ وَانتَصَـــبَتْ مِـــن أجْـــلِ يَاســـينَ أعـــلامٌ وَرايـــاتُ

٨- وَجُلّـــلَ العَـــرشُ بِـــالأنوارِ وَانشَـــرَحَ الـــ ـــكُرسيُ وَزُخـــرِفَ فـــردوسٌ وَجنّـــاتُ

٩- وَقُرّقَـــت حِلَـــعُ التّكـــريمِ فـــي الفَـــلأ الـــ أعلـــى وَضَـــجّتْ بِحَمـــدِ اللّـــهِ أصـــواتُ

١٠- وَأشـــرَقَ الكَـــونُ بِـــالأنوارِ واتّصَـــلَتْ مِـــنَ الهَواتِـــفِ بِالهَـــادي بِشَـــاراتُ

١١- وَانكَسّـــتْ سَـــائِرُ الأصـــنامِ وَانقَلَبَـــت كَأنّهـــا لَـــم تَكُـــنْ إلّا هَبـــاءاتُ

١٢- وَزُجّ إيـــوانُ كِســـرى زَجّـــةً سَـــقَطَت لِبابِســـها شُـــرَفٌ مِنـــهُ غَديـــداتُ

---

(١) الكوس: بالضم الطبل (معرّب).

١٣- وَساءَ (ساوةَ) غَيْضُ الما وَ(فارسُ) خُمودِ نارِهِمُ بالغَيْظ قد ماتوا

١٤- وَالجِنُّ صُدَّتْ وَآفاقُ السَّما مُلِئَتْ شُهْبًا أُديمتْ بها مِنْهم حِراساتُ[1]

١٥- وحبُّه في صميمي ساكنٌ وبهِ أرى نعيمي ولي منهُ عنايـاتُ

١٦- ما رُمْتُ شيئاً ونادى السرُّ يا سندي إلا وجاءتْ بمأمولي العنايـاتُ

١٧- ولا عراني ضيقٌ واستغثتُ بهِ إلا وأوسع لي منهُ العطيّاتُ

١٨- ولا استجرتُ بهِ ممّا يروّعني إلا أمنتُ ووافتني الحِمايـاتُ

١٩- يا أكرم الرُّسلِ آمالي لديكَ ولا يَخفى مرادي ولي بالجبرِ عاداتُ

٢٠- وأنتَ أكرمُ مخلوقٍ تمدُّ لهُ يدٌ فتملؤها منهُ المبرّاتُ

٢١- عليكَ من صلواتِ الله أفضلُها أزكى صلاةٍ بها للقلبِ وَصْلاتُ

وهكذا لم تكن عائشة الباعونيّة أشعر نساء قرني الهجرة التاسع والعاشر اللّذين عاشت فيهما، وأعلم نسائهما فحسب، بل ربما لم تقم في الإسلام بعد كبار الصحابيات والتابعيات من تشبهها في العلم، والتفنن في النظم، والإجادة في التصنيف والتأليف؛ كانت كالشيخ عبد الغني النابلسي في الجمع بين علوم الدين والأدب وعلوم التصوف"[2].

---

(١) مولد النبي؛ ٢٥.

(٢) عبد القادر المغربي، اثنا عشر كوكبًا، مجلة المجمع العلمي ومجمع اللغة العربية، مج ١٢، ج١١-١٢، دمشق ١٩٣٢، ص٦٤٧.

أبرز أغراض الشعر[1]

استمرت الأغراض المعروفة للشعر العربي كالمدح، والرثاء، والفخر، والهجاء، والغزل، والوصف، وإن تغيرت قيمها ومعانيها قليلًا، كما استجدّت بعض أوصافها وطرائق تناولها، فجمع الشعراء بين متابعة سابقيهم وما استجدّ في عصرهم وبيئتهم، وسنحاول الوقوف هنا عند أهم الأغراض وأبرزها:

١- المديح:

أكثر منه شعراء هذا العصر وأجادوا، واتجه على أيديهم ثلاثة اتجاهات، أما أوّلها: فإلى المماليك الذين نهضوا بعبء قتال الغزاة من الفرنجة والمغول، والذود عن حمى الأمة والدفاع عن حياض العقيدة، فراجت سوق المديح الذي يُمجّد البطولة والدفاع عن المقدّسات، وتغنّى الشعراء بانتصارات قادة المسلمين على الفرنجة والمغول، وخلّدوا صفاتهم الحميدة وأعمالهم الخيرة، ومن ذلك ابتهاج المسلمين بانتصار سيف الدين قطز على التتار في عين جالوت (٦٥٨هـ)، كما نرى في قول شرف الدين الأنصاري[2]:

رُعْتَ العِدا فضمِنْتَ ثَلْمَ عروشِها ... وَلَقِيْتَها فأخَذْتَ فَلَّ جيوشِها

فَتَّتَ الملوكَ بِبَذْلِ مَا تَحْوِيهِ إذْ ... خُتِمَتْ خَزَائِنُها على مَنْقُوشِها

فَطَوَيْتَ عَنْ مِصْرٍ فَسِيْحَ مَرَاحِلٍ ... مَا بَيْنَ بِرْكَتِها وبَيْنَ عَرِيْشِها

حَتَّى حَفِظْتَ على العِبَادِ بِلادَها ... مِن رُوْمِها الأقْصَى إلى أُخْبُوشِها

فَرَشَتْ حَمَاةُ لِوَطْءِ نَعْلِكَ خَدُّها ... فَوَطِئْتَ عَيْنَ الشَّمْسِ مِنْ مَفْرُوشِها

---

(١) ينظر: أدب الدول المتتابعة (الدولة المملوكية)، د. محمود سالم محمد، هيئة أبو ظبي للسياحة والثقافة، دار الكتب الوطنية، ٢٠١٢م، والأدب العربي بين عصرين المملوكي والعثماني، د. نبيل خالد أبو علي، دار المقداد للطباعة، غزة، ٢٠٠٧م.

(٢) قال القصيدة في حماة حينما وصل إليها قطز منتصرًا، تاريخ ابن الوردي ٢/٢٠١.

وكذلك قول شهاب الدين محمود الحلبي[1] في مدح السلطان الظاهر ركن الدين بيبرس، والإشادة بانتصاره على التتار والروم الذين أعادوا تجمعهم عند نهر جيحان، فخاض النهر خلفهم ولم ينجُ منهم إلا القليل[2]:

سِرْ حَيْثُ شِئْتَ لَكَ المُهَيْمِنُ جَارُ ... وَأَحُكُمْ فَطَوْعُ مُرَادِكَ الأَقْدَارُ

لَمْ يَبْقَ لِلدِّينِ الَّذِي أَظْهَرْتَهُ ... يَا رُكْنُهُ عِنْدَ الأَعَادِي ثَارُ

لَمَّا تَزَاقَصَتِ الرُّؤُوسُ وَحُرِّكَتْ ... مِنْ مُطْرِبَاتِ قِسِيِّكَ الأَوْتَارُ

خُضْتَ الفُرَاتَ بِمَنَاسِجٍ أَقْصَى مُنَى ... هُوجِ الصَّبَا مِنْ نَعْلِهِ آثَارُ

حَمَلَتْكَ أَمْوَاجُ الفُرَاتِ وَمَنْ رَأَى ... بَحْرًا سِوَاكَ تُقِلُّهُ الأَنْهَارُ

وَتَقَطَّعَتْ فِرَقًا وَلَمْ يَكُ طَوْدَهَا ... إِذْ ذَاكَ إِلاَّ جَيْشُكَ الجَرَّارُ

رَبَتْ دِمَاؤُهُمُ الصَّعِيدَ فَلَمْ يَطِرْ ... مِنْهُمْ عَلَى الجَيْشِ المُعِيدِ غُبَارُ

شَكَرَتْ مَسَاعِيَكَ المَعَاقِلُ وَالوَزَى ... وَالتُّرْبُ وَالأَسْدُ وَالأَطْيَارُ

هَذِي مَلَعْتَ وَهَؤُلاءِ خَمَيْتَهُمْ ... وَسَقَيْتَ نِيلَكَ وَغْمُ ذَا الإِبْسَارُ

فَلأَمْلأَنَّ الدَّهْرَ فِيكَ مَدَائِحًا ... تَبْقَى -بَقِيتَ- وَتَذْهَبُ الأَعْصَارُ

فقد التفَّ الشعراء حول أبطال الأمّة الذين خلّصوا البلاد والعباد من شرور أعدائها الفرنجة والمغول، وكان الشاعر شهاب الدين محمود أحد الذين لهجوا بذكر انتصارات المماليك في الشام، وها هو ذا يخلّد فتح السلطان المنصور قلاوون حصن المَرْقب، بعد أن قضى على مَن فيه من الفرنجة سنة (٦٨٤هـ)، ويمتدح قوة عريكة هذا السلطان، وقوة إيمانه التي تجلّت في ادخار الله عزّ وجلّ شرف فتح هذا الحصن له دون غيره من

---

(١) هو شهاب الدين أبو الثناء محمود بن سليمان بن فهد بن محمود الحلبي الدمشقي، تولى ديوان الإنشاء بعد موت محيي الدين بن عبد الظاهر، وتوفي سنة ٧٢٥ هـ.

(٢) النجوم الزاهرة ٧/١٤٣- ١٤٤، فوات الوفيات ١/٢٤٠.

السلاطين والأبطال الأقوياء، ومن ذلك قوله[1]:

الله أكبـــرُ هـــذا النَّصـــرُ والظَّفَـــرُ	هـــذا هـــوَ الفَـــتْحُ لا مـا تَـــزْعُمُ السِّيَرُ
هـذا الَّـذِي كَانَـتِ الآمَـالُ إنْ طَمَحَـتْ	إلَـــى الكَوَاكِـــبِ تَرْجُـــوه وَتَنْتَظِـــرُ
فَـانْهَضْ وَسِـرْ وَامْلِكِ الـدُّنْيَا فَقَدْ نَحَلَـتْ	شَـــوْقًا مَنَابِرُهَـــا وَارْتَاحَـــتِ السُّـــرُرُ
كَـمْ رَامَ قَبْلَـكَ هـذا الحِصْـنَ مِـن مَلِـكٍ	فَطَـالَ عَنْـه وَمَـا فِـي بَاعِـه قِصَـرُ
وَكَيْـــفَ تَمْتَحِـــه الأَيَّـــامُ مَمْلَكَـــةً	كَانَـــتْ لِـــذُؤَابَتِكَ الغَـــرَّاءِ تُـــدَّخَرُ
وَكَيْـفَ يَسْـمو إلَيْهـا مَـنْ تَـأَخَّرَ عَـن	إسْـــعَادِه مُنْجِـــدَاكَ القَـــدْرُ وَالقَـــدَرُ

وفي مدح السلطان قلاوون – أيضًا – بعد فتح طرابلس سنة (٦٨٩هـ) يتوجّه الشهاب محمود إلى الله عزّ وجلّ بالشكر على نعمة النصر والتأييد التي خصّ السلطان بها، ويتضرع إليه أن يُديم عليه النصر والتأييد[2]:

عَلَيْـــكَ لِمَـــنْ أَوْلاكَ نِعْمَتَـــه الشُّـــكْرُ	لأَنَّـــكَ لِلإِســـلامِ يَـــا سَـــنَدٌ ذُخْـــرُ
وَمِنَّـا لَـكَ الإِخْـلاصُ فِـي صَـالِحِ الـدُّعا	إلَـــى مَـــنْ لَـــه فِـــي أَمْـرِ نُصْـرَتِكَ الأَمْـرُ
وَللهِ فِـــي إِعْـــلاءِ مُلْكِـــكَ فِـــي الـــوَرَى	مُـرَادٌ وَفِـي التَّأْيِيْـدِ يَـوْمَ الـوَغَى سِـرٌّ
أَلا هَكَـــذَا يَـــا وَارِثَ المُلْـــكِ فَلْـــيَكُنْ	جِهَـادُ العِـدَا لا مَـا تَـوَالَى بِـه الـدَّهْرُ

ولا نكاد نجد سلطانًا أو أميرًا أو قائدًا من قادة المماليك الذين تصدوا للتتار والفرنجة إلا حاز إعجاب الشعراء، وحظي بما خلّد ذكره من المدح الصادق، ليس ذلك فحسب، بل امتدح الشعراء عددًا من رجال الدولة المملوكية في مصر والشام لحُسن خلقهم وتقواهم، وأشادوا بعدلهم، وبحُسن إدارتهم، وسهرهم على راحة مواطنيهم، ومن ذلك ما نراه

---

(١) النجوم الزاهرة ٢٦٩/٧-٢٧٠.

(٢) النجوم الزاهرة ٢٧٥/٧.

في قول البوصيري[1]:

فَطَهَّرَ وَجْهَ الأَرضِ مِنْ كُلِّ فَاسِدٍ ... وَمَا خِلْتُهُ مِنْ قَبْلِهِ يَتَطَهَّرُ

وَمَهَّدَهُ لِلسَّالِكِينَ مِنَ الأَذَى ... فَلَيْسَ بِهِ الأَعْمَى إِذَا سَارَ يَعْثُرُ

فَشَرَّقَ وَغَرَّبَ فِي البِلادِ فَكَمْ لَهُ ... بِهَا عَابِرٌ يُثْنِي عَلَيْهِ وَيَعْتَبِرُ

وَمَا كُلُّ وَالٍ مِثْلُهُ فِيهِ يَقْظَةٌ ... وَلاَ قَلْبُهُ بِاللهِ قَلْبٌ مُنَوَّرُ

أَنَامَ الرَّعَايَا فِي أَمَانٍ وَطَرْفُهُ ... لِمَا فِيهِ إِصْلاَحُ الرَّعِيَّةِ يَسْهَرُ

فَلاَ الخَوْفُ مِنْ خَوْفٍ أَلَمَّ بِأَرْضِهِ ... وَلاَ الشَّرُّ فِيهَا بِالخَوَاطِرِ يَخْطُرُ

ويمدح عمر بن الوردي[2] المماليك عامة، ويشير إلى استقرار حال البلاد في عصرهم، إذ يصفهم بالسعد والعدل بعد أن شبههم بالملح الذي لا يستغني الناس عنه، مبينًا أنه لا يعرف فضلهم إلا مَن جَرَّب ظلم المغول، ويدعو لهم بطول البقاء[3]:

التُّرْكُ مِلْحُ الأَرْضِ فِي عَصْرِنَا ... وَالفَلَكُ الدَّائِرُ فِي سَعْدِهِمْ

يَعْرِفُ مَنْ يَعْرِفُ مِقْدَارَهُمْ ... مَنْ ذَاقَ جَوْرَ المُغْلِ[4] مِنْ بَعْدِهِمْ

اللهُ لاَ يُوحِشُ مِنْ أُنْسِهِمْ ... فَجَوْرُهُمْ أَهْوَنُ مِنْ فَقْدِهِمْ

وهكذا أشاد الشعراء بشجاعة ممدوحيهم وسطوتهم بحماسة بالغة، لأنهم استشعروا قيمة انتصاراتهم التي أثلجت قلوب العرب والمسلمين جميعًا، بعد الخوف الشديد الذي اعتراهم من المغول وبطشهم، وقد غلب التوجه الديني على مدح أبطال المعارك لأن

---

(١) ديوان البوصيري، تحقيق محمد سيد كيلاني، ط٢، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، ١٩٧٣م، ص١٦٠.

(٢) هو زين الدين عمر بن مظفر بن عمر بن محمد بن أبي الفوارس الوردي، المعروف بابن الوردي المتوفى سنة ٧٤٩هـ، صاحب كتاب تاريخ ابن الوردي، انظر ترجمته في: فوات الوفيات ١٥٧/٣-١٦٠.

(٣) الديوان: ٣٤٣.

(٤) المغل: المغول.

الغزاة أظهروا استهدافهم للحضارة العربية الإسلامية، فكانت مقاومتهم حربًا مقدسة، ولأن المماليك قدموا أنفسهم حماة للإسلام ودياره، وهو الذي يجمعهم برعيتهم، فصارت القيم الدينية تزاحم القيم التقليدية في المديح.

وأضحت المعاني الدينية من لوازم المديح، لا يتركها شاعر في مدحه نزولًا عند التوجه العام في هذا العصر، وقد سرت هذه المعاني إلى قصائد المدح كلها، تُخلط مع القيم التقليدية وتفرد وحدها، أو تُدرج في أثناء المدح من غير أن يشعر المتابع بها، وكأنها أضحت من قيم المدح الثابتة التي يجب أن تقال فيمن تحلّى أو لم يتحلّ بها، مثل قول الشاب الظريف (محمد بن سليمان بن علي التلمساني ت٦٨٨هـ) في مدح وزير[1]:

والصّدقُ في أقوالِهِ، والحقُّ في ... أفعالِهِ، والعدل في أحكامِهِ

والله من حُفظانِهِ، والنّصرُ من ... أعوانِهِ، والدهرُ من خُدّامِهِ

مُستَعصِمٌ بالله في حركاتِهِ ... وسُكونِهِ وقُعودِهِ وقيامِهِ

وهكذا لم يختلف عند الشعراء مدح الوزراء وكبار الدولة عن مدح السلاطين، ولا سيما إذا كان الوزير عربيًا، يعرف قيمة المدح، ويدرك الإجادة فيه، مثل مدح البوصيري للوزير زين الدين بن الزبير، الذي يرجع نسبه إلى الزبير بن العوام رضي الله عنه، يقول فيه[2]:

عمُّ الخلائقِ جُودُهُ فكأنّما ... يَدُه بأرزاقِ الورى مُتَكَفِّلَه

مَن لم يَنَلْ عنه وسأل عن أبيه وجَدِّه ... تَسمَعْ أحاديثَ الكرامِ مُسَلْسَلَه

إنْ سالَ كان اللّيثُ منه شَعْرَةً ... أو جادَ كان البحرُ منه أنمُلَه

مُلِئَت بإملاء الخواطرِ كُتبُه ... حِكَمًا على وَفْقِ الصّوابِ مُنَزَّلَه

وأما ثانيها: فشمل العلماء والقضاة والأدباء الكتاب، وقد ساروا فيه على سَنَنِ مَن

---

(١) المنهل الصافي ٣/٢٧٠.

(٢) الديوان: ٣١٨.

قبلهم، وكان سبيلهم لنيل العطاء وبلوغ المراتب لدى السلاطين والأمراء، وفيه أسبغ الشعراء على ممدوحيهم الصفات المعروفة من شجاعة وكرم وحلم وعلم، ولم يروا ضيرًا في أخذ معاني غيرهم إذا خرجت بقالب حسن، وربما بدؤوا مدائحهم بالوقوف على الأطلال، أو بالغزل، أو بوصف الطبيعة أو بوصف الرحلة، وربما جمعوا بين مقدمتين من هذه المقدمات أو أكثر، فهذا ابن نباتة يمدح الشهاب محمودًا الشاعر الذي كان من كبار كتّاب الإنشاء وكاتب السر، فيبدأ قصيدته بالوقوف على الأطلال والديار، ثم يذكر طيف المحبوبة، إلى أن يصل إلى المديح، فيقول[1]:

إمـــامٌ إذا هـــزّ اليـــراعَ مُفـــاخِرًا ... بـــه الـدهرَ قـال الـدهرُ لستُ هناكـا

وقالـتْ لـه العليـا فِـداكَ ذوو العُـلا ... وإن قـــلَّ شـــيءٌ أن يكـــونَ فـــداكا

علـوتَ فأدركـتَ النجـومَ فصُـغْتَها ... كلامًـــا ففقـــتَ القـــائلينَ بـــذاكا

وحُـزْتَ معـاني القـولِ مـن كـلِّ وجهـةٍ ... فـــأبقِ علينـــا نبـــذةً لثناكـــا

وحُكْـتَ رقيـقَ اللفـظِ منفـردًا بـه ... وقـد قيـل إنّ الـروض حـاكَ فحـاكى

---

(١) الديوان: ٣٠٢.

(٢) هو علاء الدين، علي بن محمد بن علي بن عبد الله المعروف بابن مليك الحموي، ولد بحماة، درس الأدب والنحو والعروض، واشتغل بالعلم والأدب وبرع في الشعر، وتوفي ودفن بدمشق سنة ٩١٧هـ. انظر ترجمته في: الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة: نجم الدين الغزي ١/٢٦١.

قاضي القضاة شهاب الدين أبي العباس المعروف بابن فرفور[1]:

ولله سِـرٌّ فـي عُـلاكَ فَمَـا غسـى ... يَقُـولُ حَسُـودٌ أو عَـدوٌ يُجَـاهِرُ

وأضْـحَتْ دِمَشْـقُ الشَّـامُ بِالحُسْـنِ جَنَّـةً ... عَلَيْهَـا جَمَـالٌ مِنْـكَ بَـاهٍ وَبَـاهِرُ

وَحَاكَـتْ لَهـا أَيْـدي السَّـحَابِ مَطَارِفًـا ... مُوشَّـعَةً قَـدْ دَبَّجَتْهَـا الأَزَاهِـرُ

وَرَوْضُ الهنَـا بِـالرَّقِ نَقَّـرَ طَيْـرُه ... وَغَنَّـى عَلَـى العِيـدَانِ والـرِّيْحُ زَامِـرُ

وَجَامِعُهَـا بِالحُسْـنِ أَصْـبَحَ مُفْـرَدًا ... وَقَـدْ أَعْرَبَـتْ بِالوَصْـفِ عَنْـه الضَّـمَائِرُ

وَصَـارَ عَلَيْـه مِـنْ شِـعَارِكَ رَوْنَـقٌ ... وَفِيْـه لَقَـدْ أَضْـحَتْ تُقَـامُ الشَّـعَائِرُ

وَمِنْبَـرُه لَمَّـا بِـه قُمْـتَ خَاطِبًـا ... تَمَلَّـتْ بِـأَنْ تَمْشِـي إِلَيْـه المَنَـابِرُ

فَهـذَا هـو البَحْـرُ الـذي عـن نَوَالِـه ... مَـوَارِدُه قَـدْ أَعْرَبَـتْ والمَصَـادِرُ

أَخُـو الجُودِ مِـنْ كَفَّيْـه يُسْتَمْطَرُ النَّدى ... وَمَـا هُـو إِلا الغَيْـثُ بِـالجُودِ مَاطِرُ

راعى الشاعر في هذه الأبيات الصفات التي تناسب مقام الممدوح ومكانته الاجتماعية والدينية، فهو القاضي الذي تُزْهَى به دمشق، والخطيب التقي المفوّه الذي يباهي به مسجده، وتتوق إليه المنابر، ثم لا ينسى الشاعر الإشادة بكرم ممدوحه وسخائه.

وكانت مدائح ابن نباتة في القضاة مشهورة، فهو يعرف أن ممدوحيه يقدّرون الإبداع، ويهتزون لقيم المدح العربية، ويعرفون الصدق في توجّه الشاعر، فقال في قاضي القضاة ابن جملة[2]:

مِـنْ مُبْلِـغٌ علمـاءَ الأعصـرِ الأولِ ... أنّ التفاصـيلَ قَـدْ جُمّعـن فـي الجمـلِ

تجمعـتْ فـي فتـى العليـا ولا عجـبٌ ... أن يجمـعَ اللهُ كـلَّ النـاسِ فـي رجـلِ

---

(١) ديوان ابن مليك الحموي: ٦٢.

(٢) الديوان: ٤٠٣.

تشـــاغلَ النـــاسُ فـــي لـــذّاتِ دهـــرِهمُ وأنـــتَ بالفضـــلِ والأفضـــالِ فـــي شُـــغُلِ

لم يُبق ابن نباتة من معاني المدح غير قيادة الجيوش وخوض غمار الحرب، ومع ذلك نلمح شيئًا من التخصيص، فالمطّلع على القصيدة يعرف أن الممدوح قاضٍ، وأن مكانته كبيرة بين الناس، وأنه يعتز بالقيم العربية، وقد بالغ ابن نباتة في مدحه، فأفرده بين رجال زمانه، وفضّله على السابقين، وجعله جامعًا للفضائل أجمعها.

وكذلك ترك شعراء العصر المملوكي قدرًا كبيرًا من شعر الثناء على العلماء والأدباء، ومدحوهم بغزارة علمهم وبراعة فنهم، وما استحبوا من صفاتهم، وفي هذا المقام نذكر بيتين في مدح أبي العباس أحمد بن خلّكان[1]، من شعر عمر بن إسماعيل الفارقي مبتهجًا بعودة ابن خلكان إلى قضاء دمشق، قال[2]:

أنـــتَ فـــي الشّـــامِ مِثْـــلُ يُوسُـــفَ فـــي مِصْـــــرٍ وَعِنْـــــدِي أنّ الكِـــرَامَ جِنْـــاسُ

وَلِكُـــلِّ سَـــبْعٍ شِـــدَادٌ وَبَعْـــدَ السَّـــبْـــعِ عَـــامٌ فِيْـــهِ يُغَـــاثُ النَّـــاسُ

وقد شاركت المرأة في فن المديح كما شاركت في غيره من فنون الشعر، وفي هذا المقام نورد بعض ما قالته عائشة الباعونية في مدح شيخ الأدباء السيد الشريف عبد الرحيم العباسي القاهري[3]:

إمـــامٌ حَـــوَى مِـــنْ كُـــلِّ عِلْـــمٍ لُبَابَـــهُ فَحَـــجَّ لِعَـــالِي بَابِـــهِ كُـــلُّ ذِي قَـــدْرِ

وَأَصْـــبَحَ فِـــي بَحْـــرِ الحَقَـــائِقِ غَائِصًـــا وَمُسْـــتَخْرِجًا مَـــا شَـــاءَ مِـــنْ ذَلِـــكَ البَحْـــرِ

---

(١) هو قاضي القضاة شمس الدين أبو العباس، أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر بن خلّكان، وُلد بإربل في بيت معروف بالفقه والمناصب الدينية، كان إمامًا عالمًا، معدوم النظير في علوم شتى، وهو صاحب التاريخ المشهور (وفيات الأعيان)، تولى قضاء دمشق مرتين، وذهب إلى القاهرة مدة، وأفتى فيها ودرّس، وتوفي في دمشق سنة ٦٨١هـ، ترجمته في: النجوم الزاهرة ٧/٢٩٩ - ٣٠١.

(٢) النجوم الزاهرة ٧/٣٠٠.

(٣) الكواكب السائرة ١/٣٠٤.

تَلُـوذُ بِـــهِ الأَعْيَـــانُ فِيمَـــا يُهِمُّهـــمْ ... فَيُلْفُـونَ عَطْـفَ البَـرِّ أَوْ فَـائِضَ البِـرِّ

كَـــرِيمٌ تُجَـــارِي المُـــحْبَ رَاحَتُـــهُ ولا ... يُرِيْـدُ بِمَـا يُجْـرِي سِـوى الفَـوزِ بِـالأَجْرِ

يَمُـــنُّ وَلا مَـــنٌّ يَشُـــوبُ عَطَـــاءَهُ ... وَيَمْـنَحُ مِـنْ لَفْـظٍ سَـبَى العَقْـلَ بِالسِّحرِ

عَـرَائِسَ فِكْـرٍ أَرْخَـصَ الـدُّرُّ لَفْظُهـا ... وَأَنْشَـدْتَ مَعَانِيْهـا لَنَـا دَهْشَـةَ الفِكْـرِ

إنها الصفات التقليدية التي توارثها الشعراء المدّاحون في الثناء على ممدوحيهم، أما الخصوصية فتكمن في اختيار ما يناسب الممدوح من صفات تتصل بعمله أو تخصصه، فالعالم أو الأديب يناسبه المدح برجاحة العقل، وسعة العلم، وحسن المنطق، وبراعة المعنى، وجمال اللفظ، إضافة إلى الصفات العامة كالكَرم، والنخوة، والتقوى.

وفي إطار وجهة المدح هذه ينضوي مدح الأصدقاء، وفيه تكمن المشاعر والأحاسيس الذاتية، وإن كانت المبالغات تغزو معانيه غالبًا، والصنعة البديعية تسربل أبياته، ومنه ما قاله الشاب الظريف (ت ٦٨٩هـ) في محيي الدين بن عبد الظاهر، البالغ الإحسان والجود [1]:

ومعشرٍ لـمْ تَـزِلْ فـي الحـربِ بِيضُـهُمُ ... حُمرَ الخدودِ، ومـا مـن شـأنِها الخجـلُ

يَنْبِـي حـديثُ الـوغى أعطـافَهم طربًـا ... كـأنّ ذكـرَ المنايـا بيـنهمْ غَـزَلُ

ضـاءتْ بحسـنِهمُ تلـك الخيـامُ كمـا ... ضـاءتْ بوجـهِ ابـنِ عبـدِ الظـاهرِ الـدُّولُ

تُـوحي إلـى كـلِّ قرطـاسٍ بلاغتُـهُ ... سـحرَ البيـانِ ومـنْ أقلامِـهِ الرسـلُ

فالعُـداةِ لديـه كـلُّ مـا حَـذِروا ... وللعُفـاةِ عليـه كـلُّ مـا سَـألوا

أضْـحَتْ يـداه لِعقْـدِ الجـودِ واسـطةً ... فلـيسَ يُـدْرِي لجـودٍ بعـدَهَا عَطَـلُ

بقي أن نشير إلى استمرار تدفق شعر التكسب في هذا العصر، وقد وصل بعض

(١) الديوان: ٢٥٠-٢٥١.

الشعراء إلى حدّ إراقة ماء الوجه وهو يطلب عطاء ممدوحه، من ذلك – مثلاً – ابن نباتة في مدح صاحب حماة الملك المؤيد أبي الفداء[1]:

يَـا إمَـامَ الـوَرى، مَضَـى يَصِـفُ عَـامٍ ... مِـنْ وصُـولِي وَلَـمْ يَصِـلْ لِـيَ رُبْـعُ

سَـنَةٌ إن غَفَلْـتَ عَنِّـيَ فِيهَـا ... كَسَـرَتْنِي وكَيْـفَ لا، وهْـيَ سَـبْعُ

وقوله[2]:

شَـكَرَتْ لَهـاكَ فَمَـا أَشُـكُّ بِـأَنَّنِي ... ثَلَّثْـتُ وَهْـيَ مُطِيْقَـةٌ أَثْقَالَهـا

أَغْنَيْتَنِـي عَـنْ كُـلِّ ذِي مَـالٍ فَلَـمْ ... أَفْـتَحْ يَـدًا لِسِـوَى نَـدَاكَ وَلا لَهـا[3]

وكَفَيْتَنِـي حَتَّـى فَقَـدْتُ مَعَاشِـرًا ... كَثُـرَ النَّـدَى فَاسْـتَكْثَرَتْ أَطْفَالَهـا

أَيَّـامَ مَـا لِـي غَيْـرَ قَصْـدِكَ حِيْلَـةٌ ... تُلْجِـي وتُلْجِـعُ فِـي الـوَرَى أَطْفَالَهـا[4]

لاَ زِلْـتَ مَقْصُـودَ الجِمَـى بِقَصَـائِدٍ ... أَصْـبَحْتَ عِصْـمَةَ أَمْرِهـا وَبِمَالِهـا[5]

لَـوْلاكَ لَـمْ يَخْطُـرْ بِبَـالِي نَظْمُهـا ... لا وَالَّـذِي يَلْقَـاكَ أَنْعَـمَ بَالَهـا

سَـأَلَتْ رِوَايَـاتِ النَّـدَى فَتَـأَخَّرَتْ ... عَنْهـا الـوَرَى وَأَجَـزْتَ أَنْـتَ سُـؤَالَهَا

نلاحظ أن ابن نباتة لم يحفظ ماء وجهه، وكان في وسعه استعمال لغة الشعر الموحية التي برع في استعمالها، ولكن هذه حال معظم الشعراء في هذا اللون من المديح، لم يحسنوا استعمال أدواتهم الفنية في التعبير عن حاجاتهم، فحشدوا الصفات واحدة تلو

---

(١) ابن نباته المصري أمير شعراء المشرق: د.عمر موسى باشا: ٣٦.

(٢) السابق: ١٥٥، وانظر في مدح التكسب وطلب العطاء مسالك الأبصار في ممالك الأمصار: شهاب الدين أحمد بن فضل الله العمري ١٦/٣٨١ – ٣٨٢، والضوء اللامع لأهل القرن التاسع: شمس الدين السخاوي ١/٣١، ٣٨، ٣٦٨.

(٣) أراد (اللهاة) مجازًا عن النطق والسؤال.

(٤) نطال: جمع ناطل، ونطل الدهر عصرها.

(٥) ثمال القوم: غياثهم الذي يقوم بأمرهم.

أخرى دون ترابط، أما السراج الورّاق فكان أبرع من ابن نباتة حينما مزج طلب العطاء بلطيف المعاني وخفة الظل في قوله[1]:

كَمْ قَطَّعَ الجودُ مِن لِسَانٍ ... قُلْ دَ مِنْ نَظْمِهِ النُّحورَا

فَهَا أَنَا شَاعِرٌ سِرَاجٌ ... فَاقْطَعْ لِمَتَابِي أُزِيْكَ نُورَا

ومن طريف ما قاله شعراء التكسب في هذا العصر قول علاء الدين بن مليك الحمويّ[2]:

مَذَحْتُكُم طَمَعًا فِيمَا أُؤَمِّلُهُ ... فَلَمْ أَنَلْ غَيْرَ حَمْلِ الإِثْمِ والنَّصَبِ

إِنْ لَمْ تَكُنْ صِلَةٌ مِنْكُمْ لِذِي أَدَبٍ ... فَأُجْرَةُ الخَطِّ أَوْ كَفَّارَةُ الكَذِبِ

وكذلك قوله[3]:

لاَ تَعْجَبُوا مِنْ صَدِيقٍ كُنْتُ أَمْدَحُهُ ... وَقَدْ هَجَانِي وَمَا فِيَّ ذَاكَ مِنْ عَجَبِ

بَلِ اعْجَبُوا مِنْ ذَكَاءٍ فِيهِ كَيْفَ دَرَى ... أَنِّي كَذَبْتُ فَجَازَانِي عَلَى الكَذِبِ

ومن بديع معاني التعفف عن طلب العطاء من الممدوح قول صفيّ الدين الحِلّيّ[4]:

وَلَقَدْ أَمِيْلُ عَلَى الضَّلاَلِ وَلَمْ أَقُلْ: ... أَيْنَ الطَّرِيْقُ، وَإِن كَرِهْتُ ضَلاَلِي

وَأُعَافُ سُؤَالَ الدَّلِيْلِ تَرَفُّعًا ... عَن أَنْ يَفُوهَ فَمِي بِلَفْظِ سُؤَالِ

أما اتجاه المدح الثالث فهو المدائح النبوية، ومعظمها يعود إلى الروح الديني الذي كان مسيطرًا على المجتمع إذ ذاك، إثر تكالب الطامعين والغزاة وهو ما دفع الناس إلى الالتصاق بالدين، والاستشفاع برسول الله ﷺ لتفريج الكرب، يضاف إلى هذا اهتمام

---

(١) ريحانة الألبا ١/٤٣٠، والشاعر هو سراج الدين عمر بن محمد بن حسن ولد بمصر سنة ٦١٥ هجرية، وقد اشتهر بالظرف والفكاهة، توفي سنة ٦٩٥هجرية، راجع ترجمته في: النجوم الزاهرة ٨/٦٩.

(٢) سبقت ترجمته.

(٣) ريحانة الألبا ١/١٩٠.

(٤) الديوان: ٤٧.

المماليك بالدين الإسلامي والاحتفالات الدينية، وتوديع الحجيج واستقبالهم، وما يثيره رحيل الحجاج من حنين ووجد في نفوس المشتاقين، وما سُمِع عن أثر قصائد المديح النبوي في شفاء المرضى، بعد أن أصبح المديح النبوي فنًّا أصيلًا من فنون الشعر، وبدأ يطغى على فنون الشعر الأخرى، حتى إنّنا نجد دواوين كاملة في هذا العصر قيلت في هذا الغرض.

منها على سبيل المثال لا الحصر: (أهنا المنائح في أسنى المدائح) لشهاب الدين محمود الحلبي، و(بشرى اللبيب بذكرى الحبيب) لابن سيد الناس اليعمري، و(نظم الدرر في مدح سيد البشر) لأبي عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر العطار، و(القصائد الوثرية في مدح خير البرية) لأبي عبد الله محمد بن أبي بكر بن رشيد الواعظ البغدادي، وديوان الإمام يحيى بن يوسف الصرصري الذي قال عنه قطب الدين اليونيني: "إنّ مدائحه فيه ﷺ تقارب عشرين مجلدًا"(١).

وهكذا ازدهر شعر المديح النبوي في هذه الحقبة، وكثر الإقبال عليه، وعمّ تعاطيه من أرباب القريض، وراجت سوقه رواجًا مشهودًا، بعد أن تضافرت له الدواعي والأسباب، ووجدت له الأجواء المشجعة للقبول والاستحسان.

ولعلّ أشهر قصيدة قيلت في المديح النبوي في هذا العصر قصيدة (البردة) أو (الكواكب الدرية في مدح خير البرية) للبوصيري، وهي من أكثر قصائده ذيوعًا وانتشارًا، لما امتازت به من قوة الأسلوب، وحسن الصياغة، وجودة المعاني، وجمال التشبيهات، وروعة التصوير، وهي تقع في اثنين وستين ومئة بيت، وقد ظلت تستهوي قلوب المسلمين، ويستلهمها الشعراء بمعارضتها لجماليتها اللغوية والإيقاعية وما تحمله من صور وأخيلة تداعب نفوس الناس وتشدهم إلى حبّ نبيهم ﷺ، ومطلعها(٢):

---

(١) ذيل مرآة الزمان ١/٢٥٧.

(٢) الديوان: ٢٣٩.

أمِـنْ تَـذَكُّرِ جيـرانٍ بـذي سَـلَمٍ مزجْـتَ دمعًـا جَـرَى مِـنْ مُقْلَـةٍ بِـدَمِ

أم هبَّـتِ الـريحُ مِـنْ تِلقـاءِ كاظمـةٍ وَأَومضَ البرقُ في الظَّلْماءِ مِنْ إضَمِ؟

وبعد ذكر شوقه إلى الديار المقدّسة اتجه نحو التحذير من هوى النفس:

والـنفسُ كالطفلِ إنْ تهملْـه شـبَّ عَلـى حُـبِّ الرَّضَـاعِ وإنْ تَفْطِمْـهُ تَـنْفطِمِ

فاصْـرِفْ هواهـا وحـاذِرْ أن تُوَلِّيَـهُ إنّ الهـوى مـا تُـوَلِّى يُصْـمِ أو يَصِـمِ

ثم وصل إلى مدح رسول الله ﷺ:

محمـدٌ سـيّدُ الكـونينِ والثقلي ـنِ والفـريقينِ مِـنْ عُـرْبٍ ومِـنْ عَجَـمِ

وقد مدحه بحسن العبادة والزهد في الدنيا، والتفاني في الدعوة إلى الله وسعة الفضل، ثم تحدث عن مولده، وعن معجزاته، وعن غزواته، ووصل أخيرًا إلى حاجته وطلب الشفاعة، وتُعَدّ هذه القصيدة من الناحية الفنيّة مذهلًا مهمًّا في تاريخ فنّ المديح النبوي، فقد استطاع البوصيري أن يوظّف كل معاني المديح والنسيب التقليدية المتداولة في الشعر العربي ويطوّرها بما يناسب مقام النبوّة، وهي المضامين نفسها التي سنجد أنّ شعر المديح النبوي لهذا العصر يقوم عليها، وأهمّ هذه المضامين هو الحديث عن تقدّم نبوة محمد ﷺ وأفضليته على سائر النبيين، وإعلام الأنبياء بنبوته وبشائرهم بكريم بعثته، ويشير البوصيري إلى ذلك بقوله في همزيته[1]:

كيـف تَرقـى رقيُّـكَ الأنبيـاءُ يـا سـماءً مـا طاولتهـا سـماءُ؟

لـم يُسـاووك فـي عُـلاك وقـد حـا ل سَـنًا منـك دونهـمْ وسـناءُ

إنمـا مثَّلـوا صـفاتك للنـا ـسِ كمـا مثَّـلَ النجـومَ المـاءُ

أنـتَ مصـباحُ كـلِّ فضـلٍ فمـا تُصْـ ـدَرُ إلا عـن ضَـوْئِكَ الأضْـواءُ

---

(١) الديوان: ٤٩ وما بعدها.

ما مضَتْ فترةٌ من الرُّسْلِ إلا بشَّرتْ قومَها بك الأنبياءُ

تتباهى بكَ العصورُ وتسمو بكَ عليا بعدَها عليَاءُ

وأكثر الشعراء من الإشارة إلى طهارة نسبه ﷺ، وشريف أصله، وبركة حمله، يقول البوصيري في همزيته:

لم تَزَلْ في ضمائرِ الكونِ تُخْتا رُ لكَ الأمهاتُ والآباءُ

كما أطنب الشعراء في الإشارة إلى مواد النبي ﷺ وبما حلَّ في الكون من فرح وسرور وانتشاء، فالكون كان مجدبًا قبل أن يأتي ربيع مولده، وكان مظلمًا قبل أن تسطع فيه أنوار ذاته الكريمة، أما أضواء المجوس ونيرانهم فقد أخمدها نور مولده، يقول البوصيري:

ليلةُ المولدِ الذي كان للدِّ ينِ سرورٌ بيومِهِ وازدهاءُ

وتوالَتْ بُشرى الهواتفِ أنْ قدْ وُلِدَ المصطفى وحُقَّ الهناءُ

وتداعَى إيوانُ كِسْرى ولولا آيةٌ منكَ ما تداعى البناءُ

وفازت صفات الرسول ﷺ وشمائله الراقية بالثناء العاطر من الشعراء، ولا نكاد نقع على قصيدة في المديح النبوي حتى تطالعنا النعوت النبيلة والشمائل الطيبة، يقول البوصيري:

سيِّدٌ ضيغمُهُ الضيغمُ والمشـ ـي الهوينى ونومُهُ الإغفاءُ

رحمةٌ كلُّه وحَزْمٌ وعزْمٌ ووقارٌ وعصمةٌ وحَياءُ

لا تحُلُّ البأساءُ منه عُرا الصبـ ـرِ ولا تستخفُّه السَّرَّاءُ

كَرُمَتْ نفسُه فما يَخطُرُ السو ءُ على قلبِهِ ولا الفحشاءُ

جهِلَتْ قومُه عليه فأغضى وأخو الحِلْمِ دأبُهُ الإغضاءُ

وسِعَ العالمين علمًا وحلمًا فهْوَ بحرٌ لم تُغْيِهِ الأعباءُ

وقد وجد شعراء المديح النبوي أنفسهم أمام بحر من الفضائل والمكرمات، فاغترفوا منه ما شاؤوا، ولم يستطيعوا حصر فضائله، ولم يجدوا لمكرماته نفادًا، فوقفوا معترفين بعجزهم عن حصر فضائله أو إدراك جوهرها، يقول البوصيري:

إنْ مِنْ معجزاتِكَ العجزَ عن وصْـ ـفِكَ إذْ لا يحُدّه الإحصاءُ

أما جمالُ خَلْقِهِ فهو أكمل صور الجمال، وقد تحدّث عنه كثيرٌ من الشعراء في نبوياتهم، بأسلوب شائق جذّاب، منهم البوصيري بمثل قوله:

ليتَه خصّني برؤيةِ وجْهٍ زالَ عنْ كلِّ مَنْ رآه الشّقاءُ

أو بتقبيلِ راحةٍ كانَ للـ ـهِ ويأباه أخذُها والعطاءُ

أو بلثْمِ التّرابِ مِنْ قدمٍ لا حتْ حياةٌ من مشيها الصّفواءُ

فهْيَ قُطْبُ المحرابِ والحربِ كم دا رتْ عليها في طاعةٍ أرْحاءُ

كما كان حديث المعجزات جزءًا رئيسًا من مادة المديح النبوي في كثير من القصائد، وقد استغل الشعراء معظم المعجزات التي رُويت في الصّحاح أو كتب السيرة أو الموالد، فجعلوا منها مادة خصبة لشعرهم، يشير البوصيري إلى بعض هذه المعجزات، في معرض حديثه عن مضايقة قريش له:

ويْحَ قومٍ جَفَوا نبيًا بأرضٍ ألِفتْهُ ضباؤها والظباءُ

وسأوْهُ وحنّ جذعٌ إليهِ وقلوهُ ووِدّهُ الغرباءُ

ففي هذين البيتين يقف الشاعر عند بعض الحوادث التي وقعت للنبي ﷺ على سبيل المعجزة، فيُلِفُّها بشعور العطف والتأثر، ويقدم لنا صورة شعرية مؤثرة لوقائع من السيرة يحتاجُ بيانُها إلى صفحات عدة.

ومع هذا التفصيل والإسهاب الذي نجده في شعر المديح النبوي لصفات الرسول وشخصيته لا نعثر على ذكر وفاته ﷺ، وكأن الشعراء كانوا يرون أن حياته موصولة

مستمرّة، لم يأت عليها موت ولم يصرمها انتقاله إلى الدار الآخرة، فهم يقفون أمام قبره، يخاطبونه مخاطبة الحي الحاضر أمامهم، يسمع خطابهم، وينصت لهمومهم وشكاواهم وأدعيتهم وتشفعهم به، هذه عائشة الباعونية تقف أمام قبره وتخاطبه قائلة:

يـــا أكـــرمَ الشـــفعاءِ جاريـــةٌ لهـــا ... قلـــبٌ يقلّـــبُ فـــي لظـــى بُرَحائِـــهِ

ولـــهُ رجـــاءٌ فـــي جميلـــك يـــا هُـــدى ... أملـــي فَجُـــدْ كرمًـــا لـــه برجائِـــهِ

وأْذنْ لـــه الإمـــدادَ يـــا خيـــر الـــورى ... أبـــــدًا ودارِكْ داعَهُ بدوائِـــــهِ

واشـــفعْ إلـــى المـــولى بتبليـــغ المنـــى ... مـــن جـــودِهِ الـــوافي وجـــمّ عطائِـــهِ

وقد ارتاح شعراء المديح النبوي إلى التوسل بالنبي ﷺ والاستجارة به، والتشفع بجاهه في أمورهم كلّها، إلى أن شغل التوسل برسول الله ﷺ وطلب شفاعته حيزًا مهمًا من المدحة النبوية، واحتفل له شعراء المديح النبوي، وكأنهم جعلوه الغاية من نبوياتهم، وما يريدونه لأنفسهم من المديح النبوي، ومن ذلك قول محمد بن محمد بن عبد الله المسوفي (ت ٨٨٥هـ) (١):

بجـــاهِ النبـــيّ المصـــطفى أتوسّـــلُ ... إلـــى اللهِ فيمـــا أبتغـــي وأؤمّـــلُ

فأقصـــدُ بـــاب الهاشـــميّ مُحمّـــدٍ ... وفـــي كـــل حاجـــاتي عليـــه أعَـــوّلُ

إذا مسّـــني ضـــيمٌ ألُـــوذ باســـمِهِ ... فيُـــدْفَعُ ذاكَ الضـــيمُ عنـــي ويُنْقَـــلُ

ويبدو أن القدسية التي أضفاها الشعراء على شعرهم النبوي قد جعلت من اتصال هذا الشعر بالشعر الصوفي أمرًا مستساغًا لدى الشعراء، فامتلأ بمصطلحات التصوف وأحواله وموضوعاته، وغدا الرسول محورًا من محاور التصوف في هذا العصر، فقد بلغ حب الرسول في نفوس الشعراء مبلغًا من السمو، جعلهم يعلنون فناءهم فيه، تقول عائشة الباعونية في الرسول وأصحابه:

---

(١) الضوء اللامع ١١٥/٩.

المـــوتُ فـــيهم حيـــاةٌ والفنـــاءُ بقـــا والـــذلُّ عـــزٌّ فيـــا طـــوبى لِصَـــبْرِهِمُ

أهـوى هـواهمْ وأهـوى مَـنْ يهـيمُ بهـمْ وأعشـــقُ العاشـــقَ المُضْـــنَى بحـــبِّهِمُ

وهكذا نجد أنّ فنّ المديح النبوي اتّسع ورسخ في العصر المملوكي، واتّضحت معالمه، وأضحت له تقاليده وأصوله، ولا نكاد نجد شاعرًا لم تكن له مشاركة في هذا الفن الشعري، فكان سميرهم في مجالس العلم وحلقات الذكر، ووسيلة للتعبير عن آلامهم وآمالهم، وعن عاطفتهم الدينية الصادقة، وعاطفة كل مؤمن إزاء الواسطة العظمى في كلّ خير ونجح وفلاح أصاب الأمة العربية والإسلامية بل الإنسانية جمعاء من رسالته التي كانت رحمة للعالمين.

٢- الفخر والحماسة:

تتابع تدفق شعر الفخر والحماسة في العصور بقوة وغزارة، لارتباط بواعثه بالحروب والمعارك، وبالعصبية القبلية والمنافرات الشخصية، واعتمد اهتمام شعراء العصور السابقة بهذا اللون الشعري على مدى قربهم من القادة والحكام، ومن ساحات المعارك أحيانا، ومنذ أن بدأت الحملات الصليبية تستولي على البلاد العربية وتعيث فيها فسادًا، بدأ التحول في باعث شعر الفخر والحماسة، فأصبح جماعيًا لا يلتفت إلى المفاخر الشخصية، وقوميًا لا مكان للعصبية القبلية فيه، ودينيًا محضًا يلهب مشاعر الجنود ويحضهم على الانتصار للأمة، ويصف المعارك ويفاخر بالانتصارات.

وقد كان على المماليك منذ بداية عصرهم أن يتصدوا للزحف الهمجي المغولي الذي خرّب بغداد، وفتك بالبلاد الشامية، وبدأ الاستعداد للزحف على دولتهم، فضلاً عن مواجهة الحملات الفرنجية المتتابعة ووقف مدّها، وتحرير ما في أيدي الفرنجة من مدن الشام، وتدمير قلاعهم وحصونهم.

كانت معركة عين جالوت سنة (٦٥٨ هـ) أولى المعارك الحاسمة في العصر المملوكي، وقد وضعت حدًا للمغول في المشرق الإسلامي وسطّرت الفصل الختامي لوجودهم، كما كانت بداية تألق أسماء السلاطين والقادة المماليك في سماء المجد والبطولة، وشرع الشعراء يتغنون بانتصاراتهم، وانتصار الأمة، نذكر من ذلك قول شهاب الدين محمود الحلبي مفتخرًا بانتصار السلطان سيف الدين قطز على التتار في هذه المعركة[١]:

كَذَا فَلْتَكُنْ فِي اللهِ تُمْضَى الْعَزَائِمُ ... وَإِلاَّ فَلا تَجْفُو الجُفُونَ الصَّوَارِمُ

غَزَائِمُ خَانَتْهَا الرِّيَاحُ فَأَصْبَحَتْ ... مُخَلَّفَةً تَبْكِي عَلَيْهَا الغَمَائِمُ

---

(١) النجوم الزاهرة ٧/١٥٧-١٥٣.

سَرَتْ مِن حِمَى مِصْرٍ إلى الروم فاحتَوَتْ ... عَلَيْــه ومِنْــوزاه الظُّبَــا واللهــاذِمُ

بِجَــيْشٍ تَظَــلُّ الأَرْضُ مِنْــه كَأَنَّهــا ... عَلَى سِعَةِ الأَرْجَاءِ فِي الضِّيْقِ خَاتِمُ

كَتَائِــبُ كَــالبَحْرِ الخِضَــمِّ جِيَادُهــا ... إِذَا مَــا تَهــادَتْ مَوْجُــه المُتَلاطِمُ

تُجــيْلُ بِمَنْصُــورِ اللِّــوَاءِ مُظَفَّــرٍ ... لَــه النَّصْــرُ والتَّايِيــدُ عَبْــدٌ وخَــادِمُ

مَلِيْــكٌ بَلُــوذُ الــدِّيْنُ مِــنْ عَزَمَاتِــه ... بِــرُكْنٍ لَــه الفَــتْحُ المُبِيْنُ دَعَــائِمُ

مَلِيْــكٌ لأَبْكَــارِ الأَمَــالِيْمِ نَحْــوَه ... حَبِيْنٌ كَــذَا تَهْــوَى الكِــرَامَ الكَــرَائِمُ

فَكَــمْ وَطِئَــتْ طَوْعًــا وكُرْهًــا جِيَــادُه ... مَعَاقِــلَ قُرْطَاهــا السُّــهَا والنَّعَــائِمُ

مَلِيْــكٌ بِــه لِلــدِّيْنِ فِــي كُــلِّ سَــاعَةٍ ... بَشَــائِرُ لِلكُفَّــارِ مِنْهــا مَــآتِمُ

وَمَنَــالَتْ عَلَــيْهِمْ أَرْضُــهمْ بِمَوَاكِــبٍ ... لَهــا النَّصْــرُ طَــوْعٌ والزَّمَــانُ مُسَــالِمُ

أَدَارَتْ بِهِــمْ سُــوْرًا مَنِيْعًــا مُشَــرَّفًا ... بِمُــمْرِ العَــوَالِي مَــا لَــه الدهرَ هَــادِمُ

مِــنَ التُّــرْكِ أُمًّــا فِــي المَغَــانِي فَــإِنَّهم ... شُــمُوسٌ وأُسْــدٌ فِــي الــوَغَى فَضَــرَاغِمُ

هُــذا ظَــاهِرًا بِالظَّــاهِرِ النَّصْــرُ فِــيْهِمُ ... تَبِيْــدُ اللَّيَــالِي والعِــدَا وَهْــوَ دَائِــمُ

فَــأَهْوَوْا إِلَــى لَــثْمِ الأَسِــنَّةِ فِــي الــوَغَى ... كَــأَنَّهمُ العُشَّــاقُ وهــيَ المَبَاسِــمُ

وَصَــافَحَتِ البِــيْضُ الصِّــقَاعَ رِقَــابُهمْ ... وعَانَقَــتِ السُّــمْرُ القُــدُودَ النَّــوَاعِمُ

فَكَــمْ حَــاكِمٍ مِــنْهم عَلَــى أَلْــفِ دَارِعٍ ... هُــدًا حَاسِــرًا والسُّمْحُ فِيْــه يُحَــاكِمُ

وكَــمْ مَلِــكٍ مِــنهم رَأَى وَهْــوَ مُوْثَــقٌ ... خَــزَائِنَ مَــا يَحْوِيْــه وَهْــيَ غَنَــائِمُ

فَــلا زِلْــتَ مَنْصُــورَ اللِّــوَاءِ مُؤَيَّــدًا ... عَلَــى الكُفْرِ مَا نَاحَتْ وأَبْكَتْ حَمَــائِمُ

يفخر الأديب شهاب الدين محمود في الأبيات السابقة بقوة جيش المسلمين، وقوة عريكة السلطان القائد، فيصف المعركة ويطلعنا على نتائجها مبينًا مصير المعتدين، فهم

بين قتيل وأسير.

وقد تتبع السلطان الظاهر بيبرس فلول المغول والفرنجة، وكان جبارًا في الأسفار والحصارات والحروب، وخافه الأعادي من التتار والفرنج وغيرهم، لأنه روّعهم بالغارات والغزوات، وخاض الفرات بنفسه فألقت العساكر بأنفسها خلفه، ووقع على التتار، فقتل منهم مقتلة عظيمة وأسر مئتي نفس، وفي ذلك قال محيي الدين بن عبد الظاهر [1]:

تَجَمَّعَ جَيْشُ التَّتْرِ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ ... وظَنُّوا بِأَنَّا لا نُطِيْقُ لَهُم غَلْبَا

وجَاؤُوا إلى شَاطِي الفُرَاتِ ومَا دَرَوا ... بِأَنَّ جِيَادَ الخَيْلِ تَقْطَعُهَا وَثْبَا

وجَاءَتْ جُنُودُ اللهِ فِي العُدَدِ التِي ... تُمَيِّزُ لَهَا الأَبْطَالُ يَوْمَ الوَغَى عجْبَا

فَعُمْنَا بِسَدٍّ مِنْ حَدِيْدٍ سِبَاحَةً ... إِلَيْهِم، فَمَا اسْطَاعَ العَدُوُّ لَهُ نَقْبَا

اتسمت معارك المماليك ضد المغول والفرنجة بالميسم الديني، فبينما كانت جيوش المغول جيوشًا همجية تستهدف البلاد والعباد، وتدمر الحضارة العربية الإسلامية عامة، كان الفرنجة الأوروبيون يستهدفون الإسلام والمسلمين، وقد وحدوا جيوشهم ليعلنوها حربًا دينية خالصة، لذلك التف المسلمون – مماليكَ وعربًا –للدفاع عن دينهم ووطنهم، وانبرى الشعراء يفتخرون بالمعارك الفاصلة، ويصورون قوة الجيش الإسلامي، ويمجدون مشاهد البطولة، ومما قيل –أيضًا– في انتصارات الظاهر بيبرس على المغول والفرنجة قصيدة

---

(١) فوات الوفيات ٢٣/١، والشاعر أبو محمد، محيي الدين، عبد الله بن رشيد الدين عبد الظاهر، وهو من الكتاب المعدودين في العصر المملوكي، تقلب في المناصب الديوانية، وتولى رئاسة ديوان الإنشاء بمصر في عهد السلطان قلاوون، وكان أول مَن تولى أمانة سر السلطان في العصر المملوكي، وتوفي في القاهرة سنة ٦٩٢هـ. راجع: نهاية الأرب في فنون الأدب ١٠١/٨ – ١٠٢. وقوله: "فما اسطاع العدو له نقبا" اقتباس من قول الله تعالى: "فما اسطاعوا أن يظهروه وما استطاعوا له نقبا" سورة الكهف، الآية ٩٧.

بدر الدين يوسف بن المهمندار [1] التي جاء فيها[2]:

لَـوْ عَايَنَـتْ عَيْنَـاكَ يَـوْمَ نِزَالِنَـا ... والخَيْـلُ تَطْفَـحُ فِـي العَجَـاجِ الأَكْـدَرِ

وَقَـد اطْلَخَـمَّ الأَمْـرُ واحْتَـدَمَ الـوَغَى ... وَوَهَـى الجَبَـانُ وَمَـاءَ ظَـنُّ المُجْتَـرِي

لرأيـتَ سـدًّا مِـنْ حَدِيْـدٍ مَـا يُـرَى ... فَـوْقَ الفُـرَاتِ، وفَوْقَـه نَـارٌ تَـرِي[3]

طَفَـرَتْ وقَـدْ مَلَـعَ الفَـوَارِسُ سَـدَّها ... تُجْـرِي ولَـوْلاَ خَيْلُنَـا لَـمْ تَطْفِـرِ

ورَأَيْـتَ سَـيْلَ الخَيْـلِ قَـدْ بَلَـغَ الرُّبَـى ... ومِـنَ القَـوَارِسِ أَبْحُـرًا فِـي أَبْحُـرِ

لَمَّـا سَـبَقْنَا أَسْـهُمًا طَاشَـتْ لَنَـا ... مِـنْهُمْ أَتَيْنَـا بِـالخُيُولِ الضُّـمَّرِ

لَـمْ يَفْتَحُـوا للرَّمْـيِ مِـنْهُمْ أَعْيُنًـا ... حَتَّـى تُحِلَّـنَ بِكُـلِّ لَـدْنٍ أَسْـمَرِ

فَتَسَـابَقُوا هَرَبًـا ولَكِـنْ رَدَّهُـمْ ... دُونَ الهَزِيْمَـةِ رُمْـحُ كُـلِّ مُعَضَـلَفِرِ

مَـا كَـانَ أَجْـرَى خَيْلَنَـا فِـي إِثْـرِهِمْ ... لَـوْ أَنَّهَـا بِرُؤُوسِـهِمْ لَـمْ تَعْثُـرِ

كَـمْ قَـدْ قَلَقْنَـا صَـخْرَةً مِـنْ صَـخْرَةٍ ... وَلَكَـمْ مَلأْنَـا مَحْجَـرًا مِـنْ مَحْجَـرِ

وَجَـرَتْ بِمَـاؤُهُمُ علـى وَجْـهِ الثَّـرَى ... حَتَّـى جَـرَتْ مِنْهَـا مَجَـارِي الأَنْهُـرِ

ذَهَـبَ الغُبَـارُ مَـعَ النَّجِيْـعِ بِصَـقْلِه ... فَكَأَنَّـه فِـي غِمْـدِه لَـمْ يُشْـهَرِ

وصف الشاعر في هذا النص المعركة، وما استُعمِلَ فيها من آلات القتال كالسيوف والرماح والسهام، ثم بيّن كثرة خيل المسلمين وسرعتها في عبور نهر الفرات، وتوقف عند تدفقها في النهر متعجبًا من منظرها الذي يخاله الناظر من بعيد سدًا من حديد تغلي فوقه

---

(١) هو يوسف بن سيف الدولة بن رماح الحمداني المهمندار، توفي على رأس القرن الثامن الهجري، انظر ترجمته في: فوات الوفيات ٤/٣٤٩ - ٣٥١.

(٢) فوات الوفيات ٤/٣٥٠-٣٥١.

(٣) تُرى: بضم الياء من الرؤية، وتَرِي: بفتح التاء تتقد، وقد سعى الشاعر للإفادة من موسيقا الجناس التي تناسب جو المعركة.

النيران، وقد برع في الربط بين الشكل الخارجي الذي يتمثل في بريق السلاح على ظهر الخيول، وحال الفرسان النفسية، فهم يتوقون إلى تأديب الغزاة، وتقدح عيونهم وتشتعل أرواحهم بنيران الثأر.

وقد دللت قوة أساليب هذا النص وبراعة صوره على تمكن الشاعر من أدواته الفنية، وحُسن اختياره للألفاظ المشبعة بالحالة النفسية ككلمة (اطلخم) التي نسمع من صوتها المنطوق جلبة المعركة، وكذلك (عجاج)، و(احتدم الوغى).. وغيرها من الكلمات والعبارات التي توحي بقوة إحساس الشاعر بجو المعركة، وتعكس واقعه النفسي مبتهجًا بتأديب طغاة المغول والفرنجة الذين خرّبوا معظم بلاد المشرق الإسلامي.

وتابع الشعراء تحرير المدن والقلاع والحصون من الفرنجة، وأداروا معاني الفخر والحماسة حول نصرة الله عزّ وجلّ للمسلمين، ثم افتخروا بقوة الجيش، ووصفوا المعارك، وامتدحوا السلاطين والقادة، وقد تركوا عددًا كبيرًا من القصائد الطنانة التي خلدت انتصارات المماليك على الفرنجة[1]، ومن ذلك قول شهاب الدين محمود مفتخرًا بانتصار الملك الأشرف خليل عليهم سنة (٦٩٠هـ)، وتحرير مدينة عكا من أيديهم بعد أن حاز شرف طرد آخر جنود الفرنجة من بلاد الشام[2]:

اللهُ أكْبَـرُ زَالَـتْ دَوْلَـةُ الصُّـلْبِ	وعَـزَّ بـالتُّرْكِ دِيْـنُ المُصْطَفَى العَرَبِـي
هـذَا الـذِي كَانَـتِ الآمَـالُ لَـوْ طَلَبَـتْ	رُؤْيَـاه فِـي النَّوْمِ لاسْتَحْيَتْ مِنَ الطَّلَبِ
مَـا بَعْـدَ عَكَّـا وقَـدْ هُـدَّتْ قَوَاعِـدُهَا	فِـي البَحْـرِ للشِّرْكِ عِنْـدَ البَـرِّ مِـنْ أَرَبِ
لَـمْ يَبْـقَ مِـنْ بَعْـدِهَا لِلكُفْـرِ إِذْ خَرِبَـتْ	فِـي البَحْـرِ والبَـرِّ مَا يُنْجِي سِوَى الهَرَبِ

---

(١) انظر مثلًا: الفخر بفتح حصن المرقب سنة ٦٨٤ هـ، النجوم الزاهرة ٢٦٩/٧ – ٢٧١، وما قيل في فتح قلعة الروم سنة ٦٩١هـ، البداية والنهاية ٣٢٩/١٣.

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية ٣٢٣/١٣.

أُمّ الحُـرُوبِ فَكَـمْ قَـدْ أَنْبَـتَتْ بِـطَلَا ... شَـابَ الوَلِيْـدُ بِهـا هـوْلًا ولَـمْ تَشِـبِ

يَـا يَـوْمَ عَكَّـا لَقَـدْ أَنْسَـيْتَ مَـا سَـبَقَتْ ... بِـهِ الفُتُـوحُ ومَـا قَـدْ خُـطَّ فِـي الكُتُـبِ

لَـمْ يَبْلُـغِ النُّطْـقُ حَـدَّ الشُكْرِ فِيْـكَ فَمَـا ... عَسَـى يَقُـوْمُ بِـهِ ذُو الشِّـعْرِ والأَدَبِ

وأَشْرَفَ المُصْطَفَى الهـادِي البَشِيْرُ علـى ... مَـا أَسْلَفَ الأَشْرَفُ السُلْطَانُ مِنْ قُرَبِ

فَقَـرَّ عَيْنًـا لِهَـذَا الفَـتْحِ وابْتَهَجَـتْ ... بِبِشْـرِهِ الكَعْبَـةُ الغَـرَّاءُ فِـي الحُجُـبِ

لقد ابتهج المسلمون كثيرًا بفتح بعض حصون الفرنجة المنيعة، وعبَّر الشعراء عن هذه البهجة مُباهين بجيش المسلمين من العرب والمماليك، وقد وازن بعضهم بين فرحة المسلمين بفتح الخليفة العباسي المعتصم بالله لعمورية، وفتح سلاطين المماليك للمدن والبلاد الشامية التي احتلها الفرنجة وتحصنوا فيها قبل وصول المماليك إلى الحكم، ومن ذلك ما نراه في قول شمس الدين الصائغ[1] في فتح مدينتي صور وعكّا[2]:

قَلْقَلْـتَ أَرْضَ الشَّـامِ عِنْـدَ دُخُوْلِهـا ... رَكْضًـا بِجَـيْشٍ كَالسَّـحَابِ عَرَمْـرَمِ

قَـدْ كَـانَ وَجْـهُ الشَّـمْسِ غَيْـرَ مُبَرْقَـعٍ ... لَـوْلَاهُمُ والبَـدْرُ غَيْـرَ مُلَـثَّمِ

فَأَرَيْـتَ عَكَّـا مَـا بِعَمُوْرِيَّـةٍ ... رَأَتِ الفَـوَارِسُ فِـي الزَّمَـانِ الأَقْـدَمِ

فَـتْحٌ مُحَيِّـا الـدَّهْرِ مَوْسُـوْمٌ بِـهِ ... وَزَمَانُـهُ فِـي دَوْرَةٍ كَالمَوْسِـمِ

مَـا الـرَّأْيُ إِلَّا عِنْـدَ قَلْـبٍ ثَابِـتٍ ... والسَّـيْفُ إِلَّا فِـي يَمِـيْنٍ مُصَمِّمِ

قَـدْ حُـزْتَ صُـوْرًا فِـيْ تَقَضِّـي فَتْحِهـا ... فَبِشُـكْرِكَ الإِسْـلَامُ رَطْـبُ المَبْسَـمِ

مَـا كَـانَ بَيْنَهُمَـا سِـوَى يَـوْمٍ فَـدًا ... سَـعْدٌ إِلَيْـهِ كُـلُّ سَـعْدٍ يَنْتَمِـي

---

(١) هو محمد بن الحسن بن سباع، شمس الدين الصائغ العروضي، المتوفى سنة ٨٧٢٢هـ، انظر ترجمته في: فوات الوفيات ٣/٣٢٦ – ٣٣٠.

(٢) مسالك الأبصار في ممالك الأمصار ١٦/٣٠٧-٣٠٨.

والجَمْـــعُ للأُخْتَـــيْنِ غَيْـــرُ مُحَلَّـــلٍ لَكِـــنْ بِهـــذَا الحَـــال غَيْـــرُ مُحَـــرَّمِ

وإذا كان شعر الفخر والحماسة الجماعي الديني قد استمد حياته وقوّته في هذا العصر من الحروب والمعارك التي انتصر فيها جيش المسلمين على المغول والفرنجة، فإن الفخر القبلي والشخصي قد انتعشا بعد القضاء على الخطر المغولي وتطهير البلاد الشامية من احتلال الفرنجة، ومن شعر الفخر والحماسة المبني على روح العصبية القبلية، والذي يُشبه شِبْهًا كبيرًا شعر الفخر والحماسة الجاهلي شعر صفي الدين الحلّي، فقد حضّ قومه على طلب ثأر خاله، وأثار حماستهم وحميّتهم للانتقام من قتلته، وكذلك الذي قاله في الفخر بقبيلته وأهله بعد أخذ ثأرهم سنة (٧٠١هـ)، كما في قصيدته[1]:

سَـلِي الرِّمَـاحَ العَـوَالِي عَـنْ مَعَالِينَـا وَاسْتَشْهِدِي البِيْضَ هَلْ خَابَ الرَّجَا فِينَا

قَـوْمٌ إِذَا اسْتُخْصِـمُوا كَـانُوا فَرَاعِنَـةً يَوْمًـا، وَإِنْ حُكِّمُـوا كَـانُوا مَوَازِينَـا

تَـدَرَّعُوا العَقْـلَ جِلْبَابًـا، فَـإِنْ حَمِيَـتْ نَـارُ الـوَغَى خِلْـتَهُمْ فِيهَـا مَجَانِينَـا

إِذَا ادَّعَـوا جَـاءَتِ الـدُّنْيَا مُصَـدِّقَةً وَإِنْ دَعَـوا قَالَـتِ الأَيَّـامُ: آمِينَـا

إِنَّ الزَّرَازِيـرَ لَمَّـا قَـامَ قَائِمُهَـا تَوَهَّمَـتْ أَنَّهَـا صَـارَتْ شَـوَاهِينَا[2]

ظَنَّـتْ تَـأَنِّي البُـزَاةِ الشُّـهْبِ عَـنْ جَـزَعٍ، وَمَـا دَرَتْ أَنَّـهُ قَـدْ كَـانَ تَهْوِينَـا

إِنَّـا لَقَـوْمٌ أَبَـتْ أَخْلَاقُنَـا شَـرَفًا أَنْ نَبْتَـدِي بِـالأَذَى مَـنْ لَـيْسَ يُؤْذِينَـا

بِـيْضٌ صَـنَائِعُنَا، سُـوْدٌ وَقَائِعُنَـا خُضْـرٌ مَرَابِعُنَـا، حُمْـرٌ مَوَاضِـينَا

لَا يَظْهَـرُ العَجْـزُ مِنَّـا دُونَ نَيْـلِ مُنًـى وَلَـوْ رَأَيْنَـا المَنَايَـا فِـي أَمَانِينَـا

---

(١) الديوان: ٢٠ – ٢٢.

(٢) الزرازير: مفردها زرزور، وهو طائر صغير الحجم، الشواهين: مفردها شاهين، وهو نوع من الصقور، وتتسم بطول الجناحين.

إذَا جَرَيْنَا إلَى سَبْقِ العُلَى طَلَقًا، إنْ لَمْ نَكُنْ سَبَقًا كُنَّا مُصَلِّينَا[1]

نُدَافِعُ القَدَرَ المَحْتُومَ هِمَّتُنَا، عَنَّا، وَنَخْصِمُ صَرْفَ الدَّهْرِ لَوْ شِئْنَا

نُغْشِي الخُطُوبَ بِأَيْدِينَا، فَنَدْفَعُهَا، وَإِنْ دَهَتْنَا دَفَعْنَاهَا بِأَيْدِينَا

مُلْكٌ، إذَا فُوِّقَتْ نَبْلُ العَدُوِّ لَنَا رَمَتْ عَزَائِمُهُ مَنْ بَاتَ يَرْمِينَا

عَزَائِمٌ كَالنُّجُومِ الشُّهْبِ ثَاقِبَةٌ مَا زَالَ يُخْرِقُ مِنهُنَّ الشَّيَاطِينَا

لا تكاد تختلف معاني فخر صفي الدين الحلّي عن معاني فخر شعراء الجاهلية، فهو يعدّد مناقب قومه من رجاحة عقل، وعدل، وصدق، وعلو منزلة..، ويقابلها بكل معاني الشجاعة والقوة التي يتصف بها قومه إذا استُثيروا.

أما الفخر الشخصي فتختلف الصفات والمعاني التي افتخر بها الشعراء باختلاف طرائقهم ودوافعهم، فمنهم مَنْ افتخر بالشجاعة والنخوة وعراقة الأصل والكرم، وهنالك مَنِ افتخر بقوة الإيمان والصبر على المحن والشدائد، أو العفة والقناعة، أو النبوغ وسعة العلم.. وشواهد ذلك كثيرة نذكر منها قول ابن الوردي مفتخرًا بالقناعة وعفة النفس[2] :

إنِّي امْرِؤٌ قُلْ بَيْنَ النَّاسِ أَشْبَاهِي إذْ لاَ أَزَالُ غَنِيَّ النَّفْسِ بِاللهِ

رَفَعْتُ كُلِّي عَنِ الأَصْحَابِ كُلِّهِمِ فَلاَ أُثَقِّلُ فِي مَالٍ وَلاَ جَاهِ

وقوله في الثقة بالله والصبر على النوائب[3]:

وَلَسْتُ أَخَافُ طَاغُوتًا كَغَيْرِي فَمَا هُوَ غَيْرُ إِحْدَى الحُسْنَيَيْنِ

فَإِنْ مِتُّ اسْتَرَحْتُ مِنَ الأَعَادِي وَإِنْ عِشْتُ اشْتَفَتْ أُذُنِي وَعَيْنِي

---

(١) المصلي: الذي يتلو السابق.

(٢) الديوان: ٣٩١.

(٣) الديوان: ٤١٥.

وكقول الشاب الظريف وقد دفعته حماسة الشباب[1]:

أَرومُ بِعزْمِي فوقَ مَا دُونَ نَيْلِهِ ... لِواءُ المَنايا خافقُ الظلِّ بَلْدَهُ

وَمَا شرفي إلا بنفسي وإنْ يكنْ ... لقومي فَخَارٌ طاوَلَ النجمَ مجدُهُ

ولا ذنبَ لي إلا الكمالُ على الصِّبا ... فمَنْ لي بعيبٍ أو بشيبٍ يردُّهُ

وكذلك فخر ابن الشحنة بسعة علمه وصواب فكره وعلو همّته ونبوغه في التدريس[2]:

أُضَارُ وَهَا مَنَاقِبِيَ الكِبَارُ ... وبي -والله- للدُّنيا افتخارُ

عَلَوْتُ بِسُؤْدُدٍ وعُلُومِ شَرْعٍ ... لَهَا فِي سَائِرِ الدُّنْيَا انْتِشَارُ

وفِكْرٍ صَائِبٍ فِي كُلِّ فَنٍّ ... إِلَى تَحْقِيقِهِ أَبَدًا يُصَارُ

سَمَوْتُ لِمَنْصِبِ الإِفْتَاءِ طِفْلًا ... وكَانَ لَهُ إِلَيَّ قُرْبِي ابْتِدَارُ

وكَمْ قَرَّرْتُ فِي (الكَشَّافِ) دَرْسًا ... عَظِيمًا قَبْلَ مَا دَارَ العِذَارُ

إلى غير ذلك من الشواهد التي تمثل مختلف الصفات والمعاني التي افتخر بها شعراء العصر المملوكي.

---

(١) الديوان: ١٢٦.

(٢) هو عبد البر بن محمد الحنفي، ولد في حلب عام ٨٥١هـ، وتولى القضاء فيها ثم في القاهرة، وأصبح من المقربين من السلطان الغوري، له العديد من المؤلفات، توفي عام ٩٣١ للهجرة، الكواكب السائرة في أعيان المئة العاشرة ٢٢٠/١.

٣- الغزل:

أكثر الشعراء في هذا العصر من الغزل، فجعلوه حينًا في مطالع قصائد المديح، وأفردوه حينًا آخر في قصائد مستقلة، وتنوعت عواطفهم فيه ما بين العتب والرضا، والشوق والشكوى والوجد واللوعة، وكان الشاعر يتغزل ليعبّر عن مشاعره، أو ليترسّم خطا السابقين، فهو حينًا يبدو مقلدًا ويجدّد حينًا آخر بعض التجديد أو كلّه.

وقد أعرض معظم الشعراء عن إيراد الأغراض التقليدية المعروفة في مطالع القصائد القديمة من وقوف على الأطلال، ووصف الظعائن والرحلة والراحلة، وإن وردت عند بعضهم، وأحلّوا بدلًا منها الغزل أو وصف الطبيعة الخلابة والحدائق النضرة، وكان بعضهم يستهل قصائد المديح بالغزل، ومنهم من غلب شعر الغزل على باقي فنون شعره، كالشاب الظريف الذي اشتُهِرَ بشعر الغزل، ومما جاء في مقدمات قصائد المدح نذكر المقدمة الغزلية للقصيدة التي مدح بها أبو الحسين الجزار[1] صديقه الشاعر جمال الدين بن مطروح، ويقول فيها[2]:

هـوَ ذا الرّيـحُ وَلِـيْ نَفْـسٌ مَشُـوقَةْ ... فَاحْبِسِ الرَّكْبَ عَنِّي أَقْضِ حُقُوقَةْ

فَقَبِـيْحٌ بِـيَ فِـيْ شَـرْعِ الهـوَى ... بَعْـدَ ذَاكَ البِـرّ أَنْ أُرْضَـى عُقُوقَـةْ

لَسْـتُ أَنْسَـى فِيْـهِ لَـيْلاً مَضَـتْ ... مَـعَ مَـنْ أَهْـوَى وَسَـاعَاتٍ أُنِيقَـةْ

وَلَـئِنْ أَضْـحَى مَجَـازًا بُعْـدُهُمْ ... فَعَزَائِـمِـي فِيْـهِ مَـا زَالَ حَقِيقَـةْ

---

(١) هو جمال الدين يحيى بن عبد العظيم بن يحيى بن محمد المعروف بالجزار، لأنه عمل مع والده في الجزارة، ولد بالفسطاط بمصر، وتلقى علومه فيها، واجتمع هناك بعدد من شعراء عصره، كابن مطروح وابن أبي الإصبع والورّاق والبوصيري وابن دانيال، توفي سنة ٦٧٩هـ، انظر ترجمته في: شذرات الذهب في أخبار من ذهب ٣٦٤/٥.

(٢) وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان: ابن خلكان ٢٦٥/٦ - ٢٦٦.

يَـــا صَـــدِيْقِي والكَـــرِيْمُ الحُـــرُّ فِـــيْ ... مِثْـلِ هـذا الوَقْـتِ لاَ يَنْسَـى صَـدِيْقَهْ

ضَـعْ يَـدًا مِنْـكَ عَلَـىْ قَلْبِـي عَسَـى ... أَنْ تُهَـدِّي بَـيْنَ جَنْبَـيَّ خُفُوْقَـهْ

فَـاضَ دَمْعِـي مُـذْ رَأَى رَبْـعَ الهـوَى ... وَلَكَـمْ فَـاضَ وَقَـدْ شَـامَ بُرُوقَـهْ

تِقِـــدَ اللُّؤْلُـــؤُ مِـــنْ أَدْمُعِـــه ... فَغَـدَا يَلْتُـرُ فِـي التُّـرْبِ عَقِيْقَـهْ

قِـفْ مَعِـي وَاسْـتَوْقِفِ الرَّكْـبَ فَـإِنْ ... لَـمْ يَقِـفْ فَاتْرُكْـه يَمْضِـي وَطَرِيْقَـهْ

فَهْـــيَ أَرْضٌ قَلَّمَـــا يَلْحَقُهَـــا ... أَمِـلٌ، والرَّكْـبُ لَـمْ أَعْـدَمْ لَحُوقَـهْ

يَفْضَـــحُ الـــوَرْدَ احْمِـــرَارًا خَـــدُّه ... وَتَـــوَدُّ الخَمْـــرُ لَـــوْ تُشْـــبِهُ رِيْقَـــهْ

فِيْـــه الحُسْـــنُ خَلِيْـــقٌ لَـــمْ يَـــزَلْ ... وَالمَعَـــالِي بِـــابْنِ مَطْـــرُوحٍ خَلِيْقَـــهْ

وحافظوا على مفاهيم الجمال التقليدية لدى العرب، ولكنهم أدخلوا فيها ما يناسب تطور البيئة الحضرية، والتمازج بينهم وبين الأمم الأخرى، نجد ذلك في:

أولًا- وصف محاسن الحبيب: درج شعراء الغزل على تشبيه جمال المرأة المحبوبة بجمال الطبيعة، كإشراق الشمس، ونور القمر، ولين الأغصان، وشذا الورد، ورقة النسيم.. وبالرغم من سير شعراء العصر المملوكي في هذا الاتجاه القديم حاولوا أن يضفوا عليه لمسة من لمسات التجديد والمعاصرة التي تناسب ذوقهم، ومنه قول محمد بن مكي[1]:

أَهْـــوَاه كَالْبَـــدْرِ لَكِـــنْ فِـــيْ تَبَدُّلِـــه ... وَالْغُصْـنِ فِـيْ مَيْلِـه عَـنْ لَـوْمِ لائِمِـه

سَـــمْحٌ بِمُهْجَتِـــه مَـــا رُدَّ نَائِلُـــه ... كَأَنَّمَـــا خَـــاتَمٌ فِـــيْ فَـــصِّ خَاتَمِـــه

يحاول الشاعر استثمار صفة تبدل حال البدر، ليخرج على المألوف الثابت في تشبيه

---

(١) هو محمد بن مكي بن أبي غنائم الدمشقي، المتوفى سنة ٧٤٢هـ، كان وكيل بيت المال بطرابلس وكاتب الإنشاء فيها، وكان يعرف فنونًا من العلوم، حسن الخلق والنظم والشعر، الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة ١٦٣/٤.

جمال وجه المرأة بجمال البدر، كما يضيف إلى ما عُرف من صفة النضارة واللين المستمدة من الأغصان صفة اتقاء اللوم، كما تميل الأغصان متقية الرياح والزوابع، ويشحن صفة السماحة والكرم التي اشتهر بها حاتم الطائي بإيحاءات تشي بالوصال وترك الصدود.

كما أنهم شبهوا الوجه بالبدر تارة، وبالشمس أخرى، إلا أنهم زادوا عليهما فجعلوا وجه الحبيب لا يصاب بكسوف ولا خسوف، ورأوا فيه معانيَ ليست في الشمس ولا القمر، يقول التلّعفريّ[1]:

لو تنطقُ الشمسُ قالت وهْيَ صادقةٌ: ما فيَّ فيها، وما فيَّ الذي فيها

هَنِّي أمائلَها نوزا وفربطَ سَنًا من أينَ أملكُ معنًى من معانيها؟

ويشبّه صفيّ الدين الحلّي المحبوبة بالشمس، ويعدّد ثلاثة من أوجه الشبه، وهي الجمال، وعلّو المنزلة، والنور المُبهج، ثُمّ يطالب المحبوبة أن تستكمل الصفة الرابعة من الصفات التي تتصف الشمس بها، وهي صفة العدل بقوله[2]:

يَا مَنْ حَكَتْ شَمْسَ النَّهارِ بِحُسْنِها وَبِعَادِ مَنْزِلِها وبَهجَةِ نُوْرِها

هلاَّ عَدَلْتِ كَعَدْلِها إذْ صَوَّرَتْ للنَّاسِ غَيْبَتَها بِقَدْرِ حُضُوْرِها

أما الشاب الظريف فيسأل الظباء كيف تعلّمت صيد الأسود في شَرَك أهدابها، قاصدًا التعبير عن جمال العيون والأهداب وصفات الرقة المعروفة عن الظباء، بطرافة تتمثل في تجاهل قانون الطبيعة[3]:

وَبِاللهِ قُلْ لِي أيُّها الظَّبْيُ كَيْفَ قَدْ تَعَلَّمْتَ صَيْدَ الأُسْدِ فِي شَرَكِ الهُدْبِ

---

(١) الديوان: ٦٠.

(٢) الديوان: ٤٢٠.

(٣) الديوان: ٦٣.

بينما يدّعي شهاب الدين محمود أن المحبوبة تعمل معلّمة في مدرسة الطبيعة، فهي تعلّم الأشجار والأغصان كيف تتمايل وتتثنى، وأنه يُعَلّمُ الورقاء كيف تغني ويتعالى هديلها، فيقول[1]:

تَثَنَّـــى وَأَغْصَـــانُ الأَرَاكِ تُوَاضِـــرٌ ... فَتُخْـــتُ وَأَسْـــرَابٌ مِـــنَ الطَّيْـــرِ عُكَّـــفُ

فَعَلَّـــمَ بَانَـــاتِ النَّقَـــا كَيْـــفَ تَثْنِـــي ... وَعَلَّمْـــتُ وَرْقَـــاءَ الْجِمَـــى كَيْـــفَ تَهْتِـــفُ

وقد جعل كثير من شعراء الغزل المرأة مصدرًا من مصادر الجمال، والطبيعة تستعير منها بعض صفات بهائها وجمالها، فالسّراج الورّاق[2] مثلًا يرى محبوبته مصدرًا تستعير منه الطبيعة بعض صفات جمالها تارة، ويماهي بينها وبين صفات الطبيعة البهية تارة أخرى، من ذلك قوله[3]:

أَعَـارَتِ اللَّـيْنَ عِطْـفَ البَانَـةِ النَّضِـرَه ... هَيْفَاءُ كَالْغُصْنِ فَوْقَ الدَّعْصِ مُؤْتَزِرَه[4]

يَكَـادُ مَـاءُ الشَّـبَابِ الـدَّمْثِ يَقْطُـرُ مِـنْ ... أَدِيـمِ وَجْنَتِهَـا مِـنْ رِقَّـةِ البَشَـرَه[5]

يَـا خَجْلَـةَ الـوَرْدِ مِـنْ تِلْـكَ الخُـدُودِ وَيَـا ... تَقَنُّـتَ المِسْـكِ مِـنْ أَنْفَاسِـكِ العَطِـرَه

كَالْغُصْـنِ مَائِسَـةً وَالظَّبْـيِ نَاعِسَـةً ... وَالشَّـمْسِ سَـافِرَةً وَالْبَـدْرِ مُعْتَجِـرَه[6]

لَـوْ أَنَّهَـا أَدْرَكَـتْ عِصْـرَ الكَلِـيمِ رَأَى ... أَجْفَانَهَـا حُشِـرَتْ مَـعْ جُمْلَـةِ السَّـحَرَه

تَغُرُّنَـا بِانْكِسَـارٍ مِـنْ لَوَاحِظِهَـا ... وَلَا تَـزَالُ عَلَـى العُشَّـاقِ مُنْتَصِـرَه

---

(١) الدرر الكامنة ١٩٨/٤-١٩٩.

(٢) هو سراج الدين أبو حفص عمر بن محمد بن الحسن المصري المعروف بالسّراج الورّاق، كان إمامًا فاضلًا وأديبًا مكثرًا متصرفًا في فنون البلاغة، توفي سنة ٦٩٥هـ، النجوم الزاهرة ٦٩/٨.

(٣) النجوم الزاهرة ٦٩/٨.

(٤) الدعص: كثيب الرمل، وقد استعاره الشاعر للردف.

(٥) الدمن: المتجمع، وتدمن: تجمّع.

(٦) اعتجرت: شدت الثوب على رأسها.

وقد توقف شعراء هذا العصر عند طول شَعر المحبوبة، وتغنّوا بالجفون الناعسة، والأهداب الطويلة، والعيون الواسعة، والقدّ المعتدل، والخصر الناحل، ومن بديع التعبير عن طول شَعر المحبوبة قول الشاب الظريف[1]:

أُخَاذِرُ طُوْلًا مِنْ ذُؤَابَةِ شَعْرِهِ ... فَقَدْ وَصَلَتْ مِنْ قَدِّهِ لِفُؤَادِي

ومن طريف ما ورد في الجفون الناعسة والنظرات الأخاذة قول صفي الدين الحلّي[2]:

يَا ضَعِيفَ الجُفُونِ أَضْعَفْتَ قَلْبًا ... كَانَ قَبْلَ الهَوَى قَوِيًّا مَلِيًّا

لاَ تُخَارِبْ بِنَاظِرَيْكَ فُؤَادِي ... فَضَعِيفَانِ يَغْلِبَانِ قَوِيًّا

وعدّد الشاب الظريف ما أعجبه من مفاتن محبوبته فذكر سحر عينيها، وإشراق وجهها، وبريق ثناياها، ورقة خصرها، وجفونها الفاترة، وبيّن أثر ذلك في نفوس مَن يرونها، فقال[3]:

وَمَا فِيهِ مِنْ حُسْنٍ سِوَى أَنَّ طَرْفَهُ ... لِكُلِّ فُؤَادٍ فِي البَرِيَّةِ صَائِدُ

وَأَنَّ مُحَيَّاهُ إِذَا قَابَلَ الدُّجَى ... أَنَارَ بِهِ جُنْحًا مِنَ اللَّيْلِ، رَاكِدُ[4]

وَأَنَّ ثَنَايَاهُ نُجُومٌ لِبَدْرِهِ ... وَهُنَّ لِعِقْدِ الحُسْنِ فِيهِ فَرَائِدُ[5]

فَكَمْ يَتَجَافَى خَصْرُهُ وَهْوَ نَاجِلٌ ... وَكَمْ يَتَحَالَى رِيقُهُ وَهْوَ بَارِدُ

وَكَمْ يَدْعِي صَوْلًا وَهَذِي جُفُونُهُ ... بِفَتْرَتِهَا لِلْغَانِيَاتِ تُوَاعِدُ

وتوقف عدد من الشعراء عند الشامة، وتغنّوا بجمالها على خدّ المحبوبة، من ذلك قول

---

(١) الديوان: ٩٦.

(٢) الديوان: ٤٠٠.

(٣) الديوان: ٨٦.

(٤) جنح الليل، بكسر الجيم أو ضمّه: طائفة منه.

(٥) الفرائد جمع فريدة: الجوهرة النفيسة.

برهان الدين القيراطي[1]:

قَسَمًا بِرَوْضَةِ خَدِّهِ وَنَبَاتِهَا ... وَبِآسِهَا الْمُخْضَرِّ فِي جَنَبَاتِهَا

وَبِسُورَةِ الْحُسْنِ الَّتِي فِي خَدِّهِ ... كُتِبَ الْعِذَارُ بِخَطِّهِ آيَاتِهَا

وَبِقَامَةٍ كَالْغُصْنِ إِلاَّ أَنَّهِ ... لَمْ أَجْنِ غَيْرَ الصَّدِّ مِن ثَمَرَاتِهَا

لأُعَزِّزَنَّ غُصُونَ بَانِ رُؤْدَتْ ... أَعْطَافُهُ بِالْقَطْعِ مِنْ عَذَبَاتِهَا

ووصفوا الخال على خدّ المحبوبة وحسنه، واستثمروه لذكر الخال (القريب) والعم، يقول شرف الدين الأنصاري[2]:

يا رِيَّةَ الخالِ كُفِّي عن عَتابِ فتًى ... جَمَّ الوفاءِ كريمِ العَمِّ والخالِ

وقد أكثر الشعراء في هذا العصر من تشبيه العيون بالسيوف والقسيّ، والقدود بالرماح، حتى وصل الأمر إلى مصطلحات الحرب والقتال، فخلط الشعراء بين أرقّ العلاقات الإنسانية وأقساها، مثل قول الشاب الظريف[3]:

لِحاظُ الظِّبا تَحْكِي الظُّبا في المَضَارِبِ ... عَلى أنَّها أمْضَى بِقَطْعِ الضَّرائِبِ[4]

ظُبًا مُقْلِ سَالَتْهُنَّ لَدى الهَوى ... وأفعالُها في القَلْبِ فعلَ المُحارِبِ

وَقَدْ جُرِّدَتْ للفَتْكِ فينا فَلا تَرى ... سِوى دمِ مضروبٍ على خَدِّ ضَارِبِ

قارئ هذه الأبيات يجد نفسه في حيرة، أيصف الشاعر لقاء حبيبته أم يصف محاربة

---

(١) هو شرف الدين، إبراهيم بن عبد الله بن محمد بن عسكر بن شادي، الشهير بالقيراطي المصري، برع في الفقه والأصول والعربية، وروى الحديث، توفي بمكة سنة ٧٨١هـ، النجوم الزاهرة ١١/١٦٠-١٦٢، والدرر الكامنة ١/٣١.

(٢) الديوان: ٤١٢.

(٣) الديوان: ٧١.

(٤) الظِّباء: جمع ظَبي أي الغزال، الظُّبا: جمع الظُّبة: حدّ السيف والسِّنان والنصل والخنجر وما أشبه ذلك، المضارب: جمع المضْرب، وهو السيف، والضرائب: جمع الضريبة، وهي الشيء المضروب.

خصمه؟ فالسيوف تلوح والرماح تطعن، والدماء تسيل، وأين هذا اللقاء العنيف من لقاء الغزل اللطيف؟ بل إن الصفي الحلي حمّل محبوبه السلاح ليشاكل سلاحه الطبيعي، فقال[1]:

قُولا لِمَن حَمَلَ السلاحَ وخصرُه ... مِنْ قَدِّ ذابِلِهِ أدقُّ وأرشَقُ

لا تُوهِ جسمَكَ بالسلاحِ وثقلِهِ ... إنّي عليكَ مِنَ الغلالةِ أُشفِقُ

تلقاهُ وهوَ مُزَرَّدٌ ومُدَرَّعٌ ... وتَراه وهوَ مُفَرَّطٌ ومقَرْطَقُ

لم تترُكِ الأتراكُ بعدَ جمالِها ... حُسنًا لمخلوقٍ سِواها يُخلَقُ

جَذَبوا القِسيَّ إلى قِبيِّ حَواجِبٍ ... مِنْ تحتِها نُبْلُ اللَّواحظِ تُرْشَقُ

نَشَروا الشعورَ فكلُّ قَدٍّ منهمُ ... لَدْنٌ عليهِ من الذوائبِ سَنْجَقُ[2]

لقد قرن الشاعر محاسن الحبيب بأدوات الحرب، ليدلّ على الجمال والحسن، وهذا ما لم يُعهد من قبل لكنها الرغبة الملحّة في الإطراف والتجديد.

ثانيًا- وصف أحوال المُحبين: من حزن وصبابة ووجد، فأشبه بعضهم العذريين في تصوير لواعج الشوق والحنين، ومعاني الصد والهجران والأرق والعذاب، ونورد هنا أبياتًا للشاعر إبراهيم الإسعردي[3] يعبر فيها عن شوقه للحبيب الذي يسكن فؤاده، يقول فيها[4]:

كُنْ كَيْفَ شِئْتَ فإنّني بِكَ مُغْرَمُ ... راضٍ بما فَعَلَ الهوَى المُتحكّمُ

---

(١) الديوان: ١٢١.

(٢) السنجق: الراية.

(٣) هو فخر الدين أبو العباس إبراهيم الشيباني الإسعردي ثم المصري، كان رئيس الموقّعين بالديار المصرية، ثم الوزير فيها، ولي الوزارة مرتين، وكان مشكور السيرة قليل الظلم كثير العدل والإحسان، توفي سنة ٦٩٣ هجرية، النجوم الزاهرة ٤٣/٨.

(٤) النجوم الزاهرة ٤٣/٨.

ولئن كتمتُ عن الوشاةِ صبابتي ... بكَ فالجوانحُ بالهوى تتكلّمُ

أشتاقُ مَنْ أهوى وأعجبُ أنني ... أشتاقُ مَنْ هو في الفؤادِ مُخيّمُ

يا مَنْ يصُدُّ عن المُحِبِّ تدلُّلاً ... وإذا بكى وجْدًا غدا يتبسّمُ

اسكنْكَ القلبَ الذي أحرقتَه ... فحذارِ من نارٍ به تتضرّمُ

ودأب الشعراء على الشكاية من صدود المحبوب وهجرانه أو قطيعته، ومن عبث المحبوبات بهم أحيانًا، كما نرى في قول أحمد بن عشائر السّلمي[1]:

شكوتُ إليه أنّ هجْرَكَ قاتلي ... وقُلْتُ له: مَنْ ذا يكونُ بديلي؟

فقامَ وولّى وهو يُنشِد ساخرًا: ... ألا فاعْجَبوا من ميّتٍ وقتيلِ

ومن طريف معاني الصدود والوصال أيضًا قول أحمد بن محمد بن سلمان بن حمائل[2]:

أعاهدُ قلبي في اجْتِنابِ هواكمُ ... ويَطْلبني شوقي إليكم فأنكثُ

وأحلِفُ لا واصلتكم ما بقيتُمُ ... وأعلَمُ أنّ الوَصْلَ خيرٌ فأحنثُ

وقد توقف كثير من شعراء الغزل عند ساعة الفراق مليًا، وعبروا عن مشاعرهم تجاه رحيل المحبوبة، ووصفوا ما يكابدونه من ألم الفراق، من ذلك قول أبي جعفر أحمد بن يوسف[3]:

مَحاجِرُ دَمْعي قَدْ مَحاهنَّ ما جَرَى ... مِن الدَّمْعِ لمّا قيلَ قَدْ رَحَلَ الرَّكْبُ

---

(١) هو أحمد بن الحافظ الخطيب ناصر الدين محمد بن عشائر السلمي، باشر الخطابة بجامع حلب الكبير إلى أن توفي بالطاعون وهو في سن الشباب سنة (٧٩٠هـ)، الدرر الكامنة ١٦٨/١.

(٢) هو أحمد بن محمد بن سلمان بن حمائل، شهاب الدين، أبو جعفر، ويُعرف أيضًا بابن غانم، عالم أديب اشتغل في ديوان الإنشاء بمصر ودمشق وصفد، طاف عددًا من البلاد العربية كاليمن ومكة، توفي بدمشق سنة ٧٣٧ هجرية، الدرر الكامنة ١٥٧/١ – ١٥٨، والأبيات في: مسالك الأبصار ٣١٩/١٦.

(٣) الحركة الشعرية زمن المماليك: ٣٠٢.

تَنَاقَصَ حَسَابِي مُذْ شَجَانِي فِرَاقُهُمْ فَمِنْ أَضْلُعِي نَارٌ وَمِنْ أَدْمُعِي سَكْبُ

ومع ذلك يتمتع هؤلاء الشعراء بالصبر والوفاء للحبيب أيًّا كان حكمه، ذلك ما نراه في قول الشاعر عبد الغفار القوصي[1] واصفًا ما يكابده من آلام الفراق، وإخلاصه للمحبوبة في حلّها وترحالها[2]:

بَقَاءُ نَفْسِيَ فِي يَوْمِ النَّوَى عَجَبُ لأَنَّ مَوْتِي مِنْ بَعْضِ الَّذِي يَجِبُ

وَمَا بَقِيتُ وَرُوحِي لَسْتُ أَمْلِكُهَا وَلَيْسَ لِي مِن حَيَاتِي بَعْدَهُمْ أَرَبُ

وَرِضَاءُ قَلْبِيَ أَن يَرْضَوا بِسَفْكِ دَمِي هُمُ هُمُ إِن رَضُوا فِي الحُبِّ أَو غَضِبُوا

وَالقُرْبُ وَالبُعْدُ مَا شَاؤُوا فَدَيْتُهُمُ هُمُ الأَحِبَّةُ إِنْ شَطُّوا وَإِن قَرُبُوا

وَهُمْ نِهَايَةُ آمَالِي وَمُرْتَجَعِي إِلَيْهِمُ آلَ قَصْدِي وَانْتِهَى الطَّلَبُ

كَرَرْ خَدِيثَهُمُ يَا سَعْدُ فِي أُذُنِي فَلَسْتُ أَنْسَى وَلَكِن هَزَّنِي الطَّرَبُ

وقد اشتكى شعراء الغزل منذ العصر الجاهلي من طول الليل، لأنه يفصلهم عن محبوباتهم، ويتعجلون انقضاء الليل وما يلاقون فيه من آلام الحب وعذاباته، أما شعراء الغزل في العصر المملوكي فرأينا منهم مَن يتعجل الليل ليتمتع برؤية طيف محبوبته، ومنهم الشاعر ياقوت المستعصمي[3] الذي يقول[4]:

---

(١) هو عبد الغفار بن أحمد بن نوح القوصي، من علماء قوص المعروفين بتقواهم وغيرتهم على الدين، وينسب أصحابه إليه كرامات، من مصنفاته كتاب (الوحيد في التوحيد)، توفي بمصر سنة (٧٠٨هـ)، الطالع السعيد: ٣٢٣-٣٢٧.

(٢) الطالع السعيد: ٣٢٥.

(٣) هو جمال الدين أبو المجد ياقوت بن عبد الله المستعصمي الرومي، عاش في كنف الخليفة المستعصم آخر خلفاء بني العباس في بغداد، واشتهر بحسن خطه وجمال نظمه ونثره، توفي سنة ٦٩٨هجرية، النجوم الزاهرة ١٤٨/٨.

(٤) النجوم الزاهرة ١٤٩/٨.

تُجدّد الشّمسُ شوقي كلّما طلعتْ إلى مُحيّاكَ يا سَمْعي ويا بَصَري
وأسْهرُ الليلَ ذا أنسٍ بوحشتِه إذ طيبُ ذِكْراك في ظَلْمائِه سَمَري
وكُلّ يومٍ مَضَى لي لا أراكَ به فَلَسْتُ محتسبًا ماضيهِ من عُمُري
أيْلي نهاري إذا ما دُرْتَ في خَلَدي لأن ذِكْرَاك نورُ القَلْبِ والبَصَرِ

وكما تحدث شعراء العصور السابقة عن خشيتهم من العذول والرقيب، كثر حديث شعراء العصر المملوكي عنهما، من ذلك عتاب عمر بن الوردي لعاذله بقوله[1]:

وَلِي حَالَةٌ فِي العَاشِقِيْنَ عَجِيْبَةٌ فُؤادِي ضِرَامٌ وَالدموعُ سِجَامُ
فَرِسْ عاذلًا مَا أنتَ -واللهِ- عادلًا أَلْحَظُ عَهْدًا سَابِقًا وَأُلامُ
فَلَوْ بِكَ مَا بِي كُنْتَ تَعْذِرُ عاشقًا لَهُ البَيْنُ خَصْمٌ والغَرِيْمُ غَرامُ

وقد أبدى شعراء الغزل قدرًا كبيرًا من الحرص على سمعة محبوباتهم، وتحملوا صابرين ألم الفراق، حتى إن سمحت المحبوبة بالرؤية، وتحصنت بالرقباء حفاظًا على العفة، من ذلك ما نراه في تسويغ الشاعر جعفر بن محمد الفاوي[2] لتخلفه عن لقاء محبوبته[3]:

لا تُلُمْنَا إنْ رَقَصْنَا طَرَبًا لِنَسِيمٍ مَرَّ مِن ذَاكَ الجَنَا
طَبَّقَ الأرضَ بِنَشْرٍ عَاطِرٍ فِيهِ للعُشّاقِ سِرٌّ ونَبَا
يَا أهْلَ الحَيِّ مِنْ كَاظِمَةٍ قَدْ أقَمْنَا مِن هَوَاكُم نُصُبَا
قُلْتُمُ: جُزْ لترانَا بالجِمَى ومَلأْتُم حِسّيكُم بالرُّقَبَا

---

(١) الديوان: ٣١٩.

(٢) هو جعفر بن محمد بن عبد الرحيم بن عمر الإدريسي الفاوي، ولد بالقاهرة وفيها تلقى علومه ثم انبرى لنشر العلم وإلقاء المحاضرات، توفي سنة ٦٩٦ هجرية، الطالع السعيد: ١٧٩ - ١٨١.

(٣) الطالع السعيد: ١٨٠-١٨١.

لَسْتُ أَخْشَى المَوْتَ فِي حُبِّكُمْ ... لَيْسَ قَتْلِي فِي هَوَاكُم عَجَبا

إِنَّمَا أَخْشَى عَلَى عِرْضِكُمْ ... أَو تَقُولَ النَّاسُ قَوْلًا كَذِبا

اسْتَحِلُّوا دَمَهُ فِي حُبِّكُمْ ... فَاجْعَلُوا وَصْلِي لِقَتْلِي سَبَبا

إن الشاعر لا يخشى لقاء المحبوبة خوفًا على نفسه من الرقباء، بل يخشى على سمعتها من افتراء الناس وكذبهم.

وقد حاول بعض الشعراء أن يستخرج من المعاني المتداولة حول الرقيب وتخرصاته معاني جديدة تتصل بتحقيق تلك التخرصات، من ذلك اقتراح ابن منظور [1] على حبيبته تحقيق ظنون الناس، لكي لا يأثم الناس، وأن يتحمل هو وهي الإثم بدلًا من الناس، وهو واثق بعفو الله تعالى عنهما[2]:

النَّاسُ قَدْ أَثِمُوا فِينَا بِظَنِّهِم ... وَصَدَّقُوا بِالَّذِي أَدْرِي وَتَدْرِينَا

مَاذَا يَضُرُّكِ فِي تَصْدِيقِ قَوْلِهِم ... بِأَنْ نُحَقِّقَ فِينَا مَا يَظُنُّونَا

خَمِّلِي وَحَمِّلْكِ ذَنْبًا وَاحِدًا ثِقَةً ... بِالعَفْوِ أَجْمَلُ مِنْ إِثْمِ الوَرَى فِينَا

وعَقَّب صلاح الدين الصفدي على هذه الأبيات بقوله: "هو معنى مطروق للقدماء، لكن زاد فيه زيادة، وقوله (ثقة بالعفو) من أحسن مُتَمِّمات البلاغة"[3].

ثالثًا- التغزل بالمرأة غير العربية: فُتِنَ بعض الشعراء بسمات المرأة غير العربية التي كانت جزءًا من نسيج المجتمع في العصر المملوكي، وتغزلوا ببعض صفاتها، وهذا

---

(١) هو محمد بن مكرم الأنصاري الإفريقي جمال الدين أبو الفضل، كان مغرمًا باختصار الكتب المطولة فاختصر الأغاني، والعقد الفريد، والذخيرة، وغيرها، من مصنفاته معجم (لسان العرب)، عمل في ديوان الإنشاء في القاهرة طول عمره، وولي قضاء طرابلس الغرب، توفي سنة ٧١١ هجرية، الدرر الكامنة ٤/١٦١ - ١٦٢.

(٢) الدرر الكامنة ٤/١٦٤.

(٣) السابق ٤/١٦٤.

الأمر يعدّ جديدًا على معاني شعر الغزل، ومن ذلك مثلًا قول عبد الرحمن بن وفا[1] في صاحبة البشرة الصفراء[2]:

وَفِـيْ ذَهَبِـيِّ اللَّـوْنِ صِـبْغٌ لِبِخْلَتِـي ... يُطِيْـلُ امْتِحَانًـا لِـي وَمَـا أَنَـا زَائِـفُ

يُـذِيْبُ فُـؤَادِي وَهْـوَ لاَ غِـشَّ عِنْـدَه ... فَيَـا ذَهَبِـيَّ اللَّـوْنِ إِنَّـكَ حَـائِفُ[3]

وقد تغيرت بعض مقاييس الجمال عند هؤلاء الشعراء، فهم يتغزلون بالعيون الضيقة بدلًا من العيون النجل، وهذا معنى جديد في شعرنا العربي يقول ابن نباتة[4]:

بُهِـتَ العَـذُولُ وقَـد رأى ألحاظهـا ... تركيـبَـةً تَـدعُ الحلـيمَ سَـفيها

فتنَـى المَـلامَ وقَـال دونَـك والأسَـى ... هَـذي مضَـايقُ لستَ أدخلُ فيهَـا

كما تغزّلوا بالعيون الزرق بدلًا من عيون الظباء والعيون الحور، يقول أيضًا[5]:

وأزرق العَـيْنِ بمضَـي حَـدُّ مقلتِـه ... مثـلَ السِّـنانِ بقلـبِ العاشـقِ الحَـذِرِ

قالَـتْ صَـبابةُ مشـغوفٍ بزرقتِهـا ... دعْهـا سَـماويةً تمضـي علـى قَـدَرِ

وأعرض كثير من هؤلاء الشعراء عن ذكر الأسماء المعروفة في الغزل القديم مثل زينب والرباب وسعدى، وأوردوا أسماء محبوبات حقيقيات، وجاهر بعضهم -على طريقة أبي نواس- بالإعراض عن أولئك المحبوبات، كقول ابن نباتة[6]:

علـى ضَـيِّقِ العينـين تسـفحُ مقلتـي ... ويُطربنَـي لا زينـبٌ ورَبـابُ

---

(١) هو عبد الرحمن ويسمى أيضًا محمد بن أحمد بن محمد بن محمد بن وفا، السكندري الأصل، كان حسن الأخلاق رقيق الشعر، توفي غريقًا في نهر النيل سنة ٨١٤ هجرية، الضوء اللامع ٥٨/٤ - ٥٩.

(٢) الضوء اللامع ٥٩/٤.

(٣) الحيف: الظلم، والحائف: الظالم.

(٤) الديوان: ٥٤٥.

(٥) الديوان: ٢٥٧.

(٦) السابق: ٢٨.

فيا رشأ الأتراك لا سربَ (عامرٍ) فؤادي من مكنى السلوّ خرابُ

بوجهكِ من ماءِ الملاحةِ موردٌ لظامٍ وسربُ العامري سَرابُ

وكذلك تفضيل علاء الدين الجويني[1] حاضرة الأتراك على بادية الأعراب، وإعجابه بالتركيات وعيونهن الضيقة، يقول[2]:

أَبَادِيَةَ الأَعْرَابِ عَنِّي فَإِنَّنِي بِحَاضِرَةِ الأَتْرَاكِ نِيطَتْ عَلاَئِقِي

وَأَهْلَكِ يَا نُجْلَ العُيُونِ فَإِنَّنِي جُبِلْتُ بِهَذَا النَّاظِرِ المُتَضَايِقِ

وتغزل عمر بن الوردي بفتاة مغولية أسرت قلبه بجمالها[3]:

لِي مِنْ بَنَاتِ المُغْلِ مَنْ تَفْضَحُ مِلْـ ـي مَا اسْتَتَرْ

وَكَيْفَ حَالُ مُسْلِمٍ أَصْبَحَ فِي أَسْرِ التَّتَرْ

وتغزل أحمد بن علي الصنعاني بإحدى الفتيات السوداوات الحبشيات [4]:

هَوِيْتُهَا أَمْهَرِيَّةً قَدْ أَضْنَتْ فُؤَادِي وَلَمْ تُوَاصِلْ

كَأَنَّهَا النَّنْزُ فِي الدَّيَاجِي أَوْ أَنَّهَا الشَّمْسُ فِي الأَصَائِلْ

إلى غير ذلك مما قاله شعراء الغزل الحسّي في وصف ملامح جمال المرأة غير العربية التي انخرطت في المجتمع المتعدد الأعراق في العصر المملوكي.

وهكذا ترك كثير من الشعراء لأنفسهم حرية التعبير، فجاء أسلوبهم ذاتيًا، فيه صحة القديم وبلاغته، وفيه خفة الجديد ورشاقته، وغلب هذا الأسلوب على الشعراء الكبار، وعُرف من الأسلوب الذاتي ما أطلق عليه أهل العصر مذهب الرقة والانسجام، المتصف

---

(١) هو علاء الدين عطاء بن محمد الجويني، كان صاحب الديوان ببغداد، وله شعر حسن توفي سنة ٦٨٠ هجرية. تاريخ ابن الوردي ٢/٢٢٢.

(٢) تاريخ ابن الوردي ٢/٢٢٢.

(٣) الديوان: ٣٣٦.

(٤) درّ الحبب ١/١٤٢.

برقة الألفاظ وائتلافها، وجمال التراكيب وانسجامها، كقول رائد هذا المذهب الشريف الأنصاري[1]:

هَجَـــرَتْ لِتقتـــلَ عَبْـــدَهَا ... دَعْهـــا لِتبلُـــغَ جَهْـــدَهَا

حســـناءُ مُـــا جُليـــتْ لنـــا ... حتّـــى خَطَبْنـــا وُدَّهَـــا

وَزِلـــتْ بأضْـــعفِ نظـــرةٍ ... مـــا كِـــدْتُ أسْـــلمُ بعـــدَهَا

وبذلك نجد أن الغزل في العصر المملوكي ضمّ ألوانًا مختلفة، واتّجه به الشعراء اتجاهات متباينة، بعضهم تابع الغزل التقليدي، وبعضهم كان ذاتيًا لا يلتفت إلى غيره، وبعضهم تدبّر معاني الغزل وَوَلّد منها الجديد والبديع.

(١) الديوان: ١٧٣.

٤- الرثاء:

يلوذ الشاعر بأكناف قريحته حين تنزل المنية بساحة أحد من أحبابه أو أقربائه أو ذوي نعمته، فيستمطر شآبيب الدمع حينًا، ويستوكف سحب الرحمة حينًا آخر، ويذكر ضخامة الرزء بفقده طورًا، ويعدّد صفات المتوفّى ومزاياه طورًا آخر، وربما جمع هذه الأمور كلها في قصيدته، وربما اكتفى ببعضها، وربما لجأ إلى التأسّي والتجلد والحكمة، وهذا الغرض من الشعر قديم في أدبنا، وله أنواع عدة:

أولًا- المراثي الخاصة: وتقال في أناس أعزاء على قلب الشاعر، أو تربطه بهم صلات شخصية خاصة.

ثانيًا- المراثي العامة: وتقال في الحكام وأرباب الوجاهة والنفوذ والمكانة وأقربائهم وأتباعهم.

ثالثًا- رثاء المدن.

ومن المراثي الخاصة رثاء الأهل، فإنه يكون في الغالب ذاتيًا، وإن اعتمد الشاعر فيه على ثقافته واطلاعه على مراثي سابقيه، وأبرع شعراء العصر فيه ابن نباتة الذي فُجع بأولاده صغارًا، فنظم فيهم مراثيَ رقيقة مؤثرة، تُظهر عاطفة الأبوّة المذكوبة بفلذات الأكباد، ومن ذلك قوله لمّا فَقَدَ ابنه عبد الرحيم[1]:

أسكنتَ قلبيَ لَحْدَكْ ... لا خيرَ في العيشِ بَعْدَكْ

أقصدتني يا زماني ... كأنني كُنتُ قصدكْ

وكان ما خفتُ منه ... فأجهدِ الآن جهدكْ

لا لِبْتَ اليومَ أرجو ... ولستُ أرهبُ شدّكْ

وعلى الرغم من اللهجة الهادئة للقصيدة، تتفجر لوعة وأسى، فالأب الذي فقد ابنه،

---

(١) الديوان: ١٥٦-١٥٧.

وهو أعز ما يملك في حياته، لم يعد يخشى من نكبات الدهر شيئًا، وهذا من الرثاء الصادق المؤثر الذي يلحق بأرق قصائد الرثاء في الشعر العربي وأشجاها، وفجعه القدر بولد آخر، مات صغيرًا فرثاه بقصيدة نفث فيها أحزانه كلها، فقال[1]:

اللهُ جـــارُكَ إنّ دمعـــيَ جـــاري	يـــا مُـــوحشَ الأوطـــانِ والأوطـــارِ
لمـــا ســـكنتَ مـــن التـــرابِ حديقـــةً	فاضـــت عليـــك الـــدمعُ بالأنهـــارِ
شـــتّانَ مـــا حـــالي وحالـــك، أنـــت فـــي	غُـــرَفِ الجِنـــانِ ومُهجتـــي فـــي النـــارِ
خـفّ النّجـا بـك يـا بنـيَ إلـى المنـرى	فسَـــبقتني وثقُلـــتُ بـــالأوزارِ
لـــو أنّ أخبـــاري إليـــك تواصـــلتْ	لبكيـــتَ فـــي الجنـــاتِ مـــنْ أخبـــاري
ليـتَ الـردى إذْ لـمْ يـدعْكَ أهـابَ بـي	حتّـــى نـــدومَ معًـــا علـــى مضـــمارِ
أبكيـــكَ مـــا بكـــتِ الحمـــامُ هـــديلَها	وأحـــنُّ مـــا حنّـــتْ إلـــى الأوكـــارِ
أبكـــي بمحمـــرِّ الـــدموعِ وإنّمـــا	تبكـــي العيـــونُ نظيرَهـــا بنُضـــارِ

لقد أجاد ابن نباتة الرثاء، لأنه التاع بفقد أولاده، ولأنه امتلك الأدوات للتعبير عن هذه اللوعة، وهو في رثائه ذاتي، لا ينظر إلى الرثاء السابق، ولكنه لا يخرج على السياق العام للرثاء في الشعر العربي، فالرثاء يجود ويصدق كلما كان الفقيد قريبًا من نفس الشاعر، فكيف إذا كان ولده وفلذة كبده.

ومن المراثي الخاصة أيضًا ما قاله يحيى شرف الدين[2] في رثاء زوجه فاطمة بنت عبد الله، وكانت كريمة فاضلة[3]:

هـي الـنفسُ حلّـت مـنْ شـجاها وأنّـتِ	ففـيمَ تلـومُ العـينَ إن هـي شـنّتِ؟

---

(١) الديوان: ٢١٨-٢١٩.

(٢) يحيى شرف الدين: من أئمة الزيدية في اليمن ومن فقهائهم وشعرائهم، ت٩٦٥هـ.

(٣) ملحق البدر الطالع: ١٨٦.

مراجـلُ حُـزْنٍ فـي فـؤادِيَ أوقـدَتْ فمـن فيضِـها تلـكَ الـدموعُ اسـتهلّتِ

وهـل ينبغـي لـي أن أرى اليـومَ سـالمًا وفاطمـةٌ فـي بـاطنِ اللّحـدِ مُـلْتِ؟

ومـا فـاطمٌ إلا مـن الحُـورِ أُخرِجـتْ لتعـرفَ قـدرَ الحـورِ ثُمّـتَ رُدّتِ

وهذه الأبيات تزخر بالعواطف، وقد عبر فيها الزوج المفجوع بلغة بسيطة سهلة عن لوعته الصادقة.

ومن الشعراء الذين كثرت مصائبهم بذويهم، صفي الدين الحلي الذي خاض قومه معارك شديدة ضد خصومهم، وفقدوا في هذه المعارك عددًا من سَراتهم، وقد سقط أخو الشاعر في إحدى المعارك، فرثاه رثاء مرًّا، فيه الذاتية، وفيه التأثّر الشديد، وفيه النقمة على الدنيا وصروفها، وفيه ذكر مناقب أخيه وصفاته، قال[1]:

بكَيْتُ دمًا لو كانَ سكبُ الدّما يُغني وضاعفْتُ حزني لو شَفى كمدًا حُزني

أرى العيشَ في الدُنيا كأحلامِ نائمٍ فلذّتُها تفنـي وأحـداثُها تُفني

ليهنِكَ أنّ الدمعَ بعدَكَ مُطْلَقٌ لفرطِ الأسى والقلبَ بالهمِّ في سجنِ

سأبكيكَ بالعزِّ الذي كنتَ مُلْبِسي لدبكَ وثِقْلي كنتَ تحملُهُ عني

وأعلمُ أنّ الحزنَ والموتَ واحدٌ عليَّ فذا يضني القلوبَ وذا يفني

فحبُّكَ في قلبي وذكرُكَ في فمي وشخصُكَ في عيني ولفظُكَ في أُذني

صوّر الشاعر العلاقة المتينة التي ربطته بأخيه، فجعله بمنزلة الأب الذي كان يعطف عليه، ويسهر على راحته وخدمته، ولهذا كان موته مصيبة كبرى له، تركته مقيدًا بالدموع والأحزان، وحبيس الهموم والآلام، ولكنه يبدو أكثر تأثرًا في قصيدة أخرى، يكشف فيها عن روحه القبلية، وتلهفه لإدراك ثأره، كما تحدّث فيها عن الأثر الذي خلّفه موت

---

(١) الديوان: ٣٦٤.

أخيه في نفسه وفي قبيلته وفي الدنيا بأسرها، فقال[1]:

سَقْفًا إذا شُقَّت عليكَ جُيوبُ ... إنْ لم تُشَقّ مرائرٌ وقلوبُ

فلأبكينّك بالصوارم والقنا ... حتى يُحطَّمَ ذابلٌ وقضيبُ

سمعتْ بمصرعِكَ البلادُ فأرجفتْ ... وتواترَ التصديقُ والتكذيبُ

فُجِعَتْ بكَ الدنيا فلا وَجْهُ العُلا ... طَلْقٌ ولا صَدْرُ الزمانِ رحيبُ

إنْ غُيِّبَتْ تِلكَ المحاسنُ في الثرى ... فجميلُ ذِكْرِكَ في البلادِ يجوبُ

وكأن الحلي عاد بنا إلى عصر الصراع القبلي وأيام العرب، وإلى رثاء الأبطال الذين سقطوا في ساح القتال، فهذا الرثاء لا يختلف عن رثاء الأبطال في العصور السابقة، فلا تزال الحياة العربية قائمة ومتجددة في العصر المملوكي، وإن تلونت بمستجدات العصر، لذلك لم يخرج الأدب على نهجه الأصيل، ولم يفقد روحه وتوجهه، وإن لحقته سمات عصره، وهذا تطور حتمي ومؤكد.

وكثر في هذا العصر رثاء الجواري، وذرفوا عليهن الدموع الغزار، فهذا ابن نباتة لم يجد حرجًا في رثاء جاريته، فرثاها رثاء رقيقًا حارًا، اقترب من الغزل، قال فيه[2]:

أقيما فُروضَ الحُزنِ فالوقتُ وقتُها ... لشمسِ ضُحًى عندَ الزوالِ نَدَبْتُها

لغائبةٍ عنّي وفي القلبِ شَخْصُها ... كأنيَ مِنْ عيني لقلبي نقلتُها

بكيتُكِ للحُسنِ الذي قد شَهِدتُه ... وللشِّيَمِ الغُرِّ التي قد عَهِدتُها

سلامٌ على الدُّنيا فقد رَحَلَ الذي ... تطلّبتُها مِنْ أجلِهِ وأردْتُها

بل إن الصفي الحلي رثى مملوكه، فإن كانت تلك الجارية قد نزلت من ابن نباتة منزلة الزوجة، فإن المملوك نزل عند الحلي منزلة الولد، والزوجة والولد ممن يرثون

---

(١) الديوان: ٣٣٣.

(٢) الديوان: ٧٣.

بحرارة، كما رأينا عند ابن نباتة، وكما نرى في رثاء الحلي لمملوكه بقوله[1]:

هجـرتْ بعـدَك القلـوبُ الجسـوما ... حـينَ أمسَـتْ منـك الربـوعُ رسـومَا

وخلَـتْ مِـنْ سَـناكَ زُهْـرُ المغـاني ... فاسـتحال النهـارُ لـيلًا بهيمَـا

مـا ظلَنّـا المنـونَ ترقـى إلـى البـدْ ... رِ وأنّ الجسـام يغشـى النجومَـا

هـدَّ قلبـي مَـنْ كـانَ يـؤنسُ قلبـي ... إذْ نبـذناه بـالعراءِ سـقيمَا

ولـأى يوسـفي فقـدْ ذهبَـتْ غيْـ ... ـنايَ مِـنْ حزنِـهِ وكنْـتُ كظيمـا

وكذلك رثاء الأصدقاء والأصحاب، مثل قول الصفدي في رثاء أحد أصدقائه[2]:

مـا بَعْـدَ فقـدِكَ لـي أنـسٌ أرجّيـهِ ... ولا سـرورٌ مِـنَ الـدنيا أقضّـيهِ

يـا وحشَـةَ الدهرِ مِنْ عينِ الأنـامِ فقدْ ... خلَـتْ وجـوهُ الليـالي مِـنْ معاليـهِ

وقد أجاد شعراء العصر المملوكي رثاء ذويهم، وهذا أمر طبيعي، وجارَوْا مَنْ سبقهم في ذلك، بل أضافوا إلى الرثاء العربي نبضات إنسانية مؤثرة، حين رثوا إماءهم وعبيدهم، وأبعدهم الحزن والصدق عن الصنعة التي عُرِفَ بها شعرهم.

أما المراثي العامة فهي كثيرة جدًا تملأ بطون الدواوين، إذ نجد في شعر العصر المملوكي رثاء كثيرًا للملوك والسلاطين الوزراء والأمراء، وأضاف إليه الشعراء رثاء العلماء والأدباء، وتباين رثاء الأعلام بحسب مكانة الميت في المجتمع وصفاته، وإنجازاته، وبحسب موقعه من نفس الشاعر، فعندما توفي الظاهر بيبرس، صاحب الأمجاد الحربية والعمرانية، رثاه أدباء العصر رثاء حارًا، اقترب من رثاء الأهل، لأن مكانته في النفوس سامية، وإنجازاته كثيرة وكبيرة، وأقام العدل والأمن في دولته، ولذلك لا يمكن أن يُرثى رثاءً عامًا بعيدًا عن النفس، وإنما يُرثى مثل الأهل، وهذا ما ظهر في قول

---

(١) الديوان: ٣٦٤.

(٢) فوات الوفيات ١/٣٠٠.

محيي الدين بن عبد الظاهر فيه[1]:

ما مثلَ هذا الرُّزءِ قلبٌ يحمِلُ ... كلا ولا صبرٌ جميلٌ يجمُلُ

اللهُ أكبرُ إنها لمُصيبةٌ ... منها الرواسي خيفةً تتقلقلُ

ما المزمعاتُ تخوُّلتها رِعدةً ... أتركها إذ ليس يعقِل تُعقلُ

لهفي على الملكِ الذي كانتْ به الـ ... ـدُنيا تطيبُ وكلّ قفرٍ منزلُ

الظاهر السلطانِ مَنْ كانتْ لهُ ... مِننٌ على كلّ الورى وتطوُّلُ

لهفي على آرائِهِ تلكَ التي ... مثل السهام إلى المصالحِ تُرسَلُ

لهفي على تلكَ العزائمِ كيفَ قدْ ... غفلَتْ وكانتْ قبلَ ذا لا تغفلُ

سهم أصابَ وما رُئِيَ مِنْ قبلِهِ ... سهمٌ لهُ في كلّ قلبٍ مقتلُ

عبّر ابن عبد الظاهر بصدق وحرارة عن مصاب الأمة ببطلها، فالمصيبة به أكبر من أن تتحملها النفوس، لأن الأمة افتقدته في وقت كانت فيه شديدة الحاجة إلى بأسه وشجاعته، ومن هنا كان الحزن عليه جامعًا لكلّ أبناء الأمة، حتى وصل إلى موجودات الكون التي لا تعقل ولا تحس، ولا سيما أسلحته التي حقق بها انتصارات عظيمة.

وقلما خرج الشعراء على الرثاء التقليدي في رثاء أولي الأمر، فنجد هذه المراثي تقوم على الإشادة بصفات المرثي وكريم مزاياه، ساعية على قدمين: المبالغة والصنعة، ولكنها لم تخل من بعض المراثي الجيدة، ومنها ما قاله ابن نباتة في رثاء الملك المؤيّد[2]:

أروي بدمعي ثَرى ملكٍ له شِيَمٌ ... قدْ كانَ يذكُرها الصادي فتروِيهِ

ليتَ الحِمامَ خبا الأيامَ موهبةً ... فكانَ يُفني بني الدنيا ويُبقيهِ

---

(١) تاريخ ابن الفرات ٩١/٧.

(٢) الديوان: ٥٧٠.

أعـزِزْ عليَّ بـأن تبلـى شـمائلُه ... تحـتَ التـرابِ ومـا تبلـى أيادِيهِ

لهفي على المَلِكِ قدْ أهوتْ سناجِقُهُ ... إلـى التـرابِ وقـدْ حُطَّـتْ غواشِـيهِ

لهفي على الخيلِ قدْ وقَّتْ صواهلُها ... حـقَّ الغـزا فَهْـوَ يُشـجيها وتُشـجيهِ

والقصيدة طويلة تبلغ ثمانية وخمسين بيتًا تسير على هذا المنوال من التفجّع والبكاء وتعداد المحامد، وهي بمجموعها موفقة في اختيار المعاني والأفكار، فقد كان ابن نباتة معجبًا بالمؤيّد مقدّرًا لصفاته، وقد نفحه أجمل مدائحه في حياته كما رثاه بغير ما قصيدة بعد وفاته، وكانت هذه المرثية رمز وفاء للراحل بما فيها من سهولة في التعبير، وعفوية في الأداء، وتلوين في الأساليب، وجمال في الموسيقا، وهي تعيد إلى الأذهان جمال الديباجة العربية الأصيلة.

وقد وجد ابن نباتة نفسه في موقع صعب حين بلغه أن الملك الأفضل قد خلَفَ أباه المؤيّد، فلم يجد خيرًا من أن يسلك سبيل الوفاء لهذه العائلة التي رعته، فكرّم الملك الجديد -ومن حفه التكريم- من غير أن ينسى الراحل العزيز ويخون الودّ، فجمع بين التهنئة والتعزية بقوله[1]:

هَنـاءٌ مَحَـا ذاكَ العَـزاءَ المقـدَّما ... فمَـا غـبِنَ المحـزونُ حتّـى تبسّـمَا

تُغـورُ ابتسـامٍ فـي ثغـورِ مـدامعٍ ... شَـبيهانِ لا يمتـازُ ذو السَّـبقِ منهمَـا

نـزُدّ مجـاري الـدمعِ والبِشـرُ واضـحٌ ... كوابلِ غيثٍ في ضحى الشمسِ قدْ هَمَى

سـقى الغيـثُ عنّـا تربـةَ الملِـكِ الـذي ... غهـدْنا سـجاياه أبـرَّ وأكرمَـا

ودامـتْ يـدُ النُّعمـى علـى الملِـكِ الـذي ... تـدانتْ لـه الـدنيا وعَـزَّ بـه الحِمَـى

مليكـانِ: هـذا قـدْ هـوى لضـريحه ... بِرُغمـي، وهـذا للأسـرّةِ قـدْ سَـمَا

---

(١) الديوان: ٤٢٩.

وهي من روائع أدبنا، وموقف الشاعر فيها عجيب دقيق، ولا غرابة، فالمقام جليل يمتزج فيه الرزء الفادح بالفرح الغامر، ولا يُعذَرُ المقصّر.

أما رثاء الوزراء، فإنه يشبه رثاء السلاطين والملوك، ويفترق عنه بذكر بعض مآثر الفقيد التي عُرفت للوزراء آنذاك، مثل الكتابة والأدب، ولا يبالغ الشاعر في وصف وقع موت الوزير على الناس أو مشاركة الطبيعة للبشر في حزنها، مثل قول ابن نباتة في رثاء وزير[1]:

يـــا راحـــلًا تجـــبُ القلـــوبُ لفقـــدِهِ الصـــبرُ يمنـــعُ والبكـــاءُ يُبـــاحُ

تبكـــي عليـــكَ براعـــةٌ وبراعـــةٌ وفصـــاحةٌ ورجاحـــةٌ وســـماحُ

تبكـــي عليـــكَ مِـــنَ العلـــومِ صـــحائفٌ ومِـــنَ الجيـــوشِ أســـنَّةٌ وصِـــفاحُ

لا يشك قارئ هذا الرثاء بأن الشاعر صادق فيه، وأن الوفاء دافعه، فليس للوزير ولي عهد يرعى للشاعر موقفه، ويضمر له المكافأة عليه، ولم يعمد الشاعر إلى المبالغة أو إطلاق الأوصاف جزافًا، واكتفى بنقل معاني المدح إلى الرثاء بقرينه البكاء والحزن، فالرثاء مدح للميت فحسب.

ومن الرثاء الذي يدخل في العزاء رثاء نساء أولي الأمر، فلا المرأة مشهورة بموقع لها في المجتمع، ولا هي من خاصة الشاعر، وهو مضطر إلى رثائها تعزية لقريبها أو تقربًا منه، فيكون الأمر ضيقًا على الشاعر، يحتاج منه إلى دقة وحذر في ذكر مناقب الفقيدة، ولذلك يلجأ إلى الأمور العامة، وأوصاف ذوات الفضل، ويبتعد عن زجّ نفسه ومشاعره في هذا الرثاء، مثل رثاء ابن نباتة لوالدة كاتب السر بدمشق بقصيدة، يقول فيها[2]:

أذاتَ الحجـــى إن الحجـــابَ ليَمْنَـــعُ عـــنِ اللفـــظِ حتّـــى فـــي رثائـــكِ يُسـمَعُ

---

(١) الديوان: ١١٢.

(٢) الديوان: ٣٠٦.

ولكـــنَّ تعلـــويقي لَهْـــي ناصـــريةٌ تحـــثُّ علـــى أنّـــي أنـــوحُ وأســـجَعُ

ولـــمْ لا وقـــدْ أبصـــرْتُه مُتحرِّقـــا بفُرقـــةِ حِـــبٍّ راحـــلٍ لـــيسَ يرجـــعُ

فمـــا لـــيَ لا أرثـــي ثُقاهَـــا وفضْـــلها وأرثـــي لـــه والقلـــبُ حـــرّانُ مُوجَـــعُ

تخلص ابن نباتة من الحرج حين ربط بين الفقيدة وابنها، وحين أشار إلى أنه يشارك المتفضل عليه في حزنه وألمه، ثم بين ما افتقده الناس بموتها من العون والمساعدة، وأثنى على فضلها وعزى ابنها ومدحه.

ومن الجديد في الرثاء أو كالجديد ما توجّهَ شعراء العصر المملوكي به إلى العلماء والأدباء، والإكثار من رثائهم، حتى إذا قيس رثاء أولي الأمر برثاء العلماء كان قليلًا، فمثلما استحقّ العلماء المدح لمكانتهم وفضلهم، استحقوا الرثاء، لأن خسارتهم عند الناس كانت أفدح من خسارة الملاطين والأمراء، فهم الذين يتصلون بالناس، ويرفعون المظالم عنهم، وهم الذين يواسون الأدباء ويعطفون عليهم، فرثاؤهم مبعثه الحب والوفاء ومشاعر الحزن والخسارة بفقدهم، بل اعتقد الشعراء أن مدح العلماء ورثاءهم مما يُطلب به الأجر عند الله تعالى، لذلك أخلصوا في رثائهم وأكثروا، مثل قول ابن نباتة في رثاء قاضي القضاة[1]:

يـــا طالـــبَ الجـــودِ لا تُتعـــبْ أمانيكَـــا فقَـــدْ تغيَّـــبَ نجـــمٌ كـــانَ يَهْـــديكا

إنّـــا إلـــى اللهِ مِـــنْ دهيـــاءَ قـــد جعلَـــتْ معنـــى التصـــبُّرِ بـــينَ النـــاسِ متروكـــا

آهًـــا لِفقـــدِكَ نجـــمَ الـــدين مـــن رجُـــلٍ لـــو أنّ آهًـــا تـــروِّي غُلّـــتي فيكـــا

لهفـــي عليـــكَ لأحكـــامٍ مُســـدَّدةٍ تُـــدني إلـــى الغـــرَضِ الأقصـــى مراميكـــا

لهفـــي عليـــكَ لآدابٍ مُهذَّبـــةٍ لحظًـــا يُراعيـــكَ أو لفظًـــا يُناجيكـــا

أحال ابن نباتة رثاء القاضي إلى حزن خالص، ورصد العلاقة بينه وبين القاضي

---

(١) الديوان: ٣٦٧.

الفقيد، فاقترب برثائه من رثاء الأهل، فأظهر الحزن لفراقه، والأسى لموته، والخسارة في فقده، ربما كانت العلاقة وطيدة بين الشاعر والقاضي، فأجاد رثاءه، وجمع بين الموقف الذاتي والموقف الجماعي من وفاة القاضي، ولو لم يكن هذا القاضي محبّبًا إلى الناس عامة، والشاعر خاصة، لما وجدنا هذا الحزن الصادق عنده، ولما وجدنا هذا الإلحاح على ذكر فضائله وترديدها، ولما لمسنا هذه الحرارة في الرثاء.

وإذا نظرنا إلى رثاء العلماء الذين لم يتولّوا أعمالًا في الدولة، وعُرفوا بعلمهم واجتهادهم، وجدنا للرثاء لونًا آخر زاهيًا، إذ تتحكم العلاقة العلمية الخالصة في هذا الرثاء الذي لا تشوبه شائبة، ولا يُراد منه غرض نفعي، فإذا كان الشعراء يمدحون العلماء لفضلهم، فإنهم يرثون لافتقاد الفائدة التي كانت تعم الناس منهم.

أما رثاء الأدباء، فإنه على غير هذه الصورة في معظمه، لأن التعاطف بينهم قائم، فحالهم واحدة، وموت أحدهم يُنذر الآخر ويُذكّره بمصيره المحتوم، فيحاول الأديب إجادة رثاء صديقه، مثلما حاول إجادة مدحه، وذلك أنهم تبادلوا الرسائل الشعرية مع العتاب والمدح، فلماذا لا يرثي بعضهم بعضًا، وإذا كان الأديب نابهًا رثاه الأدباء جميعًا، وأوضحوا خسارة الأدب بموته، فعندما توفي أديب عصره الشهاب محمود، انهالت المراثي من الأدباء شعرًا ونثرًا، مثل قول صفي الدين الحلي فيه[1]:

لا تعجبنَّ فما في الموتِ من عَجَبِ ... إذْ ذاك حَدٌّ بهِ الإنسانُ محدودُ

فالمُستفادُ مِن الأيامِ مُرتَجَعٌ ... والمُستعارُ مِنَ الأعمارِ مردودُ

ألم يقولوا بأنّ الشُهْبَ خالدة ... طَبْعًا، فأين شِهابُ الدينِ محمودُ؟

مَنْ كانَ في علمه بين الورى علمًا ... يُهْدَى بهِ إن زَوتْ أعلامَها البِيدُ

لهُ اليراعُ الذي راعَ الخُطوبَ بهِ ... في حَلْبَةِ الطِّرسِ تصويبٌ وتصعيدُ

---

(١) الديوان: ٣٥٦.

إليكَ قد كان يُعزى العلمُ مُنتسِبًا والـيومَ فيكَ يعزّى العلمُ والجودُ

ومن طريف الرثاء قصيدة رثى فيها الشهاب المنصوري عددًا من الشعراء كانوا في القاهرة في عصر واحد، وكل منهم يدعى شهاب الدين، فكان يقال لهم السبعةُ الشُهُب، بقوله[1]:

خلت سماءُ المعاني من سنا الشُهُب فالآن أظلم أفقُ الشعرِ والأدبِ

لهفي عليهم إذ النّدُّ المساعُ بما أهْذوا إليه التذاذَ الذّوق بالعنَبِ

إنْ أبدلوا طَربي بالحُزنِ بَعْدهُمُ فطالما أبدلوا الأحزان بالطّربِ

زانوا بنظمِهِمُ الدنيا ولا عَجَبٌ إذا تزيّنتِ الظلماءُ بالشُهُبِ

فالرثاء متنوع في شعر العصر المملوكي، لم يسر على وتيرة واحدة، فيه الذاتية والتفكر، وفيه ذكر أوصاف الفقيد، اتسم بعضه بالصدق والحرارة، وغلبت على بعضه الآخر المبالغة والتصنع، تابع فيه الشعراء شعر الرثاء السابق، وأخذوا بعض ما استجدّ في عصرهم، وأكثروا رثاء العلماء والأدباء، وهذا ما لم نكن نجده كثيرًا في الشعر القديم، ومع ذلك لا يختلف كثيرًا عن الرثاء القديم، بل هو متابعة له واحتذاء لنهجه.

ويلحق بالرثاء أيضًا رثاء المدن المنكوبة، فقد كان لغياب شمس الخلافة عن بغداد التي هجمت تحت ركام الحرائق، وامتدت إلى كنوزها ونفائسها العلمية والأدبية براثن الوحشية؛ فأطاحت بالأسفار في عباب دجلة، كان لهذا أثره في استيلاء الحزن على نفوس الشعراء، فانكبوا يبكون وينعون، وهذا شمس الدين محمد بن أحمد الكوفي الواعظ (ت ٦٧٦هـ)، قد فارق أهله وأصدقاءه في بغداد على أمل اللقاء، إلا أن الفاجعة المروعة قد حالت بينه وبين ما أمّل، فقال[2]:

---

(١) بدائع الزهور ٣/٥٨.

(٢) فوات الوفيات ٢/٢٣٤-٢٣٥.

مـــا للمنـــازلِ أصـــبَحتْ لا أهلُهـــا ... أهلـــي ولا جيرانُهـــا جيرانـــي

ولقَـدْ قصـدتُ الـدارَ بعـدَ رحـيلِكمْ ... ووقفْـــتُ فيهـــا وقفـــةَ الحَيْـــرَانِ

وســـألتُها لكـــنْ بغيـــرِ تكلّـــم ... فتكلمـــتْ لكـــنْ بغيـــرِ لســـانِ

مـــا زلـــتُ أبكـــيهم وألـــثمُ ـوحشـــةً ... لجمـــالِهم- ممســـتهدَمَ الأركـــانِ

حتّـــى رثَـــى لـــي كـــلُّ مَـــنْ لا وجـــدُهُ ... وَجْـــدي ولا أشـــجانُه أشـــجاني

أثـــرى تعـــودُ الـــدارُ تجمعنـــا كمـــا ... كنّـــا بكـــلّ مَمَـــرّبةٍ وتهـــاني

هيهـــاتَ قـــدْ عـــزَّ اللقـــاءُ وســـدّتْ ... طـــرقَ المـــزارِ طـــوارقُ الحَـــدَثانِ

وَالهفتـــي وَاوحـــدتي وَاحيرتـــي ... وَاوحشـــتي وَاحـــرُّ قلبـــي العـــاني

لقد استبد بالشاعر الحزن، فطاف بمعالم بغداد يبكي، ويبحث في أرجائها، فلا يجد فيها أثرًا إلا الحرائق والخرائب، ويبدو أن حزن الشاعر على أحبائه قد طغى عليه، فلم يتناول معالم المدينة المنكوبة إلا تناولًا يسيرًا، بينما ذكر باللوعة والأسى ما حلّ بالمدينة الشاعر تقي الدين إسماعيل التنوخي، في قصيدته التي استهلّ مطلعها متخيلًا أن قادمًا يجهل الخطب، يتطلع إلى لقاء بني العباس، ويطمح إلى مجالسة العلماء والأدباء، فابتدره الشاعر قائلًا[1]:

لمســـائلِ الـــدمعِ عـــن بغـــدادَ أخبـــارُ ... فمـــا وقوفُـــك والأحبـــابُ قـــد ســـاروا؟

وما عاد الزائر أدراجه قافلًا، ولكنه ظل واقفًا لا يريم، وكأن النبأ أذهله هو وقافلته، فصرخ الشاعر فيهم، وهو المقطّب المكلوم:

يـــا زائـــرينَ إلـــى الـــزَّوراءِ لا تَقِـــفُوا ... فمَـــا بـــذاكَ الحِمـــى والـــدارِ ديّـــارُ

تـــاجُ الخلافـــةِ والرَّبـــعُ الـــذي شَـــرُفَتْ ... بـــهِ المعـــالمُ قـــدْ عفّـــاه إقفـــارُ

---

(١) النجوم الزاهرة ٤٨/٧ وما بعدها.

أضحى لعطف البلى في ربعه أثرٌ ... وللدموع على الآثار آثارُ

وكم ذخائرَ أضحتْ وهْيَ شائعة ... منَ النهابِ وقدْ حازتْه كفّارُ

وكمْ حدود أقيمتْ منْ سيوفِهِم ... على الرقابِ وحُطّتْ فيه أوزارُ

آلُ النبيّ وأهلُ العلم قدْ سُلِبُوا ... فمنْ تُرى بعدهم تحويه أمصارُ ؟!

ويتميّز هذا الضرب غالبًا بحرارة العاطفة وقوة التأثير، لأنه يصدر من قلوب حزينة ملتاعة، كما يمتاز بروعة التصوير، وعرض المشاهد المحزنة التي تزيد التأثير في النفوس، وتخضل حواشيه بالدموع، وتمتلئ بآهات الحزن والأسى، وهو يحاول أن يثير في الناس الأنفة والغيرة والعزيمة، فيتحدّث عن هتك الأعراض، وسبي النساء، وقتل الشيوخ والأطفال، وارتكاب المحرّمات والموبقات، قائلًا:

وهُمْ يساقونَ للموتِ الذي شهدوا ... النارُ يا ربِّ تصلاها ولا العارُ

يا للرجالِ لأحداثٍ تحدّثنا ... بما غدا فيه إعذارٌ وإنذارُ

ورثى بهاء الدين البهائي مدينة دمشق لما هاجمها (تيمورلنك)، ووصف ما حلّ بها من دمار وقتل وسبي على أيدي التتار سنة (٨٠٣هـ)، كما ذكر ما أصاب حماة وحلب فقال[1]:

لهفي على تلك البروج وحسنها ... حفّتْ بهنّ طوارقُ الحَدَثانِ

قُطراتُ جفْنٍ ترجمتْ عنْ حُرقتي ... فكأنهنّ قلائدُ العِقيانِ

أبني أميةَ أينَ يُمْنُ (وليدِكم) ... والمُغْلُ تقْتُلُ في ذرا الأركانِ

لم يرحموا طفلًا بكى فقلوبُهُمْ ... في الفتْكِ صخرٌ لا أبو سفيانِ

لم أدرِ منْ أبكي وأندب حسرةً ... للقصرِ للشُّرفاتِ للميدانِ

---

(١) مطالع البدور ٢/٣٠٠ وما بعدها.

للجبهـــــة الغـــــراء أم خلخالهـــــا للمـــــزة الغبجـــــا أم اللّـــــؤلؤ

جاءت هذه القصيدة لتكون تسجيلًا تاريخيًا مؤلمًا لحادث مشؤوم، ولهذا تبقى شاهدًا على العصر، وشاهدًا على ألم الشاعر لهذه المصيبة وألم الناس من حوله، ويبقى شعر رثاء المدن والأوطان صادقًا ومؤثرًا، لأنه يصدر عن تجربة قاسية معمّقة، تتجاوز محنة الشاعر الخاصة إلى حدث كبير يشمل الزمان والمكان المنظورين في البصر والبصيرة.

وأخيرًا نجد أنّ كثيرًا من الشعراء أجادوا النظم في غرض الرثاء، فجاءت قصائدهم تعبيرًا حقيقيًا عما يختلج في أنفسهم من دواعي الألم والفراق.

٥- أغراض شعرية مختلفة:

ثمة أغراض متعددة سنحاول الإشارة إليها بإيجاز:

١- الوصف:

وهو كثير في أشعارهم ومتنوع، فمنه ما يتناول موصوفات حسيّة مرئية غالبًا، ومنه ما يتناول أحاسيس باطنية؛ وهذه الأوصاف ربما وردت في مقطعات مستقلة، وربما جاءت ضمن أغراض أخرى:

فمن الأوصاف الحسية الظاهرة: وصف المعارك والخيول والمنجنيقات وأدوات الحروب كالسيوف والرماح والدروع، وحركات الجيوش، والملاحم، وحصار المدن والقلاع، ومن ذلك وصف الشهاب محمود لحصن المرقب، بقوله في مدح السلطان قلاوون[1]:

أوردتُها المرقبَ العالي وليسَ سوى ... ماءِ المجرةِ في أرجائِها نَهَرُ

تَعْلو الرياحُ إليهِ كيْ تحيطَ بهِ ... خبرًا، وتدْنو وما في ضمنِها خَبَرُ

وبومضُ البرقُ يهفو نحوَه لبرى ... أدنى رُباه ويأتي وَهْوَ معتذرُ

ومن بديع وصف العمائر، وصف الشهاب محمود لقلعة الروم التي فتحها الأشرف خليل سنة (٦٩١هـ)، وفيها يقول[2]:

مُحجّبةٌ بينَ الجبالِ كأنّها ... إذا ما تبدّتْ في ضمائرِنا سِرُّ

فبعضٌ رِسَا حتّى جرى الماءُ فوقَه ... وبعضٌ سَمَا حتى همى دونَه القَطْرُ

يحيطُ بها نهرانِ تبرزُ فيهما ... كما لاحَ يومًا في قلائدِهِ النحرُ

على هُضُبٍ ضُمّ بكلّ صخرُها الـ ... حديدُ وفيها عنْ إجابتِهِ وَقْرُ

---

(١) النجوم الزاهرة ٧/٢١٧.

(٢) فوات الوفيات ١/٤١٤.

لهـا طُـرقٌ كـالوشْيِ أعيَـا سـلوكه ... على الفِكرِ حتّى مـا يُخيّلُـه الفِكْـرُ

إذا خَطَـرَتْ فيهـا الريـاحُ تعثـرتْ ... أو الـدُّرُّ يومًـا زلّ عـن منتـهِ الـدُّرُ

هذا وصفُ مُشاهِد، أعجبه ما رأى وأدهشه، فنقل مشاهدته إلى الشعر مع المشاعر التي تنتاب من يراها، ومن هنا جاء إبداعه، إضافة إلى تمكّن الشاعر من أدواته اللغوية التي ساعدته على الدقة في نقل الجزئيات والإيحاءات التي يثيرها مرأى القلعة في النفس، وبلغ الشهاب محمود في وصف عظمة هذه القلعة ومنعتها الغاية، ليظهر من هذا الوصف الممتع عظمة فتحها وفاتحها.

ومن الأوصاف الحسيّة أيضًا وصف الطبيعة، والمناظر الفاتنة كالرياض والحدائق والقصور، ووصف البراري الموحشة والصحاري القاحلة والجبال العالية والسحب والأمطار والثلوج والبرق والرعد؛ وربما خلعوا على الطبيعة ومظاهرها الحياة، في فن تشخيصي رائع، فاستحالت في أشعارهم تغني وترقص، وتختال وتُزهى، وتسرق الخطو وتغار، يقول الحلّي في وصف الربيع[1]:

خلـعَ الرّبيـعُ علـى غصـونِ البـانِ ... حُـلـلًا فواضـلُها علـى الكُثبـانِ

وتتوّجَـتْ هـامُ الغصـونِ وضـرّجتْ ... خـدَّ الريـاضِ شـقائقُ النعمـانِ

وتنوّعَـتْ بُسُـطُ الريـاضِ فزهرُهَـا ... متبـايِنُ الأشـكالِ والألـوانِ

مِـنْ أبـيضٍ يَقـقٍ وأصـفرَ فـاقعٍ ... أو أزرقٍ صـافٍ وأحمـرَ قـانِ

والظـلُّ يسـرقُ فـي الخمائـلِ خَطْـوَهُ ... والغصـنُ يخطِـر خِطْـرَةَ النشـوانِ

وكأنّمـا الأغصـانُ سُـوقُ رواقـصٍ ... قـدْ قُيّـدتْ بسلاسـلِ الريحَـانِ

والشـمسُ تنظـرُ مـنْ خـلالِ فروعِهـا ... نحـوَ الحـدائقِ نظْـرةَ الغيْـرانِ

---

(١) الديوان: ٩٩.

والأرضُ تعجبُ كيف تضحكُ والحيَا ... يبكي بدمعٍ دائمِ الهَمَلانِ

حتّى إذا افترّتْ مباسمُ زهرِها ... وبكى السحابُ بمدمعٍ هتّانِ

ظلّتْ حدائقُه تعاتبُ جَوْنَهُ ... فأجابَ معتذرًا بغيرِ لسانِ[1]

طفحَ السرورُ عليَّ حتى إنه ... من عُظْمِ ما قد سرني أبكاني

فاصرفْ همومَك بالربيعِ وفضْله ... إنّ الربيعَ هو الشبابُ الثاني

هكذا يصف شعراء العصر المملوكي الطبيعة، يرسمون لها صورة متكاملة، تجمع موجوداتها، ويشبّهون كل جزء منها بما عهدوه في حياتهم، وينطقونها، ويضفون الوعي والمشاعر الإنسانية عليها، ويربطون بين الطبيعة والإنسان، فهي ملاذهم في فرحهم وترحهم، يبثون فيها همومهم، ويبثونها أسَاهم، مثل قول مجير الدين بن تميم[2]:

لِمْ لا أهيمُ إلى الرياضِ وزَهْرِها ... وأُقيمُ فيها تحتَ ظلٍّ وافِ

والغصنُ يلقاني بثَغْرٍ باسمٍ ... والماءُ يلقاني بقلبٍ صافِ

إنّ جوانب الوصف السابقة ليست هي الوصف كله، فإن لشعراء العصر المملوكي أوصافًا كثيرة، مثل وصف الطعام واللباس والحيوان، فقد وصف الشعراء في هذا العصر عددًا غير قليل من الحيوانات بعناية فائقة، متوقفين عند ملامحها الخارجية وفعالها وأوصافها المختلفة، وذلك ما نجده عند صفي الدين الحلي في أرجوزته (دُرَيْدِيّته) التي بلغت تسعة وعشرين بيتًا، متحدثًا فيها عن رحلة صيد، واصفًا الصقر المدرّب على الصيد، حجمه ولونه وهيئته العامّة؛ ثمّ مستعرضًا أعضاءه واحدًا واحدًا بقوله[3]:

---

(١) حدّق الزهر: ظهر حدقه أي تفتحت عيونه، والجون: السحب الممطرة.

(٢) الغيث المسجم ١/١٩٤.

(٣) الديوان: ٢٥٨-٢٥٩، والقِهْر: الحجر، أراد أن هامته (رأسه) قوية صلبة كالحجر رُضِعَ فوق صدره ونحره، والهَيْقُ: ذكر النعام، والصماخ: خرق الأذن الداخلية، أراد أن له رأسًا كرأس الظليم، وسمعًا كسمع النسر.

معتـــدلُ الشّـــأوِ شـــديدُ الأَزْرِ منفسِـــحُ الـــزَّوْرِ رحيـــبُ الصـــدْرِ

مُتَّسِـــعُ العـــينِ عـــريضُ الظهـــرِ بـــأعينٍ مســـودَّةٍ كـــالحِبْرِ

وهامـــةٍ عظيمـــةٍ كـــالفِهْرِ كـــأن فـــوقَ صـــدرِه والنَّحْـــرِ

هامـــةُ فَيْـــقٍ فـــي صِـــماخَيْ نَمِـــرِ طويـــلِ أَرْيـــاشِ الجنـــاحِ الغَشْـــرِ

قصـــيرِ ريـــشِ الـــذنَبِ المخْمَـــرّ قصـــيرِ عظْـــمِ الســـاقِ تـــامِ الظفُـــرِ

وقد وصف الشعراء ما شاهدوا من الطير باختلاف أنواعه، فوصفوا ألوانه وأصواته وقوته، ولو وقفنا عند سائر هذا الوصف لطال بنا المقام لكثرة الأمثلة فيه.

ويندرج وصف بعض الأشياء البسيطة المتداولة كالمخدّة والشمعة والسجادة وما شابه ذلك، تحت الأوصاف الحسية الظاهرة، يقول سراج الدين المحار (عمر بن مسعود ٧١١هـ) في وصف إبريق الفخّار[1]:

يـــا حبّـــذا شـــكلُ إبريـــقٍ تميـــلُ لـــهُ منّـــا القلـــوبُ وتصـــبو نحـــوَه الحَـــدَقُ

يســـروقُ لـــي حـــينَ أحلـــوهُ ويعجبنـــي منـــه طـــلاوةُ ذاكَ الجســـمِ والعنـــقُ

كـــمْ قـــدْ شـــربتُ بـــهِ مـــاءَ الحيـــاةِ ولـــنْ ينـــالَني منـــه لا غـــصٌّ ولا شـــرَقُ

حتّـــى غـــدا خجـــلًا ممـــا أقبّلـــهُ فظـــلَّ يَرْشَـــحُ مِـــنْ أعطافِـــهِ العَـــرَقُ

وفي وصف القنديل يقلب السراج المحار الأشياء، فيجعل الليل سوادَ العين، والقنديل باصرةَ تلك العين، فكلما ازداد سواد الليل ازداد القنديل توهّجًا واتقادًا[2]:

يـــا حســـنَ بهجـــةِ قنـــديلٍ خلـــوتُ بـــهِ والليـــلُ قـــدْ أســـبلتْ منّـــا ســـتائرَهُ

أضـــاءَ كالكوكـــبِ الـــدرّيّ متقـــدًا فـــزادَ باطنُـــهُ نـــورًا وظـــاهرَهُ

---

(١) فوات الوفيات ٣/١٤٧-١٤٨.

(٢) فوات الوفيات ٣/١٤٨.

تزيـــدُهُ ظلمـــةُ الليـــلِ البهـــيم ســـنًا كأنّمـــا الليـــلُ طـــرْفٌ وهـــوَ باصـــرُهُ

وقد أفاض الشعراء في وصف بيئتهم بكلّ ما فيها، ووصفوا ما تحويه هذه البيئة من مبان وآثار كما وصفوا أدوات هذه البيئة المتنوعة، وكلّ ما تقع عليه أعينهم، فوقفوا عند الطبيعة متأثرين بمباهجها وجمالها، ووقفوا عند مدنهم التي عاشوا فيها وأحبوها فوصفوا معالمها، وذكروا حسن بنائها، وبعض رموزها المعروفة، وكانت لدمشق خصوصية لم تحظ بها سائر الأمصار العربية، وغالب الظن أن دمشق تمتعت بالاستقرار النسبي أكثر من سواها، فضلًا عما كان لشعراء الشام من اهتمام بوصف طبيعة بيئتهم ومشاهدها الخلابة في العصور، وهذا ما جعل الشعراء في هذا العصر يقفون مأخوذين أمام جمال هذه المدينة وطبيعتها الساحرة، وتصف الشاعرة عائشة الباعونية الدمشقية مدينتها، وتتغنى بمعالمها، فهي كلها رياض وماء صاف وقصور عالية وعمران واسع[1]:

نـــزُه الطـــرفَ فـــي دمشـــق ففيهـــا كـــلُّ مـــا تشـــتهي ومـــا تختـــارُ
هـــيَ فـــي الأرضِ جنّـــةٌ فتأمـــلْ كيـــفَ تجـــري مـــن تحتِهـــا الأنهـــارُ
كـــم سَـــمَا فـــي ربوعِهـــا كـــلُّ قصـــرٍ أشـــرقَتْ مـــن وجوهِهـــا الأقمـــارُ
وتناغيـــكَ بينهـــا صـــادحاتٌ خرســـتْ عنـــدَ نطقِهـــا الأوتـــارُ
كلُّهـــا روضـــةٌ ومـــاءٌ زلالٌ وقصـــورٌ مَشِـــيدَةٌ وديـــارُ

ويحاول التلعفري أن يصف جبل قاسيون، ويتغنّى بربوع دمشق وغدرانها وطبيعتها التي كانت مجالس للسمر واللهو فيقول فيه[2]:

يـــا بـــارقَ الشّـــامِ خـــيِّ الأثـــلَ والبانـــا وانقـــلْ حـــديثَكَ عـــنْ لُبنـــى ولُبنانـــا

---

(١) الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة ٢٨٧/١.

(٢) الديوان: ٤٨، وجيرون: المعروف اليوم أن بابًا من أبواب الجامع بدمشق وهو الباب الشرقي يقال له جيرون، وقال قوم: جيرون هي دمشق نفسها، معجم البلدان ١٩٩/٢.

وهـاتِ مـا حملـتْ عطفـاك مِـنْ خبـرٍ ... فـإنّ لـي فـي ربـا جيـرون جيرانـا

سـقَتْ ليالـيـكَ بالأحبـابِ سـاريةٌ ... تعيـدُ ظـامئَ ذاكَ التـربِ ريّانـا

ولا تعـدّى الربـا مـن قاسـيونَ حَيّـا ... يعيـدُ فـوقَ الصباصـي منـه غُـدرانا

تلـك الربـوعُ التـي لـم تـأل مـذ عمـرت ... فـي الأرضِ للهـوِ والأوطـارِ أوطانـا

ويجمل شمس الدين البارزي[1] في وصف دمشق بأنّ لها منظرًا رائعًا، ويجد المرء في هذه المدينة ما يجعلها لا تقارن بأي مدينة أخرى، ولا سيما جامعها، يقول[2]:

دمشـقُ لهـا منظـرٌ رائـقٌ ... فكـلٌّ إلـى وصـلِها تـائقُ

فـأنّى يقـامُ بهـا بلـدةٌ ... أبـى اللهُ والجـامعُ الفـارقُ

وإذا ما وقف الشعراء يصورون مدنهم تصويرًا عامًا شاملًا فإنهم يقفون إزاء الطبيعة في هذه المدن، يصفون رباها وأنهارها، معجبين بألوان الزهور وأشكالها، ويتشوق ابن الصائغ إلى مدينة دمشق، فيصف طبيعتها الجميلة بقوله[3]:

فلكـمْ حَكَـتْ تلـك المنـازلُ صـورةً ... فيهـا الجمـالُ مُجمّـعٌ ومفـرّقُ

فمُعصفـرٌ ومـوَرّدٌ ومُعَمّـمٌ ... ومزنّـرٌ ومبرقـعٌ ومقرطـقُ

والـريح تكتـب والجـداول أسـطرٌ ... خـطٌّ لـه نسـجُ الربيـع محقّـقُ

والطيـرُ يقـرأ والنسـيم مُـرَدّدٌ ... والغصـن يـرقصُ والغـدير يصـفّقُ

ومعـاطفُ الأغصـانِ عنّتهـا الصّـبا ... طربًـا فـذا عـارٍ وهـذا مـورقُ

وكـأنّ زهـرَ اللـوزِ أصـدافٌ إلـى الـ ... ـزوّارِ مـن خلـل الغصـون تُحـدّقُ

---

(١) هو شمس الدين إبراهيم بن هبة الله البارزي الجهني الحموي الشافعي (ت٧٣٩هـ)، المنهل الصافي ١/١٧٩.

(٢) المنهل الصافي ١/١٧٩.

(٣) فوات الوفيات ٢/٢٨٠-٢٨١.

وكـــأنّ أشـــجار الريـــاض سُـــرادِقٌ فـــي ظلّهـــا مـــن كـــل لـــونٍ نُمْـــرقُ

والـــوردُ بـــالألوان يحلـــو منظـــرًا ونســـيمه عطـــرٌ كمســـكٍ يعبـــقُ

نجد هنا تشخيص الطبيعة بما فيها من منازل ورياح وجداول وطير ونسيم وأغصان وصبا وورد وأزهار، ويبثّ فيها الشاعر الحياة فيجعلها تحكي أو تكتب أو تُسطّر أو تقرأ أو تردد أو ترقص أو تصفق أو تغني أو تحدق النظر.

وهنالك وصف الأحاسيس الباطنية كوصف الشوق ولواعج الهوى، ووصف آلام الجوع والحرمان، والخوف من الفقر والعوز، ووصف غدر الأحباب وتقلّبات الزمان وما تخلّفه من آلام نفسية مرة، ومن هذا وصف السراج المحار للعاشق الولهان وصفًا يشفّ عن تجربة وجدانيّة عميقة وصادقة، ويتلمس أدقّ الإحساسات والمشاعر[1]:

مـــا بَـــثّ شـــكواه لـــولا ممنّـــهُ الألـــمُ ولا تـــأوّهَ لـــولا شـــقّهُ السّـــقَمُ

ولا تـــوهّم أنّ الـــدمعَ مهجتُـــه أذابهـــا الشـــوقُ حتّـــى ســـالَ وَهْـــوَ دَمُ

يُبـــدي التجلّـــدَ والأجفـــانُ تفضـــحُهُ كـــالبرقِ تبكـــي الغـــوادي وهـــو يبتســـمُ

سَـــقَتْهُ أيـــدي النـــوى كأسًـــا مُدَغْدَغـــةً فمـــا نـــداماه إلا الحـــزنُ والنـــدمُ

يُمســـي ويُصـــبح لا صـــبرٌ ولا جَلَـــدٌ ولا قَـــرارٌ ولا طَيْـــفٌ ولا حُلُـــمُ

أنّـــى يميـــلُ إلـــى السُّـــلوان مكتئـــبٌ بـــاقٍ علـــى الـــودّ والأيـــامُ تنصـــرِمُ؟

وهكذا نجد لشعراء العصر أوصافًا كثيرة، جاءت في موضوعات الشعر الأخرى، صوّر الشعراء بها حياة هذا العصر، ببنائه ومدنه ورياضه وحيوانه وطبيعته، وذكروا أوصاف حياتهم اليومية في منازلهم وخارجها، لدواعٍ فنية خالصة، ولأنّ الوصف أكثر موضوعات الشعر رحابة أمام الشاعر.

---

(١) فوات الوفيات ٣/١٤٨-١٤٩.

٢- السخرية:

وهو لون اجتماعي، يثير في الناس الضحك، وقد شاع في شعر العصر، وسرت فكاهةُ روحه البارعة في تضاعيف أشعارهم الوصفية والغزلية والهجائية وغيرها؛ ويلوح للدارس الممعن أن هذا اللون من الفكاهة كان تنفيسًا عن أحاسيس مكبوتة في نفوس شعرائه، ونقدًا اجتماعيًا هادفًا لاذعًا؛ فالشاعر يتعزّى ويسرّي عن نفسه ويعبر عن شقائه وينتفس عن طريق الفكاهة والطُّرفة، وأمثلة هذا اللون الشعري تكشف عن هذه الملامح؛ منها قول نصير الدين الحمامي المصري (٧١٢هـ) في داره المتهالكة[1]:

ودارٍ خـــرابٍ بهـــا قـــدْ نزلـــتُ ... ولكـــنْ نزلـــتُ إلـــى المـــابعهْ

طريـــقٌ مـــن الطُّـــرُقِ مســـلوكةٌ ... محجّتُهـــا للـــورى شاســـعهْ

فـــلا فـــرْقَ مـــا بـــين أنّـــي أكـــونُ ... بهـــا أو أكـــونُ علـــى القارعـــهْ

تُنـــاوِرُها هَفـــواتُ النســـيمِ ... فتُصـــغي بـــلا أذن ســـامعهْ

وأخْشَـــى بهـــا أنْ أقـــيمَ الصـــلاةَ ... فتســـجدَ حيطانُهـــا الراكعـــهْ

إذا مـــا قـــرأتُ: (إذا زُلزلـــتْ) ... خشـــيتُ بـــأنْ تقـــرأ (الواقعـــهْ)

ومن الشعراء الذين افتنّوا في السخرية من بيوتهم للدلالة على سوء أحوالهم ابن دانيال الذي وصف بيته في قوله[2]:

أصـــبحتُ أفقـــرَ مـــن يـــروحُ ويغتـــدي ... مـــا فـــي يـــدي مـــن فاقـــةٍ إلا يـــدي

فـــي منـــزلٍ لـــم يحـــوِ غيـــري قاعـــدًا ... فـــإذا رقـــدتُ رقـــدتُ غيـــرَ مُمـــدَّدِ

لـــم يبـــقَ فيـــه ســـوى رســـومِ حصـــيرةٍ ... ومِخـــدَّةٍ كانـــت لأمِّ المهتـــدي

---

(١) خزانة الأدب ٢/٢٥١.

(٢) المختار من شعر ابن دانيال: ١٥٤.

والفـأرُ يـركضُ كـالخيول تسـابقتْ مـن كـلّ جـرداءِ الأديـمِ وأجْـرَدِ
حشـراتُ بيـتٍ لـو تلقّـتْ عسـكرًا ولّـى علـى الأعقـابِ غيـرَ مُـرتدِّ

ومن الشعراء الذين غلب على شعرهم الظرف والدعابة أبو الحسين الجزار (٨٦٧٩هـ)، ومن أظرف أهاجيه ما قاله في زوجة أبيه، وكانت شمطاء طرشاء[١]:

تـزوّجَ الشـيخُ أبـي شـيخةً ليـس لهـا عقـلٌ ولا ذهْـنُ
لـو بـرزتْ صـورتُها فـي الـدُّجى مـا جسـرتْ تبصـرُها الجـنُّ
كأنّهـا فـي فَرْشـها رُمّـةٌ وشَـعْرُها مـن حولهَـا قُطْـنُ
وقائـلٍ قـالَ لـي: مـا بـالُها فقلـتُ: مـا فـي فمهـا سـنُّ

ثمّ قال فيها بعد أن مات أبوه[٢]:

أذابـت كُلَـى الشـيخ تلـك العجـوزُ وأرْدَتْـهُ أنفاسُـها المُرْدِيَـهْ
وقـد كـان أوصـى لهـا بالصّـداقِ فمـا فـي مصـيبته تعزيَـهْ
لأنـي مـا خلـتُ أنّ القتيـ ـل يُوصـي لقاتِلـه بالديَـهْ

فقد عمد الشاعر إلى التضخيم المجازي، والتلاعب اللفظي البديعي، لينقل إلينا صورة منفّرة عنها، تحمل كلّ معاني السخرية والاستهزاء، والجزار نفسه لا يتورّع عن سخريته من نفسه، فإذا ألمّتْ به ضائقة من الجوع أو البرد أو الاتّساخ، فإنّه لا يبالي إذا ما رسم لنا لوحة متعدّدة الألوان، مثيرة للضحك والشفقة في آن واحد[٣]:

لبسْـتُ بيتـي، وقـد زرّرتُ أبـوابي علـيّ حتـى غسـلتُ اليـومَ أثـوابي

---

(١) فوات الوفيات ٢٩٢/٤.
(٢) المصدر نفسه.
(٣) فوات الوفيات ٢٩٢/٤، والمستطرف ٧/٢-٩.

وقد أزالَ الشتا ما كان من حمقي ... دعني فمستوقد الحمّام أولى بي

أنامُ في الزّبل كي يَدفا به جسدي ... ما بين جمر به، ما بين أصحابي

وما تراقصتِ الأعضاءُ في جسدي ... إلّا وقد صفقتْ بالبرد أنيابي

ومن سخريته أيضًا قوله في حماره الذي اتخذه هزوًا، ومادة دعابة، حتى إن حمار الجزار كان أشهر من بغلة البهاء زهير[1]:

هذا حِمارٌ في الحمير حِمَارُ ... في كلّ خطْوٍ كبوةٌ وعثارُ

قنطارُ تبنٍ في حشاه شعيرةٌ ... وشعيرةٌ في ظهره قنطارُ

وقوله فيه وقد نَفَق[2]:

ماتَ حمارُ الأديبِ قلتُ لهمْ: ... مَضَى وقد فاتَ منهُ ما فاتا

مَنْ ماتَ في عزّه استراحَ ومَنْ ... خلّفَ مثلَ الأديبِ ما ماتا!!

ولا يخجل الجزار أن تكون حرفته موضع سخرية أيضًا، وما أكثر ما قاله في ذلك، ومن أبرز الأمثلة قوله[3]:

ألا قُلْ للذي يسـ ... ـألُ عن قومي وعن أهلي

لقد تسألُ عنْ قومٍ ... كرامِ الفرعِ والأصلِ

يُريقونَ دمَ الأنعـ ... ـامِ في حَزْنٍ وفي سَهْلِ

وما زالوا لِما يُبْدو ... نَ من بأسٍ ومِنْ بذلِ

يُرجّيهمْ بنو كلـ ... ـبٍ ويخشاهم بنو عِجْلِ

ولهذا الشعر الساخر وقعه الخاص على الأسماع، إذ يتوافر فيه قدر كبير من الفنّ

---

(١) و(٢) الغيث المسجم ٢/٢٤٥.

(٣) الغيث المسجم ١/١٠١-١٠٢.

الرفيع، بروق الناس ويُدهشهم ويُبهرهم، ويُشبع حاجاتهم الفكرية والنفسية، وينفذ إلى نواح حسية وجمالية، ومن ذلك قول الجزار [1]:

قطعتُ شبيبتي وأضعتُ عمري ... وقد أتعبتُ في الهذيان فكري

وما لي أجرة فيه ولا لي ... إذا ما تبتُ يومًا بعضُ أجرِ

قرأت النحو تبيانًا وفهمًا ... إلى أن كِعْتُ فيه وضاقَ صدري[2]

فما استنبطت منه سوى مُحال ... يحالُ به على زيدٍ وعمرِو

فكان النصبُ فيه عليَّ نصبًا ... وكان الرفعُ فيه لغيرِ قدري

وكان الخفضُ فيه جلّ حظّي ... وكان الجزم فيه لقطعِ ذكري

وفي علم العَروضِ دخلتُ جهلًا ... وعُمتُ لِخِفّتي في كلّ بحرِ

مفاعلتن مفاعلتن فعولن ... حديث خرافةٍ يا أم عمرِو

ومن شعراء العصر من سلك سبيل نظم "البدهيات" كأنما يعرّف الماء بعد الجهد بالماء، وقد امتاز بهذا اللون الشاعر أبو الحسين بن سودون القاهري (٨٦٨هـ) صاحب "نزهة النفوس ومضحك العبوس" و"قرة الناظر ونزهة الخاطر". من ذلك قوله[3]:

البحرُ بحرٌ والنخيلُ نخيلُ ... والفيلُ فيلٌ والزرافُ طويلُ

والأرضُ أرضٌ والسماءُ خلافُها ... والطيرُ فيها بين ذاك يجولُ

وإذا تعاصفت الرياحُ بروضةٍ ... فالأرضُ تثبتُ والغصونُ تميلُ

مَنْ ظنّ أنّ الماءَ يُشبعُ جوعَهُ ... هذا لعَمْري ذاهلٌ بهلولُ

---

(١) فوات الوافيات ٤/٢٨٥.

(٢) كِعْتُ عنه: إذا هبته وجبنت عنه.

(٣) نزهة النفوس ومضحك العبوس: ١٤٣.

لكنْ مَنْ قد عَامَ فيه بثوبه تلقاه بُلْ، وثوبُه مبلولُ

اسمعْ أخيَّ فوائدًا صَحَّتْ فعن أهلِ التجاربِ كلُّ ذا منقولُ

إنّه في هذا التحامق يتوسل بادّعاء المعرفة وإبداء الدهشة من (لا شيء)، وكأن الحياة أصبحت عنده عبثًا بلا معنى وبلا غاية، غرائبها بدهيات، وبدهياتها غرائب، ويعدّ ابن دانيال واحدًا ممن رفدوا هذا التيار العبثي، يقول مفتخرًا بذكائه وعبقريته[1]:

أنا لو رُمْتُ للعلاج طبيبًا ما تعدّيتُ دكّةَ البيطارِ

بعدما كنتُ مِنْ ذكائي أدري أنّ بابي من صنعةِ النجارِ

أحرزُ البيضَ قبل ما يكسروه أنّ فيه البياضَ فوقَ الصفارِ

ويعيني تفلّتُ كوزِ نحاسٍ كانَ عندي أقوى من الفخّارِ

وكثيرٌ يُسيء على شيبِ رأسي حفظُ هذي الأشياء مثلَ الكبارِ

وهذه قمة العبث الذي صدر من ادّعاء المعرفة (الزائفة) وسرد البدهيات، وقد تبدو في ظاهرها مدعاة للضحك الساذج، ولكنها في الحقيقة مدعاة للضحك الراقي الذي ينشدُه الشعر الساخر.

وهكذا مال الشعراء إلى السخرية من كلّ شيء، وأضحت السخرية اتجاهًا قائمًا بنفسه في الأدب، اتخذه الشعراء متنفّسًا لمعاناتهم، وتعويضًا عن شكواهم، فنجدهم يسخرون من أنفسهم ومن مهجويهم، ووصل بعضهم إلى العبث الخالص، وكأنهم نقموا على العقل الذي أوصلهم إلى ما لا يُعقل.

---

(١) خيال الظل وتمثيليات ابن دانيال: ١٧٩-١٨٢.

٣- الزهد والتصوف:

الزهد لغةً: الرغبة عن الشيء والإعراض عنه، واصطلاحًا: هو الانصراف عن الدنيا ومفاتنها، والتمسك بالتقوى والعمل الصالح مع الكسب والعمل، أي ألا يتعلق قلب الإنسان بالدنيا وزينتها وإن كانت بين يديه، ويمثل هذا المفهوم القول المأثور: "اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدًا، واعمل لأخرتك كأنك تموت غدًا"، فالزهد ينبع من التوفيق بين الحياة الدنيا والآخرة، مع الالتزام بأوامر الله عزّ وجلّ.

وإنّ إنعام النظر فيما وصل إلينا من شعر زهدي في هذا العصر يمكّننا من الوقوف على أبرز معاني الزهد فيه، وهي معانٍ لا تخالف ما اصطلح عليه الشعراء العرب الذين اشتهروا بهذا الفن، فقد ضمّن الشعراء زهدياتهم مجموعة من المعاني: كالتزهيد في الدنيا، والترغيب في الجنة، ودعوة النفس إلى التحلّي بمكارم الأخلاق، وطاعة الله في كلّ ما أمر به، وتجنب معصيته، والإكثار من ذكر الموت وهول القبر، نجد هذا في قول الشرف الأنصاري[1]:

أينَ القلوبُ الرواجفْ؟ أينَ الدموعُ الذوارفْ؟

على ارتكابِ ذنوبٍ لم يُحْصِها وصفُ واصِفْ

فابْكِ الدماءَ إلى أنْ تَخالَ جفنَكَ راعِفْ

وارغبْ إلى الله تظفرْ مِنْ بِرِّهِ بِلطائفْ

وازهدْ بقلبِكَ فيما لَهُ عَهدُنكَ آلِفْ

وكان ممن ضرب في ميدان الزهد في هذا العصر بسهم وافر ابن نباتة، ففي ديوانه كثير من الأبيات والقصائد التي دعا فيها إلى العزوف عن الدنيا، ونعى عليها فتونها،

(١) الديوان: ٢٤٤.

وندم على ذنوبه، وزجر نفسه، ودعا ربّه، وذكر الموت، ومن ذلك قوله[1]:

إليكَ مديرَ الكأسِ عنّي فإنّني ... رأيتُ دموعَ العينِ أنقعُ للصّدَى

كفى ما استبنتُ اليومَ لي مِنْ جرائمٍ ... إذا لمْ أبدّلها فيا خجلتي غدا

بروحي أناسٌ قبلَنا قدْ تقدّموا ... ونادَوا بنا لو أنّنا نسمعُ النّدا

فريدونَ في أجداثِهم بفعالِهم ... وكمْ بينَهم مَنْ ساقَ جُنْدًا مُجَنّدا

تَساوَوا عِدا تحتَ الثّرى وأحبّةً ... فلا فرقَ ما بينَ الأحبّةِ والعِدا

كما أفرد لهذا الغرض قصيدة طويلة، جمع فيها أسبابه ومعايب الحياة التي تنفّرُ منها، بدأها بالندم والاستغفار وإعلان الزهادة في الدنيا، وأنّه لم يعد يأسى على فراقها، ولا يحزن على انقضائها، فليست في نظره غير سجن فيه الهمّ والنكد، وما نفع عيشه إن لم تسعه رحمة الله، يقول[2]:

أستغفرُ اللهَ لا مالي ولا وَلَدي ... آسى عليهِ إذا ضمّ الثرى جَمَدي

عِفتُ الإقامةَ في الدنيا لو انشرَحَتْ ... حالي فكيفَ وما حظّي سوى النّكَدِ

ما نافعي سَعَةٌ في العيشِ أو حَرَجٌ ... إنْ لم تَسَعني رُحْمى الواحدِ الصّمَدِ

وأخذ ينعى على المال والبخيل والمتكبّر والواثق بالليالي، ويذكرهم بلقاء الموت وبطش الدهر وقهر النفس، يقول[3]:

يا جَامعَ المالِ إنّ العُمْرَ مُنصرِمٌ ... فابْخَلْ بمالِكَ مهما شِئتَ أو فَجُدِ

ما لي أسَرُّ بيومٍ نِلتُ لذّتَه ... وقدْ ذوى معَه جُزْءٌ من الجسَدِ

---

(١) الديوان: ١٣٩.

(٢) الديوان: ١٢٥.

(٣) الديوان: ١٢٥-١٢٦.

لا تُخْدَعَنّ بشهدِ العيشِ تَرْشُفُهُ ... فأيُّ سُمّ ثَوى في ذلك الشَّهَدِ

كم واثقٍ بالليالي مَدّ راحتَهُ ... إلى المَرامِ فنَاداه الحِمامُ قَدِ

فهذه اللذائذ كالسمّ في العسل تودي متعتها بمن نالها، لذا هو يُزهّد في الدنيا ومتاعها ويرغّب في الآخرة ويَرْغَب فيها.

لذلك نجد الصرصري أيضًا يعاتب نفسه الميّالة إلى الدنيا، ويزجرها زجر الزاهدين الذين يريدون تخليص قلوبهم من حب الدنيا، وجعلها خالصة لله تعالى، فيقول[1]:

يا قسوةَ القلبِ ما لي حيلةٌ فيك ... مَلَكْتِ قلبي فأضحى شرَّ مملوكِ

حجبْتِ عني إفاداتِ الخشوعِ فلا ... يشفيكِ ذكرٌ ولا وعظٌ يداويكِ

وأنتِ يا نفسُ مأوى كلّ مُعْضلةٍ ... وكلّ داءٍ بقلبي مِنْ عواديكِ

أنتِ الطَّليعةُ للشيطانِ في جَسَدي ... فليسَ يدخلُ إلا مِنْ نواحيكِ

يا نفسُ توبي إلى الرحمنِ مُخْلِصةً ... ثمّ استقيمي على عَزْمٍ يُنَجّيكِ

ولعلّ الشاعر ابن الوردي من أكثر شعراء العصر ميلًا إلى التزهّد في أشعاره، وإسداء النصيحة إلى الناس بهجر الدنيا وزخارفها، والسعي إلى الآخرة بالعمل الصالح والتقوى، ويتجلّى ذلك في كثير من قصائد ديوانه، ولا سيما قصيدته اللاميّة التي قدّم فيها لابنه وللأجيال من بعده عصارة عمره وتجربته الطويلة في الحياة ليجنّبهم الزلل والعثار، وقد بدأها بمقدّمة يدعو فيها إلى هجر المنكرات، وينصح الإنسان بأن يفكر في نهاية الحسن المادّي لمن يحبّ، وكيف ستطويه الشيخوخة وتغيّبه القبور، فهو إذًا في نعيم زائل مؤقت، لا يستحقّ أن يضحّي الإنسان من أجله بنعيم الجنة الأبدي، يقول[2]:

إعْتَزِلْ ذِكْرَ الأغاني والغَزَلْ ... وقِلِ الفَضْلَ وجَانِبْ مَنْ هَزَلْ

---

(١) فوات الوفيات ٤/٣١٥.

(٢) الديوان: ٤٣٥ وما بعدها.

وَدَعِ الـــذِّكرى لأيّـــامِ الصِّبـــا فلأيّـــامِ الصِّبـــا نَجْـــمٌ أفَـــلْ

واتْـــرُكِ الغَـــادَةَ لا تَحْفِـــلُ بهـــا تُمْـــسِ فـــي عِـــزٍّ رفيـــعٍ وتُجَـــلْ

وافتكِـــرْ فـــي مُنتهـــى حُسْـــنِ الـــذي أنـــتَ تهـــواهُ تجِـــدْ أمـــرًا جَلَـــلْ

واهجـــرِ الخَمْـــرةَ إنْ كنـــتَ فتًـــى كيـــفَ يَسْـــعى فـــي جُنـــونٍ مَـــنْ عَقَـــلْ

ثمّ ينتقل إلى الحث على تقوى الله عزّ وجلّ، فالحياة قصيرة مهما طالت، والموت محتوم على كلّ إنسان، لذا نراه ينبّه على خطر الانغماس بملذات الدنيا، داعيًا إلى الزهد فيها، وترك الانخداع بأباطيلها، ومن ذلك قوله:

واتَّـــقِ اللهَ فتقـــوى اللهِ مَـــا جَـــاوَزَتْ قلـــبَ امـــرئٍ إلّا وَصَـــلْ

كُتِـــبَ المـــوتُ علـــى الخَلْـــقِ فكَـــمْ قَـــلَّ مِـــنْ جـــيشٍ وأفنَـــى مِـــنْ دُوَلْ

واتْـــرُكِ الـــدنيا فمِـــنْ عاداتِهَـــا تَخفِـــضُ العـــالي وتُعلـــي مَـــنْ سَـــفَلْ

وهو يدعو إلى الرضا بالقليل في الدنيا طلبًا للكثير الدائم، فنعيم الدنيا مهما عظم زائل ويُغني قليله عن كثيره ، يقول:

مُلْـــكُ كِسْـــرى عنـــهُ تُغْنـــي كِسْـــرةٌ وعَـــنِ البحـــرِ ارتشـــافٌ بالوَشَـــلْ

هذا وإنّ حتمية الموت وزوال الدنيا لا يعني اليأس من الحياة والاستسلام، ولا يعني القنوط والإعراض عنها، بل يعني الرغبة في حياة خالدة وعد بها ربّ العزّة، والدعوة إلى حياة أعظم، إنّها حياة الخلد في الدار الآخرة، هذه الحياة التي تستحقّ من الإنسان أن يهجر النوم في سبيلها، وأن يحقر كل جهد من أجلها، وأن يطلب العلم حبًا ورغبة، يقول:

اطْلُـــبِ العِلْـــمَ ولا تكْتَـــلْ فمَـــا أبعَـــدَ الخيـــرَ علـــى أهْـــلِ الكَسَـــلْ!

واهْجُـــرِ النـــومَ وحصِّـــلْهُ فمَـــنْ يَعـــرِفِ المطلـــوبَ يَحْقِـــرْ مَـــا بَـــذَلْ

لا تقُـــلْ قَـــدْ ذهَبَـــتْ أربابُـــهُ كـــلُّ مَـــنْ ســـارَ علـــى الـــدربِ وَصَـــلْ

فالزهد في هذا العصر دعوة إلى الحياة وإلى العمل وإلى العلم، وهذا ما جسّده تقي الدين السبكي بقوله[1]:

لَعَمْـــرُكَ إنّ لـــي نفسًـــا تَسَـــامي ... إلـــى مَـــا لَـــمْ ينـــلْ دارا بـــنُ دارا

فمِـــنْ هَـــذا أرى الـــدنيا هَبَـــاءً ... ولا أرضَـــى ســـوى الفـــردوس دَارا

إنه ينطلق من نفس كبيرة، لا تتسع لها الدنيا ومغانمها، وتتسامى فوق مُلك الأرض وزينتها، لأنه يتوق إلى حياة أعظم، هي حياة الخلد في الفردوس الأعلى.

وأما التصوف ففلسفة متكاملة لتفسير الوجود، لها مبادئها وسلوكها ورياضاتها الروحية، وصلت إلى غايتها قبيل هذا العصر، وعبّر المتصوفة عن آرائهم ومشاعرهم شعرًا، وأظهروا فيه وجدهم وعواطفهم.

وعمد شعراء التصوف في التعبير عن حبّهم الإلهي إلى ألفاظ الحبّ الإنساني، وما يتّصل به من وصل وهجر ولوعة ونحول، كما عمدوا إلى وصف الخمر وحانها وغير ذلك من الأوصاف التي نجدها في الشعر الغزلي والخمري، فهذا شمس الدين الكوفي يُشْهِدُ على حبّه شهودًا عدولًا؛ هي سهاده ودمعه ونحول جسده وشوقه المبرح للقاء المحبوب، فيقول:

شـــهودُ غرامـــي فـــي هـــواك عُـــدولُ ... ســـهادٌ ودمـــعٌ ســـائلٌ ونحـــولُ

وشـــوقي إلـــى لقيـــاك شـــوقٌ مبـــرِّحٌ ... ولـــي شـــرحُ حـــالٍ فـــي الغـــرام يطـــولُ

تُـــرى هَـــلْ لنـــا بعـــدَ الفـــراقِ تـــآلفٌ ... وهَـــلْ لـــي إلـــى طيـــبِ الوصـــالِ وُصـــولُ

لأشـــكو إليـــه مـــا لقيـــتُ ومـــا الـــذي ... جَـــرَى لـــي ودَمعـــي شـــاهدٌ ودليـــلُ

فالشاعر في سهاد دائم، أضنته لهاريح الصبابة ولواعج الغرام، لا يقرّ له قرار، ولا يهدأ له بال ما دام بعيدًا عن الحبيب، وقد اتّخذ من الحبّ مذهبًا لأنه ينظر بعين القلب،

---

(١) البدر الطالع ٤٦٨/١، ودارا: أحد ملوك الفرس القدامى.

ورأى ألّا أحد يستحق المحبة على الحقيقة إلا الله بعد أن ملك عليهم أرواحهم، فغدا الحبّ محور إبداعهم وحياتهم الذي لا يبغون عنه حولًا ولا يصدرون عن غيره، والصوفي الحق هو الذي يُمضي حياته محترقًا بنار الشوق والمحبة والهيام، ويستعذب الألم في سبيل الله، وهذا مذهب جديد في الحب، الحبّ الذي يكون عذابًا ولَهنًا للمحب، والمحبُّ مع ذلك يستلذه ويحمده، ويقبل عليه وكأنه يحبّ العذاب في الحب كما يحبّ الحبّ نفسه، وكما يحب محبوبه الذي يتجه إليه دائمًا بعواطفه ومشاعره، وهذا ما نجده عند عبد الغفار بن أحمد بن نوح القوصي (٧٠٨هـ) إذ يقول[1]:

أنـــا أفتـــي أنّ تـــرْكَ الحُـــبِّ ذنـــبٌ ... أثـــمٌ فـــي مَـــذْهبي مَـــنْ لا يحـــبُّ

ذُقْ علـــى أمْـــري مَـــرارةَ الهَـــوى ... فهْـــو عـــذبٌ وعَـــذاب الحـــبّ عـــذبُ

كـــلُّ قلـــبٍ لـــيسَ فيـــه ســـاكنٌ ... صَـــبوةً عُذْريـــةً مَـــا ذاكَ قلـــبُ

إنّ الحبّ الحسي يتجه إلى الخَلْق، أمّا الحب الروحي فوجهته ذات الحق، والحقّ كما يصوّره الشعراء المحبّون هو الجمال الأزلي المطلق المعشوق على الحقيقة في كلّ جميل، لذا يلحّ الصوفيون على تصوير مظاهر الحبّ الحسي لأنّ الجمال المحسوس هو وسيلتهم إلى الجمال المطلق، وحول ذلك يقول عفيف الدين التلمساني (٦٩٠هـ)[2]:

أبْـــدًا بِـــذكرِكَ تنقضـــي أوقـــاتي ... مـــا بـــينَ سَـــمّاري وفـــي خلَـــواتي

يـــا واحِـــدَ الحســـنِ البـــديعِ لذاتِـــهِ ... أنـــا واجِـــدُ الأحـــزانِ فيـــكَ لـــذاتي

ويحبّـــكَ اشـــتغلتْ حَوَاسِـــي مثلمـــا ... بجمالِـــكَ امـــتلأتْ جميـــعُ جهـــاتي

لاشكّ إذًا أنّ الشاعر ينتمي من معين مذهب الحبّ الصوفي، الحبّ الذي يكرّس حالًا استغراقيةً وتماهيًا في المحبوب يصل إلى حدّ الفناء عن عالم الحواسّ، والحضور كلية

---

(١) الطالع السعيد: ٣٢٤.

(٢) الديوان: ٤٣.

في عالم (الحق)، وذلك أنّ شرط المحبة الصوفية هو فناء المحب عن كلّ تعلّق قلبي بأمور الوجود، كي لا يشتغل القلب بحب الموجودات، فينشغل عن حبّ مُوجِد الموجودات، يقول الشاعر نجم الدين محمد بن سوّار الدمشقي منتشيًا ومتلذّذًا[1]:

وَشَغلتمُ كلّي بكمْ وجَوارحي ... وَجوانحي أبدًا تحنُّ إليكمُ

وإذا نظرتُ فلستُ أنظرُ غيرَكُمْ ... وإذا سمعتُ فمنكمُ أو عنكمُ

وإذا نطقتُ ففي صفاتِ جمالِكُمْ ... وإذا سألتُ الكائناتِ فعنكُمُ

كما عبّر المتصوفة عن معنى أكثر دقة ورهافة في العلاقة بين المحبة والفناء، فنراهم يقولون بوجوب فناء المحبّ حتى عن محبته لله، وذلك حين يصل بالفناء إلى أن يفنى فيها عن نفسه وعن محبته، بحيث لا يبقى إلا المحبوب المدهش للعقول بأنوار تجلياته، فعند هذه الدهشة يفنى المحب عمّا سوى المحبوب، يقول الشيخ إبراهيم الدسوقي (٦٧٦هـ) واصفًا حاله عندما تجلّى له المحبوب الأعظم[2]:

تجلّى لي المحبوبُ في كلّ وجهةٍ ... فشاهدتُه في كلّ معنًى وصورةِ

وخاطبني منّي بكشفِ سرائري ... فقالَ أتدري مَنْ أنا؟ قلتُ: مُلْبتي

وغيّبني عنّي فأصبحتُ سائلًا ... لِذاتي عَنْ ذاتي بِشُغلي بِغيبتي

إنّه شعر يتأجج بالمحبة، ويتحرّق بالعشق، ويمتلئ صدقًا، ويفيض عذوبة، لم يقله أصحابه تزويقًا للغة أو تكسبًا للمال أو لنيل شهرة، وإنما غلب عليهم سكر المحبة، فتغذّوا بها واستبدّ بهم الوجد فأنشدوا.

وقد يذهب بعضهم في معاني الوجد إلى استعارة معاني الخمر، والخمر هنا هي خمر الحبّ الإلهي التي تسكر الواجد وتفقده وعيه، ويستعير الشاعر للخمر صفات من الحسّ،

---

(١) فوات الوفيات ٣/٣٨٦.

(٢) الطبقات الكبرى للشعراني ١/١٨٢.

ويتحدّث عن عصيرها واحتسائها وكؤوسها وسُقاتها، إلى أن يتصل بالله عزّ وجلّ، فيرى جمالًا باقيًا في دنيا غير دنياه، يقول ابن أسعد اليافعي (٧٦٨هـ):

شَرِبْنا خُمرًا الكأس في قُدْسِ حَضْرةٍ ... وأُكْرِمْ بها في حَضْرةِ القُدْسِ مِنْ خَمْرِ

لنا عُصِرَتْ مِنْ كرمِ نورِ جمالِ مَنْ ... سَقانا وقَدْ غِبْنا وحِزْنا فما ندري

سَكِرْنا بها مِنْ شَمِّها قبلَ شُربِها ... نَشاوى بريّاها إلى آخرِ الدَّهْرِ

إنّ الخمر هُنا تنتقل بهؤلاء السكارى من أجواء الواقع الأرضي والجسدي إلى عالم سماوي، تُحلّق فيه الروح نشوان بغبة الظفر بحال من أحوال الصفاء والوجد، وفي هذا يقول الشيخ إبراهيم الدسوقي معبّرًا عن تجربته الصوفية، واستغراقه في مواجده، وانشغاله بالحضرة الإلهية عن كلّ ما يحيط به[1]:

سَقاني مَحْبوبي بكأسِ المحبّةِ ... فَنِهْتُ على العُشّاقِ سُكْرًا بخلوتي

ولاحَ لنا نورُ الجلالةِ لوْ أنّنا ... لِصُمِّ الجبالِ الراسياتِ لَدُكّتِ

فوَجْهُ الحبيبِ الحقّ مُشْرِقُ وجهتي ... ونورُ الحبيبِ الحقّ ساطعُ قِبْلَتي

وأغسلُ قلبي مِنْ سواكَ ولمْ أجِدْ ... لنفسيَ إلا نورَ ذاتِكَ بُغيتي

وأوصاف الخمر عند المتصوفة - وإن كانت تشبه أوصاف الخمر عند غيرهم- تدلّ بوضوح على تميز هذه الخمر المقدسة التي ترتفع عن المادة، تشربها وتتمثل بها الأرواح لا الأجساد، فلننظر إلى الخمر التي يصفها العفيف التلمساني في قوله[2]:

وأشْرَبُ الرّاحَ حينَ أشربُها ... صِرْفًا، وأصحو بها فما السببُ

خمرتُها مِنْ دمي وعاصِرُها ... ذاتي ومِنْ أدمعي لها الحَبَبُ

---

(١) الديوان: ٤٣٥ وما بعدها.

(٢) الديوان: ٣٦.

إنْ كنتُ أصحو بشُربها فلقد ... عَرِدَ قومٌ بها وما شربوا

هي النعيمُ المقيمُ في خَلَدي ... وإنْ غدَتْ في الكؤوس تلتهبُ

يكون المتصوف غافلاً عن الحقيقة قبل أن يصل إلى مرحلة الكشف والإلهام، وهذه الغفلة تشبه غياب وعي المخمور، ولكنه عندما ينتشي بالحب الإلهي، يصحو من غفلته، فهي خمر معنوية جاءت من المجاهدة، وليست خمرًا مادية، فآثارها تختلف عن آثار خمر الناس المعهودة، وإن أدت إلى غياب الوعي، لذلك كانت مقصود الصوفي وهدفه، ونعيمه الذي يسعى إليه، فإذا حصّلها سرت في شرايينه وملكت عليه نفسه، فلا يعود في حال صحو، بل يغرق في سكر بالعشق الإلهي، وينتشي بالتجلي الذي لا حدود له ولا ضفاف.

فشعر التصوف شعر متفرد في مضمونه وعمق تجربته، وصدق عاطفته، وفي أسلوبه الرمزي وغموضه الشفيف، وصل به الشعراء إلى مرحلة متقدمة من الإجادة لتتقارب التجربة الشعرية والتجربة الصوفية في طبيعتهما القائمتين على الإلهام، وقدم الشعراء في غزلهم وخمرهم الصوفيين شعرًا رقيقًا، عميقًا في دلالته، فانتقلوا بالشعر العربي إلى آفاق رحبة من النصوص المفتوحة على احتمالات كثيرة، بعيدًا عن الخطابية والمباشرة.

٤- التشوّق والحنين:

ومن الأغراض التي عرفها شعر العصر المملوكي، التشوّق إلى الأهل والحنين إلى الديار، فقد حنّ الشعراء إلى أحبتهم الغوالي، وعبّروا عن التياع قلوبهم في حال البعد والنأي، لا فرق في ذلك بين الأحبة والأوطان والأمكنة المقدسة أو الأزمنة الماضية السعيدة، وأكثر ما يطالعنا من شعر الحنين ما كان من الأحبة، وشكوى الأيام القاسية التي حالت دون الوصل واللقاء، نلقى ذلك في شعر مجد الدين ابن الظهير الإربلي[1] الذي رحل من دمشق إلى مصر، فباح بتوجّع فؤاده، واحتراق قلبه على فراق الأحبة، وتجدد أشواقه كل يوم، ونفاد صبره[2]:

رَعَى اللهُ مَنْ وَدَّعْتُ والوجدُ قابضٌ ... عِنانَ لساني والمدامعُ تنطقُ

أجيرانَنا بالغوطتينِ عليكمُ ... سلامٌ مَشوقٍ قد براهُ التشوّق

لهُ كلَّ يومٍ ثوبُ وَجْدٍ مُجَدَّدٌ ... وصبرٌ كما شاءَتْ نواكم مُمَزَّقُ

أظلُّ نَجِيَّ الشوقِ لا نازلَ لوعتي ... تبوحُ ولا شَمْلُ الأسى يتفرّق

وهَلْ يَجمعَنّي والأحبةَ موقفٌ ... لنشكو جميعًا ما لَقيتُ وما لَقوا

ومن شعر الحنين ما كان في الأوطان، وأكثره إلى المدن التي غادرها الشعراء سعيًا للرزق أو طلبًا للعلم أو تأدية لمهمة، فتجيش المشاعر، ويستعيد الشاعر في أثناء ذلك أجمل ذكرياته في البلد البعيد، وهذا ما يطالعنا في شعر ابن الظهير الإربلي، الذي حنّ إلى مدينة دمشق، فدمشق الهوى والغاية القصوى، وليس هناك صقع آخر يمكن أن يحلّ

---

(١) محمد بن أحمد بن عمر بن أبي شاكر الإربلي، شاعر وأديب، ولد بإربل وتنقل في العراق والشام، ومات بدمشق سنة (٦٧٧هـ)، فوات الوفيات ٣/٣٠٤.

(٢) فوات الوفيات ٣/٣٠٦-٣٠٧.

محلها حتّى لو كان مصر البلد الذي يتطلع إليه كلّ أديب وعالم يقول[1]:

دمشـــقُ أذاقتنـــي الليـــالي فراقَهـــا ... وقـد كنـتُ أخشـى منـه قـدمًا وأفـرَقُ

هـي الغـرَضُ الأقصـى ورؤيتُهـا المنـى ... وسـكانُها وُدّي لهـم متوثّـقُ

حنينـي إليهـا مـا حَييـتُ مُرَجّـعٌ ... وقلبـي أسـيرُ الشـوقِ والـدمعُ مُطلَـقُ

وإنْ أرضَ طوعًـا أرضَ مصـرَ وحَرّهـا ... بـديلًا فـإني قائـل الـرأي أخـرَقُ

وعندما غادرت عائشة الباعونية الدمشقية مدينتها إلى القاهرة، بثت لواعج شوقها وتباريح وجدها في شعرها إلى دمشق، بعد أن برّح بها البعد والفراق، فانسربت دموع عينيها وفضحت أسرار حنينها إلى وطنها الأم[2]:

حنينـي لنسـفحِ الصّـالحيةِ والجسـرِ ... أهـاجَ الهـوى بـين الجـوانحِ والصّـدرِ

وشـوقي إلـى تلـكَ المعاهـدِ لـم يـزلْ ... يُفيضُ لـي الأشـجانَ مِـنْ حيث لا أدري

ألا ليـتَ شِـعري والأمـاني كثيـرةٌ ... أأبلـغُ مـا أرجـوه قبـلَ انقضـا عمـري

وهـل أرِدَنْ صـافي (يزيـدَ) وأجتلـي ... محاسـنَ ذاكَ السـفحِ والمـرجِ والقصـرِ

ربـوعٌ بهـا أُنسـي، وعَيشـي بظلّهـا ... ربيعـي، ومثـواي بهـا زُبْـدةُ العمـرِ

إليهـا ارتياحـاتي وفيهـا مـآربي ... وعنهـا حـديثي والغـرامُ بهـا عُـذْري

إلـى اللهِ أشـكو أننـي كـلّ ليلـةٍ ... تُـؤرقني الـذكرى إلـى مطلـعِ الفجـرِ

وقلبـي علـى جمـرِ الغضـا متقلّـبٌ ... ومَـن ذا الـذي يقوى علـى حُرقـة الجمـرِ؟

وجسـمي بـراهُ الشـوقُ حتّـى كأنـهُ ... هـلالٌ بـدا للنـاسِ فـي أول الشـهرِ

---

(١) فوات الوفيات ٣/٣٠٧-٣٠٨. فائل الرأي: مخطئ الرأي، وهو من قال بالألف اللينة، لا (فال) بالهمز، ومنه رجل فَيِلُ الرأي: ضعيفه.

(٢) در الحبب ٢/٤٥٦.

ومما قيل في الحنين إلى الوطن في هذا العصر أيضًا، ما كتبه ابن حجّة الحَمَوي (ت٨٧٧هـ) إلى صديقه الكاتب محمد بن البارزي، يبثه لواعجه، وشدة حنينه إلى مدينته حماة وهو في مصر، فمدينته مرتع طفولته وشبابه، ومسرح هواه ولذاته، وقد براه الشوق إليها، وكواه التحرق على ربوعها، لذا نراه يناشد ريح الصّبا التي تهب على مدينته أن تصل إليه لكي يغتسل بنشرها ويتطيب بطيبها، فهو لا يستطيع أن يكتم حنينه إليها ونزوعه الشديد إلى رباها وشعابها، فيقول مخاطبًا نسيمها[1]:

بـــاللهِ إنْ رَنّحـــتْ ذيلَـــكَ بـــالحِمَى ... ووَرِدْتَ شِـــعْبًا مـــن دمـــوعي مُعْشِـــبَا

وهَـــزَزْتَ فيـــه كـــلَّ عـــودٍ أراكـــةٍ ... أضـــحى بهاتيـــكَ الثغـــورِ مُطَيَّبَـــا

ودَخَلْـــتَ كـــلَّ خبـــاءِ زَهْـــرٍ قـــد غـــدا ... بـــدموعِ أجفـــانِ الغَمَـــامِ مُطَنَّبَـــا

عَـــرِّجْ علـــى وادي حمـــاةَ بسُـــخْرَةٍ ... مُتَيَمِّمًـــا منـــه صـــعيدًا طيبـــا

واحمـــلْ لنـــا فـــي طـــيِّ بُـــرْدِكَ نَشْـــرَهُ ... فبغيـــرِ ذاكَ الطِّيـــبِ لـــنْ نَتَطَيَّبَـــا

واسْـــرِعْ إلـــيَّ وداوِ فـــي مِصْـــرٍ بـــهِ ... قلبًـــا علـــى نـــارِ البِعـــادِ مُقَلَّبَـــا

وفارق الشهاب محمود الحلبي (٧٢٥هـ) ديار الأهل والأحبة ومرابع الهوى والشباب، فارقَ الشوق وجده، وألهب الحنين ذاكرته، فبكى ذلك كله بأبيات بثّها دفق عاطفته، وحرارة أساه، ومرارة هجره، ودفء حنينه[2]:

أعلـــيَّ فـــي حـــبِّ الـــديارِ مَـــلامُ ... أمْ هَـــلْ تـــذكّرُها علـــيَّ حـــرامُ؟

أَم هَـــلْ أَثِمْ إذا ذكـــرتُ منـــازلًا ... فارقتُهـــا ولهـــا علـــيَّ ذِمـــامُ؟

دارُ الأحبـــةِ والهـــوى وشـــبيبةٍ ... ذهبَـــتْ، وجيـــرانٌ علـــيَّ كـــرامُ

---

(١) تقي الدين بن حجة الحموي، محمود رزق سليم:٧.

(٢) فوات الوفيات ٤/٩٢-٩٣.

فارقتُها فأرقتُ مِنْ وَجْدي بهم ... أفهلْ لهم أو للكرى إلمامُ؟

كانوا حياتي وابتُليتُ بفقدهمْ ... فعليهمُ وعلى الحياةِ سلامُ

أشتاقُها شوقَ الغريبِ مزاره ... سفهًا وإلا أينَ منّي الشامُ؟

وتُمثّلُ الأوهامُ لي أنّي بها ... شاوٍ، ولذّاتُ الهوى أوهامُ

ومن الشعراء مَنْ بثّ حنينه إلى الزمن الماضي، الزمن الرغيد الحافل بالمسرات، بلغة المشغوف ورقة المكتئب المحزون، فقد حنّ الشاعر والكاتب أبو إسحاق القرشي كمال الدين إبراهيم بن عبد الرحيم المتوفى في حلب سنة (٦٧٤هـ) إلى ديار الأولى، وبكاها وَجْدًا حارًّا، وإذا تنسّم ريحًا صباحية حسبها من مهده الأول، فهام بها، وتضاعف شوقه، وبرّحت به الذكريات، يقول[1]:

لا تلُمْهُ في وَجْده تُغْريبه ... دَمْعُهُ فَرْطُ ولوعهِ يكفيهِ

حكمَ الغرامُ عليه فهْو كما ترى ... مُغْرًى بتذكار الحِمَى يبكيهِ

يشتاق أيّام العقيقِ وحبّذا ... وادي العقيقِ وحبّذا مَنْ فيهِ

وإذا النسيمُ روى سُحَيْرًا عنهمُ ... خبرًا فيا طيبَ الذي يُمْليهِ

ومن الحنين إلى الأحبة والأوطان والأزمنة الغابرة، إلى الحنين إلى الديار المقدّسة والأراضي الحجازية التي شهدت البعثة والوحي واتصال الأرض بالسماء، ذلك أن الشعراء امتلأت قلوبهم بحب النبي ﷺ وبحب الربوع والديار التي ضمّته طفلًا ويافعًا ورجلًا نبيًّا مرسلًا إلى العالمين، وكلما بَعُدَ الزمان بين هاتيك العهود النورانية المباركة، وعهود الشعراء المتأخرين، تعاظم الشوق واضطرم الحنين إلى الأراضي المقدسة (مكة المكرمة والمدينة المنورة)، فمجدوهما، وتاقوا إلى لقياهما وعبقت قصائدهم بذكرهما، سواء أكان ذلك في قصائد المدح النبوي أم في قصائد خاصة، عبر فيها الشعراء عن عواطفهم

(١) المنهل الصافي ١/١٠٣.

الدينية ولهفتهم لرؤية الأرض التي شهدت وحي السماء، وتقلّب فيها رسول الله ﷺ، وضمّت جسده الطاهر، وحنوا شوقًا إلى لثمها والتمرّغ في ترابها، يقول الشاعر الخيمي متلذّذًا بذكر ذي سلم والبان وكاظمة[1]:

بـــالله إن جـــزتَ كثبانًـــا بـــذي سَـــلم ... قِـفْ بـي عليها وقُـل لـي هـذه الكُثُـبُ

ليقضـــيَ الخَـــدَّ مِـــنْ أجرامِهـــا وَطَـــرًا ... فـــي تربِهـــا ويُـــؤدّي بعـــضَ مَـــا نجـــبُ

ومِـلْ إلـــى البَـــانِ مِـــنْ شَـــرقيّ كاظمـــةٍ ... فلـــي إلـــى البَـــانِ مِـــنْ شـــرقيّها أَرَبُ

وخُـذْ يمينًـا لمغنًـى تهتـدي بشـذا ... نسيمِهِ الرَّطْـبِ إنْ ضَـلَّتْ بِكَ النُّجُـبُ

أكْـــرِمْ بـــه منـــزلًا تحميـــه هيبتُـــه ... عنـــي وأدْوارُه لا السُّـــمرُ والقُضُـــبُ

أحيـــا إذا مـــتُ مـــن شـــوقٍ لرؤيتـــه ... بـــأنني لهـــواهُ فيـــه مُنْتَســـبُ

وانتشر هذا الغرض في أشعارهم، فلم يكد يخلو منه ديوان شاعر، وأضحى لأسماء الأماكن الحجازية ظلال محببة إلى النفوس، وإيحاءات مثيرة للشجون، ومضى الشعراء يعرضون شوقهم إلى المرابع الحجازية، ويهدون إليها السلام والتحية، ويدعون لها بالدوام والسقيا، ويرسلون محبتهم وحنينهم إلى ساكنيها، مثل قول نجم الدين البارزي من قصيدة في التشوق إلى المقدسات الحجازية[2]:

إذا شِـمتُ مِـنْ تِلْقـاءِ أرضِـكُمُ برقًـا ... فـلا أضْـلعي تَهْـدا ولا عَبْرَتـي تَرْقـا

تَسـيرُ مِـنْ سـعدٍ لُحـذا نحـوَ أرضِـكُمْ ... يمينًـا ولا تَسـتبعدا نحوهَـا الطَّرْقـا

وعُوجَـا علـى أُفْـقٍ توشّـحَ شـبحُه ... بطيـبِ الشّـذا المِسْـكيّ أكْـرِمْ بـه أفقـا

فـإنَّ بـهِ المَغْنَـى الـذي بترابِـهِ ... وذكـراهُ يُستَشْـفى لقلبـي ويُسْـتَرْقى

---

(١) فوات الوفيات ٣/٤١٤.

(٢) فوات الوفيات ٢/٣٠٨.

وقد ظل الشعراء دائمي اللهفة لرؤية تلك المعاهد، ولثم ذلك التراب، ولولا القداسة التي يرونها فيها لما أبدَوا كلّ هذا الشوق وهذا الحنين، الذي تجاوز في حرارته وسموه ما يمكن أن يقال في مخلوق، وأكثر ما يظهر هذا التشوق عند الشعراء الذين تقعد بهم ظروفهم عن زيارتها، فيرسلون قصائدهم إليها، يحمّلونها شوقهم ومحبتهم، وأمانيهم بزيارتها والإقامة فيها، وشفاء النفس من أدارنها بين شعابها، كقول ابن مرير الريمي (عبد الرحمن بن علي بن أبي بكر ت٨٤٢هـ)[1]:

ألا ليتَ شِعْري هَلْ أبيتَنَّ ليلةً ... بأمِّ القُرى أضحي بهَا وأقيلُ

وهَل أرِيَنْ شِعْبَيْ (جيادَ) ففيهما ... شفاءٌ لقلبٍ بالفِراقِ عَليلُ

ففي التشوق إلى المقدّسات يجد الشعراء أنفسهم في حرية مطلقة، فلا قيود متوارثة في مضمونه ومعانيه، ولا تقاليد فنية في أسلوبه وطرائق أدائه، فأجاده الشعراء، وأظهروا مقدرتهم الفنية وشاعريتهم، وأودعوه نفثات نفوسهم، ورفيف أرواحهم، ووجدوه أنسب ما يستهلّون به قصائدهم الدينية، فأحيوا تلك الأماكن وناجوها، واستنطقوا تلك المعاهد وحاوروها، وخمّلوا النسيم والبرق رسائلهم، وأضفوا مشاعرهم على رواحلهم، وأشركوها في شوقهم وحنينهم، كقول الصرصري[2]:

سَقَى اللهُ أرضَ الجِسْي وابلًا ... إذا حَلَّ في جَوِّها أمرعَا

فَثَمَّ لنَا بينَ أكنافِهِ ... حبيبٌ أأهملنَا أم رعَى

وحيَّا بسَاحةِ وادي العقيقِ ... جنابًا خصيبَ الرُبى أوسَعا

فَللهِ سِرٌّ بهِ مُودَعٌ ... كسَاه الجلالةُ مَنْ أوْ دَعَا

هُنَاكَ المآربُ مقضيّةٌ ... لِمَنْ رامَها صامتًا أودَعَا

---

(١) الضوء اللامع ٩٦/٤.

(٢) فوات الوفيات ٣١٣/١.

مسواطنُ تَجبُرُ قلبَ الكسيرِ ... وترفعُ ذا خفيةٌ أو منبوذا

وبعد ذلك استقلّ الشوق إلى المقدسات بقصائد خاصة، ولم يعد من مستلزمات قصائد التصوف والمديح النبوي فقط، وغدا فنًّا شعريًا قائمًا بذاته، وأصبح تعبيرًا عن حال من الوجد والعشق الإلهي، فوقف الشعراء على المغاني والربوع، والمعاهد والسفوح، وبكوا فيها وعليها، إنها رمز حب صادق، وهوى مبرّح، وعاطفة جياشة، إنها رمز للحبيب الأول والأخير وهو الله، وهذا ما يظهر في قول عبد الرحيم البرعي (ت٨٠٣هـ):

عاهَدُوا الرَّبْعَ وُلُوعًا وغرامًا ... فوفَوْا للرَّبعِ بالدَّمعِ ذِمامًا

كلَّما مَرّوا على أطلالِهِ ... سفحوا الدمعَ بذي السَّفحِ انسجاما

حُبُّهم حلَّ سُويدا مُهجتي ... وفؤادي بعدما فتَّ العظاما

كُلَّما ناحَتْ حماماتُ الحِمَى ... في أراكِ الشِّعبِ ناوَحْتُ الحماما

ومن الشعراء من حنّ إلى بيت المقدس وتشوّق إلى لقياه، كالشاب الظريف الذي حمّل الريح سلامه وأشواقه وحرّ وجده فقال[1]:

سلامُ مَشوقٍ مُغرَمِ القلبِ صبِّه ... إلى حرمِ القدسِ الشريفِ فقربِهِ

تذكُّرُكُمُ والشوقُ يجري بدمعِهِ ... على خدِّه والوَجْدُ يسري بقلبِهِ

لقد كانَ يرجو أن يبثَّ اشتياقَهُ ... شِفاهًا فلم يقدرْ فبثَّ بلبِّه

وهكذا أضحى التشوق إلى المقدسات فنًا متميزًا، تنافس فيه الشعراء وخلطوه بغزل رمزي يطفح بالمشاعر الدينية المتأججة، وأظهروا فيه مقدرة كبيرة على التعبير عن أدق المشاعر، بأسلوب جميل، يشبع الحاجة الفنية، إلى جانب المضمون الذي يشبع الحاجة الروحية.

---

(١) الديوان: ٩٥.

٥- الإخوانيات:

كثرت في هذا العصر المطارحات الوجدانية والإخوانية والأُسرية، وهي ذات بِزّة جديدة، فمنها ما كان بين الشاعر وذي رحم له، ومنها ما كان بين الأصدقاء، فكانت القصائد توضح علاقاتهم فيما بينهم من الشوق والمحبة إلى العتاب والاعتذار، ومن التهنئة والمواساة إلى الشكر والإجازات، وكثر التراسل بالشعر حتى أضحى ظاهرة شعرية واضحة، وُضعت فيها الكتب مثل (ألحان السواجع بين البادي والمزاجع) للصفدي، ومعظمه نظم لما يمكن أن يعبّر عنه نثراً، وكان النظم عندهم بحمل لباقة اجتماعية، ويدلّ على فضل صاحبه.

ويجد الشعراء في هذه المراسلات متنفسًا للتعبير عن أحاسيسهم وأشواقهم إلى ذويهم، ويبدو هذا الأمر واضحًا عندما يكون الشاعر بعيدًا عن أهله، فهذا إبراهيم بن الشهاب محمود يرسل إلى والده وقد أضناه البعد، وهو يتساءل عن تلك الأيام الخوالي، فيقول[1]:

هَلْ زمنٌ ولّى بكم عائدٌ ... أم هَلْ تُرى يَرجعُ عيشٌ مضى؟

فارقتكُم بالرغم مني ولم ... أختَرْهُ لكنّي أطعتُ القضا!

وعندما يفترق الأصدقاء الأدباء لأي سبب، يتبادلون الرسائل الشعرية المتضمنة مشاعر الشوق والمحبة والافتقاد، كالرسالة التي كتبها جمال الدين بن غانم إلى خليل الصفدي وهو بالديار المصرية، وقال فيها[2]:

ذكّرتُ قلبي حين شطّ مزارُهُمْ ... بهمُ فطابَ عنِ الهوى تذكارُهمْ

ويحَ المحبين الذين بودّهمْ ... قربُ المزارِ ولو نأتْ أقطارُهمْ

فقدوا خليلَهم الحبيبَ فأذكيتْ ... بالشوقِ ما بينَ الأضالعِ نارُهمْ

---

(١) المنهل الصافي ١/١٦١.

(٢) ألحان السواجع ١/٣٦٥.

فأجابه الصفدي بقصيدة قال فيها:

أفـــدي الـــذين إذا تنـــاءتْ دارُهـــمْ ... أدنـــاهمُ مِـــنْ دارِهـــم تَـــذكارُهمْ

فـــي جلّـــقَ الفيحـــاءِ منـــزلُهم وفـــي ... مِصْـــرٍ بقلـــبِ الصـــبِّ تُضـــرَمُ نـــارُهم

عبر الأديبان عن أقصى ما يمكن أن يكون الودّ بين رجلين، ويبدو أن شعور الأدباء بأن مجتمعهم لا يقدّرهم حقّ قدرهم، جعلهم يرفعون زمالة الأدب إلى مرتبة أواصر القربى، فليس لهذا الشعر غاية نفعية، ودوافعه الألفة والإعجاب المتبادل، ونجد ذلك أيضًا عند الشاعر نصير الدين الحمّاميّ الذي توجّه لزيارة صديقه سراج الدين الورّاق في منزله في حيّ الروضة بالقاهرة، فلمّا لم يجده كتب له[1]:

كَـمْ قـد تـردّدْتُ للبـابِ الكـريمِ لكـي ... أبـلّ شـوقي وأحيـي مَيْـتَ أشـعاري

وأنتنـــي خائبًـــا فيمَـــا أؤمّلُـــه ... وأنـــتَ فـــي روضـــة، والقلـــبُ فـــي نـــار

فأجابه الورّاق بقوله:

الآن نزّهتنـــي فـــي روضـــةٍ عبقـــتْ ... أنفاسُـــها بـــينَ أزهـــارٍ وأثمـــارِ

أســـكرتني بشـــذاها فانثنيـــتُ بهـــا ... وكـــلُّ بيـــتٍ أراه بيـــتُ خمّـــارِ

فـــلا تُغـــالطْ فمَـــنْ فينـــا السـراجُ ومَـــنْ ... أولـــى بـــأن قـــالَ: إنّ القلـــبَ فـــي نـــارِ

وكتب الشاعر ابن نباتة إلى الصفدي مواسيًا، عندما علم بمرضه[2]:

ثقّـــلْ إذا نبغـــى بلفظِـــك طبّنـــا ... مـــنَ الهـــمّ، والجســـمُ الشـــريفُ نحيـــلُ

فهـــا أنـــتَ فينـــا كالنســـيمِ بلطفـــهِ ... طبيـــبٌ يـــداوي النـــاسَ وهـــو عليـــلُ

فأجابه الصفدي قائلًا:

---

(١) خزانة الأدب وغاية الأرب ٥٠٢/٢.

(٢) الوافي بالوفيات ٣٢٦/١.

لِحُمّـايَ نـارٌ جاءَهـا منـكَ جنّـةٌ غصـونٌ رباهـا بالبـديعِ تميـلُ

تهـدّلتِ الأفنـانُ منهـا فخـاطري لـهُ بـينَ هاتيـكَ الظّـلالِ مقيـلُ

ومن ذلك أنه كان بين صفي الدين الحلي وأحد الأعيان صداقة ومودة، وفجأة انقطع صديقه عن زيارته، وهجرَهُ، وقطع حبل الود بينهما، فكتب إليه الحلي يعاتبه على هذا الجفاء بقوله[1]:

عـذرتُكَ إذ حالـتْ خلائقُـكَ التـي أطلّـتَ بهـا بـاعي وقصّـرتَ آمـالي

لأنـكَ دُنيـاي التـي هـي فتنتـي فـلا عجـبٌ ألّا تـدومَ علـى حـالِ

عبّر الحلي بذكاء عن عتابه ولومه، واكتفى بوصف صاحبه بأنه دنياه التي فُتن بها، وفي ذلك إشادة بصاحبه، ولكنه غمز من وفاء صاحبه، لأن الدنيا لا تدوم على حال، فرمى صاحبه بالتقلب، وهذا عتاب ظاهره رقيق وباطنه مؤلم.

وكان ابن نباتة مكثرًا من الشكوى والعتاب في شعره، حتى إنه كان يعاتب في مقدّمات قصائده المدحيّة، وكثير من مقطعاته الشعرية، ومن ذلك قوله معاتبًا أحد ولاة نعمته بعد إهماله له، عازمًا على التصبّر والرضا[2]:

لـئن ضـاعَ مثلـي عنـد مثلِـكَ إنّنـي لَغيـرُ المعـالي عنـد غيـرِكَ أضـيعُ

ومـا كـان صـعبًا لـو منـنتَ بلفظـةٍ تـرُدُّ بهـا عنـي الخطـوبَ وتـرْدَعُ

سأصـبرُ حتـى تنتهـي مـدة الجفـا ومـا الصـبرُ إلا بعـضُ مـا أتجـرّعُ

علـى أننـي راضٍ بمـا أنـا صـانعٌ وَصُـولُ المـولا لَـوْ أننـي أتقطّـعُ

إنّ من أهم السمات التي تميز بها شعر الإخوانيات هي التأدب في الخطاب، واللياقة في الحديث، واختيار الألفاظ التي تحبّب وتقرّب الشاعر إلى الشخص الذي تُبْعَثُ إليه

---

(١) الديوان: ٥٦٣.

(٢) الديوان: ٣١٢.

تلك الرسائل، ولم يتردد الشعراء في إغراق الألفاظ الفخمة، وتعظيم الشخص المرسل إليه، كذلك العتاب أو الاعتذار وربما التوسل إن اقتضى الأمر، وخير مثال على ذلك ما كتبه الحسن ابن النقيب[1] إلى سراج الدين عمر الورّاق مُستدعيًا إيّاه لزيارته[2]:

يـا سـاكنَ الروضـةِ أنـتَ المشـتهى ... مِـنْ هـذهِ الـدنيا وأنـتَ المقتضـى

ويـا سـرورَ الـنفسِ بـينَ الشُّـعرا ... أنـتَ الرضـيُّ فـيهمُ والمرتضـى

ويـا سـراجًا أصـبحتْ أنـوارُهُ ... تعيـدُ سُـنـودَ اللّيـالي أبيضـا

مـا لـي أراكَ قاطعًـا لواصـلي ... ومُعْرضًـا عـن مقبـلٍ مـا أعْرضـا

ففي هذه الأبيات يرسل الشاعر إلى صديقه دعوة ممزوجة بالعتاب، فدفع ذلك الورّاق إلى الردّ عليه، فبعث إليه يقول[3]:

يـا سـهمَ عتْـبٍ جـاءَ مـنْ كنانـةٍ ... أصـبْتَ مِـنْ سـوادِ قلبـي الغَرَضـا

لكـن أسَـوْتَ مـا جَرَحْتَـه بمـا ... أعقبْتَـه مـن العتـابِ بالرِّضَـا

يـا بـن النقيـبِ مـا أرى منْقبـةً ... إلّا وأولاكَ الثنـاءَ الأبيضـا

إنْ ولائـي حَسّـنَ فـي حسـنٍ ... إذ مـا أرى لِعُمْـرِ أنْ يرفضـا

فالمطارحة موضوع يوضح علاقة الأدباء فيما بينهم، أودعه الشعراء عواطفهم وتوقهم إلى صفاء العلاقات الإنسانية، فارتقت بهم رابطة الأدب، وعوضتهم عن الروابط الأخرى، ووجدوا فيها من الألفة والأنس ما لم يجدوه في مجتمعهم، وأكدوا في المطارحة مقدرتهم الشعرية وموهبتهم في الوصف ومعالجة المعاني، وأفرغوا فيها شحنة الإبداع

---

(١) هو الشاعر ناصر الدين الحسن بن شاور بن طرخان بن الحسن (ت٦٨٠هـ)، تنظر ترجمته في: النجوم الزاهرة ٣٧٦/٧، وفوات الوفيات ٢٣٢/١.

(٢) و(٤) فوات الوفيات ٣٢٨/١.

الكامنة في نفوسهم.

وهناك قصائد التهاني، كالتهنئة بعرس أو مولود أو دار جديدة أو عودة من الحج[1]، ومن ذلك قول صفي الدين الحلي مهنئًا بعيد الفطر[2]:

هُنّيتَ بالعيدِ بل هُنّي بكَ العيدُ ... فأنتَ للجودِ، بل إرثٌ لكَ الجودُ

ولا خلتْ كلُّ عامٍ منكَ أربعةٌ: ... لُبسٌ وصومٌ وإفطارٌ وتعييدُ

ولا يبتعد الشعر في تبادل الهدايا عن هذا الموضوع، فإن الشعراء يبعثون مع هداياهم أبياتًا من الشعر تشير إلى نوع الهدية، فالشاب الظريف يرسل مجموعًا إلى أحد أصدقائه، فيرسل معه قوله[3]:

يا أيُّها الصَّدرُ الذي وَجْهُ العلا ... منهُ يُزانُ بمنظرٍ مطبوعِ

لا تعتقد قلبي يحبُّكَ وحدَهُ ... ها قد بعثتُ لسيدي مجموعي

إن هذه الهدايا تستلزم الشكر عليها، لذا عمد الشعراء إلى ردّ هذا الجميل بالاعتراف بالمنّ والفضل، ولا يخلو هذا الشكر من روح الدعابة في كثير من الأحيان، ومنه ما بعث به المنصوري[4] إلى شخص أهداه حلوى، فبعث إليه يشكره بقوله[5]:

تفضّلتَ بالإحسانِ منكَ تكرّمًا ... وجُدتَ من الحلوى لعبدِكَ بالغُلبِ

فبوأكَ اللهُ الكرامةَ مقعدًا ... وزفّاكَ من أحبابِه أرفعَ الرُّتبِ

---

(١) انظر: ديوان ابن نباتة: ١٣٨ تهنئة بمولود، و٢٣٧ تهنئة بدار جديدة، و١٦٨ تهنئة بشهر الصيام، و ١٦٩ تهنئة بالعيد.

(٢) الديوان: ٢٠٠.

(٣) الديوان: ٢٦٨.

(٤) هو شهاب الدين أحمد بن محمد بن علي المنصوري (ت٨٨٧هـ)، ترجمته في: نظم العقيان في أعيان الأعيان: ٨١.

(٥) نظم العقيان: ٨١.

ومن الإخوانيات ما هو معروف باسم الشتويات[1]، وهي قصائد إخوانية ووجدانية يتبادلها الشعراء فيما بينهم للتسلية في أيام الشتاء الباردة ولياليه الطويلة، وفيها أوصاف جميلة للطبيعة بسمائها وغيومها وثلوجها، ووصف للمجالس التي كان يقيمها الأصدقاء فيما بينهم، واعتاد الشعراء استدعاء أصدقائهم إلى تلك المجالس، فقد بعث الشاب الظريف إلى صديق يستدعيه إلى مجلس أقيم في يوم غائم، والثلج قد غطى الأرض وكأنه رقائق من الفضة بقوله[2]:

يـــومٌ تكـــاثف غيمـــه فكأنـــه ... دونَ السـماءِ دخـانُ عـيمٍ أخضـرِ

والطَّـــلُّ مثـــلُ بُـــرادة مـــن فضّـــةٍ ... منثـــورةٍ فـــي تربـــةٍ مـــن عنبـــرِ

والشـمسُ مـن خَلَـلِ السـحابِ كأنّهـا ... أمَـــةٌ تعـــرّض نفســـها للمُشـــتري

ولـــديَّ صـــرْفُ مُدامـــةٍ مشـــمولةٍ ... تلقـــى الظَّـــلامَ بوَجْـــهِ صـــبحٍ مُســـفرِ

فكأنّهـــا ممـــا تحبُّـــك أقســـمَتْ ... ألّا تطيـــبَ لنـــا إذا لـــمْ تَحضُـــرِ

ويصف ابن الوردي في إحدى شتوياته التي بعث بها إلى صديق له بعد رجوع أخيه من السفر، فوصف ذلك اليوم الذي عاد فيه بأنه يوم ثلج قد تنوّر بقدومه، بعد أن رحل في يوم أسود، وتستقبله حلب الشهباء بهذه الحلّة الملائمة لهذا الحدث المفرح، وهو قدوم الرجل إلى بلدته، إذ يقول[3]:

يـــا قادمًـــا والـــثلجُ قـــدْ عـــمَّ الفضَـــا ... قـــد نـــوَّر الظلمـــاءَ مقـــدَمُكَ المُضِـــي

ســـافرتَ فـــي يـــومٍ عبـــوسٍ أســـودٍ ... وقـــدمْتَ فـــي يـــومٍ ضـــحوكٍ أبـــيضِ

---

(١) (الشتويات) مما تبادله الشعراء منذ العصر العباسي،انظر: مثل هذه الشتويات في كتاب يتيمة الدهر للثعالبي في حديثه عن الشعراء: السري الرفّاء، القاشاني، القاضي التنوخي.

(٢) الديوان: ٢٦٤.

(٣) الديوان: ١٧٥.

فكأنّمـــا الشّـــهباءُ قـــد حلفـــتْ بـــأنْ تلقـــاكَ فـــي ثـــوبٍ يـــروقُ مُفضـــضِ

فاســـلمْ ودُمْ فـــي نعمـــةٍ تأبيـــدُها لا ينقضـــي وثناؤهـــا لـــم يَـــنقضِ

يعكس هذا اللون من الشعر جانبًا مهمًا من الحياة الفكرية والأدبية التي مرّ بها المجتمع العربي، وهو يمثل -في الأغلب- الشعر النابع من أعماق النفس، وتبرز في معظمه صورة من صور الشعر الوجداني النبيل بعيدًا عن المصالح الشخصية والمغانم المادية.

٦- الألغاز والأحاجي:

اللغز في اللغة مشتق من ألغز اليربوع إذا حفر لنفسه حفرة، ثم يأخذ بشقّ على اليمين والشمال، فيوزّي نفسه عن مريده، ويقال: ألغز فلانٌ الكلام، وفي الكلام، إذا عمّى مراده به ولم يُبيّن مقصده، أما في الاصطلاح فهو بمعنى الأحجيّة التي يُعَمّى فيها القول، ليلتبس المقصود منه، ولا ينجلي إلا بكدّ الذهن وإعمال الفطنة، وهو لون من أدب الترفيه والتسلية ورياضة العقل وامتحان الذكاء الذي راج في مختلف العصور، وتداوله الأدباء في المراسلات وفي التآليف ومجالس السمر والمؤانسة.

لكن الشعراء في هذا العصر بالغوا في إيراده، وأكثروا منه كثرة غريبة، فلم يخل منه ديوان شاعر، ومن هؤلاء الشرف الأنصاري الذي كان بطارح أباه فيكتب إليه اللغز، وكان أبوه يجيبه قبل أن يجفّ الحبر، واختلفت موضوعات الألغاز، وتلوّنت بثقافة قائليها، فمنها ما هو فقهي فيه نكتة شرعية، ومنها ما هو علمي وذهني، وتأتي الألغاز في بعض الأحيان على شكل مراسلات أو عن طريق الأسئلة، وألغز الشعراء في أسماء وأشياء من باب التسلية وإظهار البراعة اللغوية، فابن نباتة يلغز في اسم (علي) [1]:

أمـولايَ مـا اسـمٌ (جلـيٌّ) إذا تَعـوّضَ عـن حرفـه الأول
لـكَ الوصـفُ مـن شخصـهِ سـالمًا فـإنْ قُلِغـتْ عينُـه فهـو لـي

وفي (المُغَلّي) الذي إذا عكس لفظه يصبح نغمًا، قال الخطيب القَزْوِيني علم الدين يوسف بن أحمد (٧٢٨هـ) بصيغة الإلغاز البديع[2]:

مـا اسـمٌ إذا عكسـتهُ نظـرتَ مـا سـمّتهُ
(يُـلْجِمُ) بالوصـل متـى صـحّفتَ مـا عكسـتهُ

---

(١) الديوان: ٤١٣.

(٢) الدرر الكامنة ٤/٤٤٥، وتصحيف الاسم: أي النغم، يصبح (نعم) بالعين المهملة.

فالاسم هو الـ (مغنّي)، إذا نُكّر يصبح (مُغْنٌ)، وإن عُكِس يصبح (نغم)، والإبداع في هذا اللغز ليس في عكس حروف الكلمة، بل في الـ (نغم) الذي تراه العين، وهو ما يسمى في عصرنا بـ (تراسل الحواس).

أما الصفدي فله لغز لطيف في لفظ (المُدام) يقول فيه[1]:

وما شيءٌ حَشَاه فيه (داءٌ) وأوّلُه وآخرُه سواءُ
إذا ما زالَ آخرُه فجمعٌ يكونُ الحَدُّ فيه والمَضَاءُ
وإن أهملتَ أولَه فَفِعْلٌ لهُ بالرفعِ والنصبِ اعتناءُ

وهذا اللغز من أبواب الصناعة اللفظية، والتلاعب في حروف كلمة، زيادة أو حذفًا، امتحانًا لقدرة السامع أو القارئ على إيجاد المطلوب، ذلك أن المراد لفظ بعينه، وليس أي لفظ آخر للشيء المراد معرفته، فمعروف أنّ (المدام) هي الخمر، لكن للخمر أسماء أخرى ليست هي المقصودة في اللغز.

ومثل هذا قول ابن الدماميني[2] ملغزًا في (غزال)[3]:

إنّ مَنْ قد هويتُه محنتي في وقوفه
فإذا زال رُبْعُه (زالَ) باقي حروفه

وقد يعتمد اللغز على أوصاف غامضة، يشترك فيها غيرُ ما موصوف، فيما المقصود واحد، ينبغي اكتشافه بالاستدلال والمقارنة والاستنتاج، يقول الشاعر شهاب الدين العزازي (٧١٠هـ) ملغزًا في (القوس)[4]:

---

(١) حلية الكميت للنواجي: ١٠.

(٢) هو بدر الدين محمد بن أبي بكر بن محمد بن سليمان القرشي المخزومي، (ت٨٢٧هـ)، شذرات الذهب ١٨١/٧.

(٣) شذرات الذهب ١٨٢/٧.

(٤) شذرات الذهب ٢١/٦-٢٢.

مـــا عجـــوزٌ كبيـــرةٌ بلغـــتْ عُمْـــ ـــرًا طـــويلًا وتبتغيهـــا الرجـــالُ

قـــد عـــلا جسـمَها صـــفار ولـــم تَشْـ ـــكُ سَـــقامًا ولـــو عراهـــا هُـــزالُ

ولهـــا فـــي البنـــينَ: قهـــرٌ وسَـــهْمٌ وبنوهـــا كبـــارُ قـــدْرٍ (ثِبَـــالُ)

تكمن قوة اللغز هُنا في كلمة (عجوز) فهي تجمع بين شكل القوس وانحناء الإنسان في كبره، فالشعراء كانوا يهدفون إلى اختبار بعضهم ذكاءَ بعضٍ، تفكهًا وتندرًا.

ومنه أيضًا قول نور الدين علي بن يوسف العطار (٦٥٩هـ)، ملغزًا في كوز -إناء صغير له أذن، أي عروة- يغرف به الماء[1]:

وذي أُذُنٍ بـــــلا سَـــــمْعٍ لـــــهُ قلـــــبٌ بـــــلا لُـــــبّ

إذا اســـــتولى علـــــى (الجـــــبّ) فقـــل مـــا شـــئتَ فـــي (الصَّـــبّ)[2]

وقول صفي الدين الحلّي في قلم[3]:

وأخـــرسَ بـــادي النطـــقِ خـــاوٍ فـــؤادُهُ حليـفُ ضـنًى يبكـي ومـا هـو عاشـقُ

يُشَـــقُّ مِـــرارًا رأسُـــه وهـــو طيّـــعٌ ويُقطـــعُ أحيانًـــا ومـــا هُـــوَ ســـارقُ

إذا أرســـلَ البـــيضَ الصِّـــفاحَ لغـــارةٍ تُتَـــابِعُ طوعًـــا أمـــرَهُ ونُفَـــارِقُ

يُحـاجى بـه: مـا نـاطقٌ وهـو سـاكتٌ يُـرى سـاكنًا والسـيفُ مِـنْ فيـه نـاطقُ

بقي أن نذكر أن هذه الألغاز جاءت على شكل مقطعات صغيرة، ويندر أن تأتي بأكثر من عشرة أبيات، وهي تخلو من شيوع العاطفة، اعتمد فيها الشعراء على مخاطبة العقل وتحريكه، واستثارة الذهن للحصول على متعة الاكتشاف، كما أرادوا منها نشر

---

(١) النجوم الزاهرة ٧/٢٠٣.

(٢) الحِبّ: المحبة، والحِبّ: الجرة العظيمة، والصَّب: المحب، والصَّب: مصدر بمعنى دفق الماء، وعروة الكوز في العامية (أذن) وهي لا تسمع.

(٣) الديوان: ٤١١.

المعرفة مع التسلية وملء أوقات الفراغ.

ومن ثم يتضح لنا أن فنون الشعر كثرت في هذا العصر، وأن الشعراء كانوا بين متكئ على الشعراء السابقين، فجاء شعره تقليدًا لهم، وجريًا في فلكهم؛ وبين سائر مع سنة الحياة في التطور، فجاء شعره جديدًا مبتكرًا.

Damascus University

ألوان شعرية مستحدثة

أدى تطور الحياة في المشرق والمغرب إلى ظهور تجديد في الشعر من حيث الفنون والأوزان، فبعضه جاء من المغرب كالموشح والزجل، وبعضه ظهر في المشرق كالدوبيت والمواليا:

١- الموشحات:

تبين أنّ أصلَ الموشحات أندلسيّ أطلت بواكيرها الأولى مع نشأة الأغاني الشعبية، وتعثّرت بداياتها، ثم استقامت على يد (عبادة بن ماء السماء)، وانتقلت إلى المشرق بعد أن توضحت أبعادها ونضجت ثمراتها، وكان (ابن سناء الملك) أول من درس هذا الفن في المشرق وألّف فيه كتابه (دار الطراز).

وممن نظم الموشحات في هذه العصور ابن نباتة وابن دانيال والتلعفري والعزازي وابن سودون وعائشة الباعونية وغيرهم كثير، واستعملت الموشحات لأغراض الشعر جميعها من مديح ورثاء وغزل ووصف للطبيعة ومجون، ومن أقدمها موشحة التلعفري التي أجاب بها على موشحة إخوانية أرسلها إليه شهاب الدين العزازي من القاهرة، ومما قاله التلعفري في موشحته تلك[1]:

لـيسَ يَـروي مـا بقلبـي مِـنْ ظَمَـا غيـرُ بـرقٍ لائِـحٍ مـنْ إضَـمِ

إنْ تبـدّى لـك بـانُ الأجْـزعِ

وأثـيلاتُ النقـا مِـنْ لَعْلَـمِ

يـا خليلـيّ قِـفْ علـى الـدارِ معـي

وتأمّـلْ كـمْ بهـا مِـنْ مَصـرعِ

---

(١) الديوان: ٦٠٠-٦٠١.

واحتـــرز واحـــذر فأحـــداقُ الـــدُمى كـــم أراقـــت فـــي رُباهـــا مـــن دم

وتناول الموشح في هذا العصر كذلك غرض المديح النبوي والزهد والتصوف، مثل نظم شمس الدين الواسطي[1] لعدد من الموشحات في الزهد، منها قوله[2]:

نشَـــزتْ ريـــحُ الصَّـــبا روحَ الصَّـــباغ فســـتـــــبَا المُشْـــــتـــــاقْ

وبكـــى عصـــرَ الصِّبا الماضـــي ونـــاحْ مـــــنْ جـــــوَى الإشـــــفاقْ

* * *

زهـــرةُ العمـــرِ لـــهُ فـــي الأربعـــينْ وبـــــــذَا النُّقصـــــــانْ

ولقـــدْ يُعجلـــه بعـــضُ الســـنينْ يكســـــــرُ الأغصـــــــانْ

* * *

فـــافهمِ الجِـــدَّ فمـــا المعنـــى مُـــزاحْ وافـــــــتح الأنـــــــاقْ

وادَّخـرْ مـا اسـطعت مِـنْ فعلِ الصـلاحْ قبـــــــلَ أنْ تعتـــــــاقْ

ومن المدائح النبوية التي نظمت على شكل موشحات ما قاله شمس الدين الواسطي أيضًا في مدح رسول الله ﷺ مشيرًا إلى منزلته الكريمة وشمائله العظيمة، فقال في موشح اتسم بالسهولة والقرب[3]:

فـــي رُبـــا وادي المصـــلّى فبهـــا مـــولى جليـــلْ

مَـــنْ عليـــهِ اللهُ صـــلّى وبـــه نجّـــى الخليـــلْ

* * *

ســـيدًا وافـــى رحيمـــا شـــأنُه شـــأنٌ عظـــيمْ

---

(١) هو محمد بن القاسم بن أبي البدر المليجي الواسطي، (ت٨٧٤٤هـ)، الدرر الكامنة ٤/٢٦٠.

(٢) الدرر الكامنة ٤/٢٦١.

(٣) ديوان الموشحات المملوكية، أحمد محمد عطا: ٣٦١.

إنْ يكـــنْ موســـى كليمـــا فَهْـــوَ خِـــلٌّ مـــنْ قـــديمْ

أو يكـــنْ زَيْـــدٌ يتيمـــا أفخـــرُ الـــدرِّ اليتـــيمْ

* * *

قـــد أضـــا وعـــزّا وســـهلا وغـــدوْا وأصـــيلْ

مرحبًـــا أهـــلًا وســـهلا يـــا أخـــا المجـــد الأصـــيلْ

وقد افتنّ الشعراء بالموشحات التي تعد أول خروج ظاهر على شكل القصيدة العربية وقيودها، وهو يستجيب لإيقاع الحياة المترفة، ويلائم التلحين والغناء، فعارضوا موشحات الأندلسيين، وضمنوها موضوعات الشعر المختلفة، ونوعوا أشكالها وأوزانها، ويعدّ السراج المحار من رواد الموشحات، إذ تصرف في نظامها وأوزانها، ومن موشحاته موشح مردوف، قال فيه[1]:

تُرى دهرٌ مضى بكم يؤوبُ... مُنيبا ويُضحي روضُ آمال الجديبْ...خصيبا

عســـى صـــبٌّ تملّكـــه هـــواه

يعـــاودُ جفـــنَ مقلتِـــه كَـــراه

ويبلـــغُ مِـــنْ وصـــالكمُ مُنـــاه

ويرجـــعُ دهرنـــا عمّـــا جَنـــاه

ويجمـعُ شـملَنا وصـلٌ يطيـبُ... قريبـا ويصبحُ حين أدعوه الحبيبْ... مجيبا

وله موشح أخذ شكل الشعر ووزنه، قال فيه[2]:

مِـــنْ دونِ رملـــةِ عـــالجْ لربّـــةِ الخـــال دارْ

---

(١) فوات الوفيات ٣/١٥٠.

(٢) فوات الوفيات ٣/١٥١.

حلّـــتْ عليهـــا السُّـــحائبْ منـــا الســـدموعُ الغـــزارْ

* * *

فمَـــتْ عليهـــا دمـــوعُ لهـــا الســـحابُ شـــؤونُ

حـــدّثْ فتلـــكَ الربـــوعُ حـــديثُهنّ شـــجونُ

* * *

ففـــي قلبـــي لـــواعجٌ مِـــنْ ذكرهـــا وأوارُ

ونـــارُ فقـــدِ الحبايـــبْ زيادُهـــا الأذكـــارُ

فهذا الموشح وأمثاله أقرب إلى الرباعيات أو المسمطات، فيه تلوين القوافي بين الأقفال والأدوار، حتى كاد يختلط بها، فكان تصرف الوشاحين بالموشح كبيرًا، حتى وضع بعضهم القفل على وزن شعري، والدور على وزن آخر، وقد نظم الشهاب العزازي أحد موشحاته على وزن الدوبيت، فداخل بين الضربين من النظم وقال[1]:

أقســمْتُ عليــكَ بالأســيلِ القــاني أنْ تنظــرَ فــي حــالِ الكئيــبِ العــاني

أو تقصــرَ عَــنْ إطالــةِ الهجــرانِ يــا مَــنْ ســلبَ المنــامَ مــنْ أجفــاني

مــا أليــقَ هــذا الحســنَ بالإحســانِ

جمع العزازي بين الدوبيت والموشح، فالدوبيت أربعة أشطر متفقة القافية، زاد عليها شطرًا خامسًا، له قافية مغايرة، تجمع أجزاء الموشح، فماثل التخميس، وهو دوبيت وموشح في آن واحد، وهذا من صنعة الشكل التي يداخل فيها الشاعر بين الأوزان للوصول إلى شكل جديد.

٢- الزجل:

عرف الزجل على الأرجح في الأندلس أولًا بعد الموشح في أواخر القرن الرابع

---

(١) فوات الوفيات ١٠٢/١.

الهجري، وبلغ ذروته على يد (ابن قُزمان)، ثم انتقل إلى المشرق في القرن السابع الهجري وازدهر، والزجل في الحق موشح قيل بلهجة عامية أو غلبت عليه العامية، وقد اعتمد منذ نشأته الأولى على الغناء، ولذا شاع في الحفلات والأعراس، وتطور أولاً من غير أن يعبّا بالصنعة البديعية، ولكنه ما لبث أن اغترف منها، وممن اشتهروا به الأمشاطي (ت٧٢٥هـ)، وابن مقاتل أمير الزجل في عصره (ت٧٦١هـ) والحلّي.

والزجل لا يظهر معناه ووزنه إلا عندما ينشده صاحبه أو عندما يلحّن ويغنّى، كقول ابن مقاتل[1]:

طرْفي لمح بدر اشتعّ لي فيه مُلَح ما هُوَ حَدَق
إذا اختلج فيه الدَّعج يبدي المُهج ولو نشج
قام عذار ولام

ولعلي بن مقاتل الحموي أزجال كثيرة اتسمت بالطول، واستعملها في أغراض الشعر المختلفة، وأدخل إليها صنعة عصره البديعية، مثل زجله الذي قاله في مليح خياط، ووجّه فيه بألفاظ الخياطة، وأوله[2]:

نهوى خياط سبحان تبارك مُن بالجمال جمّلو
بالمفصّل وآية الكُرْسي ترقي شكلو الحلو

وللزجل أنواع وفق مضمونه، فإذا تضمّن الغزل والخمر ووصف الطبيعة سمي زجلاً، وإذا تضمن المجون والهزل سمي بليقًا، وإذا تضمن المواعظ والحكم سمي مُكفّرًا.

ومن النوع الأول يقول الأسنائي عبد الملك بن الأغر (ت ٧٠٧هـ)[3]:

جفوني ما نام الا لعلّي أن أراك

---

(١) الدرر الكامنة ١/١١٩.
(٢) الدرر الكامنة ١/٣١٤.
(٣) فوات الوفيات ٢/٣٩٦.

وزيـــــي قـــــدْ برانـــــي الشـــــو ... قُ يـــــا غصـــــنَ الأراكْ

وطرفـــــي مـــــا رأى مثلَـــــكْ ... وقلبـــــي قـــــدْ حَـــــواكْ

فهُـــوَ لـــكْ لـــم يـــزل مســـكنْ ... فســـبحان الـــذي أســـكنْ

وحســـنك كـــمْ بِـــهِ أفْـــتَنْ ... ومـــا قصـــدي ســـواكْ

حبيبـــــي آه مَـــــا أحلـــــى ... هـــــوايَ فـــــي هـــــواكْ

وذكر ابن شاكر الكتبي لابن المغربي البغدادي علي بن عبد العزيز (ت٦٨٤هـ) بليقة في الهزل والمجون، جاء فيها[1]:

الوقـــــتُ يـــــا نـــــديمي ... قـــــدْ طـــــابَ واعتـــــدلْ

والشـــــمسُ مُـــــذْ لِيـــــالي ... قـــــدْ حلّـــــتِ الحَمَـــــلْ

فـــــانهض إلـــــى الحميّـــــا ... واســـــتنهض الصـــــحاب

فالبـــــــدرُ والثريّـــــــا ... والكـــــــأس والحُبـــــــاب

والوقـــــتُ قـــــد تهيّـــــأ ... ومجلـــــسُ الشـــــراب

فيـــــهِ كـــــلّ مـــــا تريـــــدُهْ ... فـــــانهضْ علـــــى عَجَـــــل

مـــــا قـــــد بقـــــي بعـــــوزَهْ ... غيـــــرك وقـــــد كمـــــل

وقد كان الزجل في هذا العصر صورة صادقة حيّة، رسم فيها الزجالون الحياة والحوادث من حولهم، وأسهموا في تسجيل هموم العامة والخاصة، فلقي شهرة واسعة، واحتلّ مكانة سامية في حياتهم الفكرية والأدبية، وأقبل عليه الأدباء والكتّاب والمؤرخون، يستشهدون به على حوادث العصر عند تدوينها، ويدلّلون على فنونهم البديعية التي عرفت يومذاك، كما فعل ابن حجة في (خزانته)، وابن تغري بردي في (نجومه)

(١) فوات الوفيات ٣/٣٤.

و(منهله)، وابن إياس في (بدائعه)، وقد عاب ابن حجة على من لا يستطيع تذوقه، وعذّره في قلة الإحاطة بمصطلحاته ومناهجه[1].

٣- الرباعيات:

لون شعري انتشر في المشرق، وكان من قبل معروفًا لدى الفرس باسم (الدوبيت)[2]، وقد نظم هذا اللون في مطلع القرن الرابع الهجري، ثم برز بوضوح خلال حروب الفرنجة وما بعدها. وله وزن مشهور هو: (فعلن متفاعلن فعولن فعلن)، وتطرأ عليه تغييرات كثيرة تجعل أوزانه متعددة، وله بحسب القافية عدة أنواع، وهو غنائي الطابع، ومنه قول الشاب الظريف[3]:

قاسيتُ بكَ الغرامَ والهجرَ سنينْ ... ما بينَ بُكا وأنينٍ وحَنينْ

أرضيكَ ولا تزدادُ إلا غضبًا ... الله سكما أبلى بك القلبَ يُعينْ

وتتكون الرباعيات من أربع شطرات، لكنه لا يجري على قافية واحدة، بل المشهور فيه ثلاث متشابهات وواحدة مطلقة، يقول الواعظ الواسطي (محمد بن علي بن إبراهيم ت٧٧٧هـ)[4]:

ما زالَ بقلبِهِ لهيبُ النارِ ... حتّى تركَ الجسمَ خيالًا ساري

دعْ عنكَ ملامَهُ فلا يعلمُ ما ... قاسَاه الواسطيُّ إلا الباري

ومنه أيضًا قول التلعفري طالبًا مشاركته في الدعاء عسى الله يجمع الشمل بعد الفراق[5]:

---

(١) خزانة الأدب ١/٣٨.

(٢) (دو) في الفارسية معناها اثنان، و(بيت) كلمة عربية تدل على بيت الشعر، فالمعنى إذًا: (البيتان).

(٣) فوات الوفيات ٢/٢٦٧.

(٤) الدرر الكامنة ٤/١٧١.

(٥) الديوان: ٥٢.

هـا قـد قضـى الفـراق والبـين لنـا فـاحبس نفسًـا بـا سـائقَ العـيس بنـا

قـفْ نـدعُ الله تعـالى فعسـى أن يجمـع بيننـا كمـا فرّقنـا

وورد عند صفي الدين الحلي مع التجنيس التام المركب والناقص[1]:

العيـدُ أتـى ومـنْ تعشّـقْتُ بعيـدْ مـا أصـنع بعـد مُديـة القلـب بعيـدْ

مـا العيش كـذا لكـنْ مـن عـاش رعيـدْ مـن غـازل غزلانًـا أو عاشـر غيـدْ

وقد دخل اللحن على الدوبيت، واصبح متداولًا على ألسنة العامة، ينظم فيه الشعراء شتى الأغراض، ووجد فيه المتلقي السهولة والقرب، فكان يسيرًا على الألسن، دارجًا في مختلف البيئات، حتى أصبح هذا اللون يمثل مظهرًا من مظاهر الفنون المستحدثة في هذا العصر.

٤- المواليات الشعبية:

يُرجَّح أن هذا اللون قد اختُرِعَ في العراق على يد أهل واسط وعلّموه عبيدهم الذين يعملون في بساتينهم، وكان في بدئه مُعرَّبًا وموزونًا على البحر البسيط، ويتألف من بيتين وأربع قوافٍ على رويّ واحد، والأشطر الأربعة تسمى صوتًا[2]، وقد استعمل في الغزل والمدح والهجاء وغيرها، ويبدو أن حادثة البرامكة ساعدت على انتشاره، إذ رثتهم مولاة لهم به، وكانت تصيح بعد كل صوت أو مقطع (واموالياه!) كما كان يقول أهل واسط، ومن هنا جاءت التسمية، وقيل إنه سمّي بهذا الاسم لأن القوافي الأربع تتوالى فيه على روي واحد، ومنه قول الطبيب ابن السويدي (إبراهيم بن محمد بن طرخان ت٦٩٠هـ) متغزلًا[3]:

---

(١) الديوان: ٤٦٢.

(٢) العاطل الحالي للحلّي: ١٣٣ وما بعدها.

(٣) المنهل الصافي ١/١٤٤.

البدرُ والسعدُ: ذا شبيهُك، وذا نجمك والقدّ واللّحظ: ذا رُمحُكَ، وذا سَهمك

والبُغضُ والحُبُّ: ذا قِسمي، وذا قِسمك والمِسك والحُسْنُ ذا خالُك، وذا عمك[1]

فالمواليا يمكن أن تأتي معربة وتأتي ملحونة، وقد جمع ابن المويدي هذا بين الضربين فيما يسمى المزنم، وينهض المواليا في أوزان البسيط، وله أربع قوافٍ، ومن الفصيح والعامي، كما في قول صفي الدين الحلي وقد عمد إلى الجناس التام في قوافيه:

يا طاعن الخيلِ والأبطال قد غارتْ والمخصب الربع والأمواه قد غارتْ

هواطلُ السحب من كفيك قد غارتْ والشهبُ ما شاهدت أضواك قدّ غارتْ

وله بالعامية في التهنئة:

رأيتُ ذا العيد أولَ يوم في عصرك وزِنتُ ذا اليوم مع ذا الشهر في نصرك

وزِنتُ ذا الشهر مع ذا العام طوع الشهر والكلّ بالكلّ أول مبتدأ عمرك

ووضع المواليا على شكل يسهل التغني به ومدّ الصوت، مثل قول أحمد بن إبراهيم الحلبي (ت ٨٤٤هـ) في الغزل[2]:

عذّبي تسليتَ وأسيافَ الجفا سلّيت منّي تخلّيت في قلبي غُصص خلّيت

قتلي استحلّيت فيه النحر ما حلّيت في القلب حلّيت مُزي بالوصال حلّيت

قطع الشاعر المواليا، ووضع له قافية داخلية، ليزيد طاقته الإيقاعية عند التلحين والغناء، ويظهر من الأمثلة السابقة أن ناظمي المواليا يعتمدون على الجناس والكلمات المتفقة لفظًا والمختلفة معنى، وغنيّ عن الإبانة أن هذا الاستحداث الذي توجّه نحو العامية قد تمّ في وقت كثرت فيه العناصر الأعجمية فاستساغته.

وهناك ألوان أخرى من الفنون المستحدثة، مثل (الكان وكان) و(الحجازي)

---

(١) النجوم الزاهرة ٢٨/٨.

(٢) نظم العقيان: ٣١.

و (القوما)[1]، وقد اخترعها البغداديون ليُتَغنَّى بها في شهر رمضان، لن نقف عندها تجنبًا للإطالة.

وهكذا نما الاتجاه الشعبي في العصر المملوكي واستقر، فلم تكن العامة متلقية للأدب فقط، بل كانت مشاركة في إبداعه، وإليها يتوجه قسم من الشعر، وبينهم يذاع، وظهر من العامة شعراء استقوا مكونات شعرهم من حياة العامة، وبعضهم استعمل اللهجة العامية في نظمهم، فحمل هذا النظم ذوق العامة وقيمها الجمالية، وأصبح الشعر فنًا شعبيًا شارك فيه من أنس في نفسه أدنى مقدرة عليه وإن جاء قريبًا من النظم عند العلماء، وركيكًا عند المتشاعرين، وملحونًا عند العوام.

---

(١) للتوسع ينظر في: الجزء الثالث من (تاريخ آداب العرب) للرافعي، وكتاب: (الأدب في العصر المملوكي) للدكتور محمد زغلول سلام.

خصائص شعر العصر

كثر الشعراء في هذا العصر، وكثر إنتاجهم، وتفاوت في الجودة وحسن الأداء، ويلاحظ أن النظم قد شاع بين الكثير من فئات المتعلّمين ولا سيما الفقهاء والكتّاب والقضاة، وتجاوزهم إلى أرباب الحرف، وكان طبيعيًا أن تترك الحرفة أثرها في فن الشاعر.

وقد تناول الشعر كل الموضوعات التي عرفت من قبل وزاد عليها وطور فيها، وانتهى به التطوّر إلى هجر عمود الشعر التقليدي وبناء القصيدة القديمة المشهور، فلم يعد الشاعر يقف على الأطلال والدمن فيبكيها، ويتذكر الحبيبة التي كانت تحلها فيتغزّل بها، ثم يركب ناقته ويصفها، ويذكر رحلته في المفاوز حتى يصل إلى غرضه، وإنما صار الشعراء يسلكون إحدى طريقين: إما أن يطرقوا الموضوع مباشرة كما في الرثاء والغزل والوصف، وإما أن يمهّدوا لأغراضهم، وهذا غالب على قصائد المديح، وهذا التمهيد كان يتنوع ويختلف من غزل إلى وصف للربيع أو للديار العامرة والحدائق النضرة، أو للخمر.

وقد لاحظنا من عرضنا لأغراض الشعر مواطن الجدّة فيها وفي المعاني التي استعملتها ومستوى تلك الجدة وقيمتها، أما من حيث الأساليب، فقد انسربت أساليبهم في مذهبين أساسيين:

أولًا: المذهب السهل الذي يهتم بالمعاني البسيطة والألفاظ المألوفة أكثر من اهتمامه بالصنعة، فقد آثر الشعراء الألفاظ اللينة والأساليب السهلة، التي لا تُجافي مسامع العامة، ولا تحار أفهامهم حولها كما في قول أحمد الطرابلسي (٧١٧هـ) في أوذائه -المحبين-:

ما مسني الضيم إلا من أحبائي ... فليتني كنت قد صاحبت أعدائي

ظننتهم لي دواء الهمّ فانقلبوا ... داء يزيد بهم همي وأدوائي

من كان يشكو من الأعداء جفوتهم ... فإنني أنا شاك من أوذائي!!

وتبرز السهولة في الشعر المملوكي مظهرًا من مظاهر القدرة الفنية، فإذا ما ولّينا وجوهنا شطر أشعار هذا العصر ألفينا اتجاهًا عامًا نحو إيثار اللفظ المألوف، وتفضيل الأسلوب السهل، كما نلحظ تذوقًا واختيارًا للألفاظ وقدرة على الصياغة الشعرية؛ نجد هذا على سبيل المثال في شعر شهاب الدين التَّغْفَري (ت٦٧٥هـ)، ومن ذلك قوله في وصف حاله إثر غياب الأحبة[1]:

أتفهمُ ما تقولُ لك الجَنُوبُ[2] ... وليس لسانها إلا الهُبُوبُ؟

تقول: أنا الرسولُ إليك سِرًّا ... بما قد كان شافهني الحبيبُ

أبيتُ ومنهُ في بُرْدي حديثٌ ... له أرَجٌ على عِطفي وطِيْبُ

فملْتُ وقلتُ من طربي وسُكْري: ... أتيتَ بما تُسَرُّ بهِ القلوبُ

تُرَى ذاك الحبيبُ درَى بأنّي ... يغيبُ الأُنس عنّي مُذْ يغيبُ

بقلبي منه فَرْطُ أسًى ووجدٍ ... أعاني منه ما جهل الطبيبُ

أقول إذا تذكّره فؤادي: ... تُرى حالي بوصلك لي يطيبُ!

نجد في هذه الأبيات ميل الشاعر إلى السهولة والسلاسة، والبساطة في التعبير، والابتعاد عن حوشي اللفظ وصلادة التركيب، وحسبنا أن نقرأ هذه الأبيات لابن مَلِيك الحَمَويّ (ت ٩١٧هـ)، يقول فيها[3]:

أيا ربّا طلعةُ البدرِ ... لنا شمسًا إلى الفجرِ

وقمْ ما بين ندمانٍ ... بها كالأنجم الزهرِ

مدامٌ مزجها أبدى ... لنا كأسًا من السدرِ

---

(١) الديوان: ٢٢٩.

(٢) الجَنُوبُ: ريحٌ تخالفُ الشَّمالَ، القاموس المحيط (جَنَبَ).

(٣) الديوان: ١٧٣ -١٧٤.

بهـــا يســـعى لنـــا ســـاقٍ نقـــيُّ الخـــدِّ والثغـــرِ

وخَـــوْدٌ فـــي تثنّيهـــا بأغصـــان النقـــا تُـــزري

لهـــا خـــالٌ كمســـكٍ فَـــوْ قَ يـــاقوتٍ علـــى دُرِّ

ولحـــظٌ مـــن بنـــي عـــبسٍ ووجـــه مـــن بنـــي بـــدرِ (١)

مـــن البـــيضِ التـــي تســـمو بأعطـــاف مـــن المـــرِ

فقـــمْ يـــا صـــاحِ قـــد نـــادى بشـــيرُ الصـــبح بالبشـــرِ

وفـــزْ بالكـــأس والســـاقي ولـــذْ بالشـــمسِ والبـــدرِ

نقرأ هذه الأبيات فيبدو لنا ولع الشاعر بانتقاء اللفظ القريب المطرب، فكلّ ما صدر عن الشاعر هُنا يحكي شغفه بالرواء والخلابة المصاقبين لضرب من الأداء السلس، والصياغة الخالية من التقعر والإغراب.

وقد جنح الشعر إلى اللين والسهولة والقرب من أفهام العامة، وها هو ذا صفي الدين الحلي يدعو إلى نبذ الكلمات الغريبة التي جفتها الأذواق، والبحث عن اللطيف المأنوس منها، ومن أراد غير ذلك فليبغ المعاجم، وليصاحب رواة الشعر واللغة ممن دأبوا على حفظ الوحشي والمتقعر (٢):

إنمـــا الحَيْزبـــونُ والـــدُّرْدَبيسُ والطُّخْبـــا والثُّقَـــاخُ والعَطْلَبـــيسُ

لغـــةٌ تنفِـــرُ المســـامعُ منهـــا حـــينَ تُـــروى وتَشْـــمئزُّ النفـــوسُ

وقبـــيحٌ أن يُـــذكَر النـــافرُ الوَحْـــ ـــشيّ منهـــا ويُتـــركَ المـــأنوسُ

---

(١) بنو بَدْر: من بني ذبيان، قابل بهم الشاعر بني عبس، وقد كانت حرب داحس والغبراء في الجاهلية بين عبس وذبيان.

(٢) الديوان: ٦٢٤-٦٢٥، والحيزبون والدربيس: العجوز الداهية، والطُّخا: السحاب المرتفع، الثُّقاخ: الماء البارد العذب، والعطلبيس: الأملس البراق، العقنقل القدموس: الكثيب القديم.

أيــن قــولي: هــذا كتيــبٌ قــديمٌ ومقــالي: عَقنقــلٌ قُــدموسُ

دَرَسَــتْ تلكُــمُ اللغــاتُ وأمســى مــذهبُ النــاسِ مــا يقــول الــرئيسُ

إنمــا هــذه القلــوب حديــد ولذيــذ الألفــاظ مغنــاطيس

وكان للبهاء زهير (٦٥٦هـ) أثر في تسهيل الشعر وتطويع أسلوبه للغة المخاطبة، لقوة ملكته، وسلامة طبعه، وسعة ثقافته، وراح الشعراء بعده يقلدونه، فجنحوا إلى اللين والسهولة، حتى وصلوا بأساليبهم إلى مستوى العامة وأساليب الجماهير.

ثانيًا: المذهب اللفظي الذي يقود إلى الصنعة، وكان الشعراء آنذاك يرون فيه إرضاء لذوق أهل العصر المترف الذي يميل إلى الزخرفة والتزيين في كلّ شيء من الأبنية إلى اللباس والأدوات، فأكثر الشعراء من اصطناع فنون البديع المعروفة من قبل، حتى انقلبت عند بعضهم الوسيلة إلى غاية، وبعد أن كانت فنون البديع تُصْطَنَعُ لتزيين الشعر وإغناء معانيه وزيادة إيقاعه، صار غاية ينظم الشعر من أجلها، وتنافس الشعراء في تعقيدها والإتيان بالنكت الجديدة منها، وسنقسم الصنعة قسمين:

١- الصنعة البيانية:

وكان للشعراء اهتمام خاص بالعلوم البلاغية، ولا سيما علمي البيان والبديع؛ إذ إن هذا العصر شهد نضج تلك العلوم وظهور المؤلفات فيها، وكان اطلاعهم عليها مدرسيًا في الغالب وحرصهم على استعمالها إرضاء للذوق المهذب وتلبية لدواعي المنافسة، ولذا ضربوا فيها بسهم وافر وتباروا في استعمالها.

فعلم البيان ترسّخت منذ بداية هذا العصر أصوله وقواعده، ووجد أساتذة يتحدثون عنه حديثًا علميًا، وشعراء يستعملونه في فنهم قصدًا، وشاع ذوق أدبي راقٍ تمثّله النخبة المثقفة يمارس توجيهًا مباشرًا أو غير مباشر على الشعراء لاستعماله في إنتاجهم، ويقوّم فنهم بمدى استعمالهم له وكيفيته.

وكان الشعراء يدركون أنواع البيان وتسمياته من تشابيه واستعارات وكنايات ومجاز مرسل، إذ إنهم كانوا مثقفين وليسوا أُمّيين، ومتبحرين غالبًا وليسوا مبتدئين ولا شُداة، ولو ذهبنا نتتبع التشابيه في شعرهم لوجدناها بأنواعها، فثمة التشبيه التام بأركانه، وثمة المرسل والمجمل والمفصّل والمؤكد والبليغ وثمة المقلوب والتمثيلي والضمني... ويلفت النظر وجود تشابيه طريفة وجميلة، فهذا مجير الدين بن تميم يرسم صورة لغدير، فيبرز للقارئ لوحة فنية تجمع بين جزئيات مختلفة يحسب أنها خلقت مجتمعة إذ يقول:

غـــديرٌ دارَ نرجسُـــهُ عليـــه وزرقٌ نســـيمُه وصَـــفا وراقـــا

تـــراهُ إذا حللـــتَ بـــه لبـــوزٍ كـــأنّ عليـــه مِـــنْ حَـــدَقٍ نطاقـــا

وللقيراطي تشبيه خرج على جموده وتقليديته في قوله:

والبـــدرُ يُســـتر بـــالغيوم ويجلـــي كتـــنفّس الحمـــناء فـــي مرآتهـــا

تكمن براعة القيراطي في التقاط حركة بخار النفس على المرآة، وكذلك في التشبيه بحركة الغيوم في السماء التي تحجبه مرة وتظهر مرة أخرى، وكذلك في التشبيه المضمن في الأبيات، وهو تشبيه المرأة بالبدر.

فشعراء العصر المملوكي، وإن تابعوا القدماء في تشابيههم، انطلقوا محلقين في الخيال، فأضافوا إلى تشابيه القدماء ما يحركها ويبعث الحياة فيها، وداخلوا بين الحقيقة والوهم، وبين المحسوس والمعقول، حتى أضحى من العسير متابعتهم في الروابط التي أقاموها بين الأشياء المتباعدة، مثل قول الشهاب محمود في وصف حصن عالٍ:

كأنـــه وكـــأن الجـــوّ يكنفـــه وهُـــمُ تكنّفـــه فـــي طيّهـــا الفِكـــر

بالغ الشهاب محمود في وصف ارتفاع الحصن، حتى جعل العين لا تدرك آخره، لأنه ملفوف بالغيوم، فاستحالة إدراك البصر لأعلاه تشبه استحالة إدراك وهم في خضم أفكار متلاحقة غير محددة يحجب بعضها بعضاً، فلا تدرك الإنسان منها شيئًا، ولنا أن نتخيل

الوهم الذي تحيطه الأفكار، وهذه حال تُحس ولا تدرك لتُشبّه بها أعلى الحصن الذي تلفه الغيوم.

ومن طريف التشابيه في هذا العصر قول البوصيري في بردته في مدح رسول الله ﷺ[1]:

جـاءت لدعوتـه الأشـجارُ سـاجدةً تمشـي إليـه علـى سـاقٍ بـلا قَـدَمِ

كأنمـا سَـطَّرَتْ سَـطْرًا لِمـا كتبـتْ فُرُوعُهـا مـن بـديعِ الخـطِّ فـي اللُّقَـمِ[2]

جعل الشاعر الأشجار كلّها سيقانًا منتصبة من غير أقدام تقف عليها وتخطو بها، فبدت هذه الأشجار صفوفًا طويلة من المصلّين الساجدين الخاشعين المتراصفين، وكأنّ غابات الأشجار أضحت سطورًا من نور يهتدي بها الضالّون.

وربما عمد الشعراء إلى عرض غير ما صورة في أبيات قليلة؛ كقول الشاب الظريف (ت٦٨٨هـ) متغزلًا[3]:

فخـدُّكَ ردٌ واللـواحظُ نَـرجسٌ وشَخصـكَ سُـدْمانٌ وريقُـكَ قَرقَـفُ

وجَفْنُـكَ نبـالٌ وثَـغْرُكَ سُـنبلٌ وقَـدُّكَ خطّـيٌّ ولحظُـكَ مُرْهَـفُ

جمعَ الشاعر أربعة تشبيهات في كل بيت، فجاءت صوره كوميض البرق، وهذا يغلب على التصوير الفني في هذا العصر، فالشعراء لم يهتموا بالتوسع في الصورة الواحدة فحسب، بل راحوا يجمعون في البيت أو البيتين صورًا مكثفة كثيرة.

وللاستعارة والكناية والمجاز بأنواعه لديهم دولة ومكانة، وقد تسابقوا في استعمالها بأنواعها، وهم يعرفون أنواعها علمًا، ويسعون بكل جهدهم للإحاطة بها فنًا، ويتنافسون

---

(١) الديوان: ٢٤٣.

(٢) اللُّقم: الطريق الواضح.

(٣) الديوان: ٢١٨.

في تجويدها مباهاة وتفاخرًا، وقد رفدتهم الأحداث بمادة وفيرة غنية صاغوا منها في كثير من الأحيان صورًا مبهجة معجبة حينًا أو قاسية مكفهرة حينًا آخر، وربما مزج بعضهم بين الصور البيانية والواقعية وصاغ منها لوحة تكاد لفرط روعتها تنطق وتتحرك كما صنع الشهاب محمود في تصوير معركة الفرات التي خاضها الظاهر بيبرس ضد المغول: (لما تراقصت الرؤوس..)[1] ولعلّ من أفضل ما يستمتع به المرء من تصوير فني بارع يجمع بين الكثير من ألوان البيان ما جاء لذى المهمندار في وصف معركة الفرات، وما قاله الشهاب محمود في فتح عكّا[2].

كما كان شعر الغزل في هذا العصر معرضًا لألوان التشابيه والاستعارات، ومن ذلك قول الشاب الظريف[3]:

وَعُيونٍ أمرضْنَ جسمي وأضْرَمْـ ... ـنَ بقلبي لواعجَ البلْبالِ

وَخُدودٍ مثْلِ الرياضِ زَواهٍ ... مَا لأيّامِ حسنِها مِنْ زوالِ

لَمْ أكنْ مِنْ جَناتِها علمَ اللّـ ... ـهُ وإنّي لجمرِها اليومَ صالِ[4]

وقد تقبّل الذوق العام هذه الأبيات وغيرها بقبول حسن، فهذا صلاح الدين الصفدي يصف شعر الشاب الظريف بالسحر الحلال الذي يلعب بالعقول فيقول: "وما أحسن قول شمس الدين محمد بن التلمساني منقولًا من خطه:

فكم يتجافى خصرُه وهْو ناحلٌ ... وكم يتحالى ثغرُهُ وهْو بارِدُ

وكم يدّعي صدًّا وهذي جفونُه ... بفَتْرتِها للعاشقينَ تُواعِدُ

---

(١) راجع عرض المديح من هذا الكتاب.

(٢) راجع عرض الفخر والحماسة من هذا الكتاب.

(٣) الغيث المسجم ١١٩/١.

(٤) البيت مضمّن وهو للحارث بن عباد.

قلت: هذا هو السحر الحلال الذي يلعب بالعقول، ويدع الإعجاب بحسنه يقوم ويقول[1].

يبدو الصفدي هنا مأخوذًا بشعر الشاب الظريف، متقبلًا له أيما تقبل.

ومن ذلك أيضًا وصف بدر الدين لؤلؤ لروضة [2]:

هلـــمّ يَـــا صـــاحِ إِلـــى روضـــةٍ ... يجلـــو بهـــا العَـــانِي صَـــدا همِّـــهِ

نســـيمُها يعثـــرُ فـــي ذيلـــهِ ... وزهرُهـــا يـــرقصُ فـــي كمِّـــهِ

بدأ الشاعر بتشبيه إزالة هموم النفس بإزالة صدأ الآنية، وثنّى باستعارة ألحقت النسيم والزهر بعالم البشر، فصنع بالتشبيه والاستعارة صورة معبرة عن حاله، ومثيرة للخيال وممتعة للمتلقي.

٢- الصنعة البديعية:

ولقي علم البديع عند شعراء هذا العصر رواجًا أيّ رواج، فقد ازداد الميل نحو استعمال المحسنات البديعية بأنواعها، وأكثر الشعراء من استعمالها، وتقصّدوا إيرادها عن معرفة وعلم، ولا يخفى أن الأدب شعره ونثره غزته ضروب الصنعة البديعية قبل هذه العصور بقرنين أو أكثر، وبلغت ذروتها في نتاج أصحاب المقامات، ففيها من الفنون الزخرفية ما يشغل أذهان الناس ويطرفهم، وما يدل على سعة علم منشئها ومدى تجلّده في التقاط ألوان من الزينة اللفظية والزخارف البديعية.[3]

وحين جاءت هذه العصور طفق أدباؤها يقلّدون تلك الزخارف، ويبتدعون ألوانًا جديدة منها، ليتسلّوا في أوقات فراغهم وليدلوا بقدراتهم الأدبية واللغوية.

ومن الطريف أن يتبارى الشعراء في زيادة عدد ألوان المحسنات البديعية عندهم، وقد تمخض هذا عن ظهور فن جديد هو (البديعيات النبوية) إذ ذهب المولعون بالمديح

---

(١) الغيث المسجم ٢٨٩/١.

(٢) فوات الوفيات ٣٧٧/٤.

(٣) انظر: شرح مقامات الحريري مثلًا ولا سيما المقامة الحلبية، ص٥٢٢.

النبوي إلى نظم قصائد في مدح الرسول عليه الصلاة والسلام، ضمّنوا كل بيت من أبياتها لونًا من ألوان البديع، ويعدّ صفي الدين الحلّيّ (ت ٧٥٠هـ) صاحب أول بديعية، وقد نسجها على منوال قصيدة البردة للبوصيري وزنًا وقافية ومضمونًا؛ وتقع في مئة وخمسة وأربعين بيتًا، وهو عدد ما اهتمّ بعرضه من ضروب البديع، وسماها (الكافية البديعية في المدائح النبوية)، وجاءت على درجة كبيرة من الجمال والإتقان والإبداع، ومطلعها[1]:

إنْ جِئْتَ سَلْعًا فَسَلْ عَنْ جِيرَةِ العَلَمِ ... وَاقْرَ السَّلامَ عَلَى عُرْبٍ بِذِي سَلَمِ

ثم اندفعت ثلّة من الشعراء إلى نظم البديعيات، كان منهم ابن جابر الأندلسي الذي رحل إلى المشرق، فدخل مصر، واستوطن حلب، ونظم بديعية يشير كلّ بيت فيها إلى فن من فنون البديع، مطلعها:

بطيبةَ انزل ويمّمْ سيدَ الأممِ ... وانشرْ لهُ المدحَ وانثرْ أطيبَ الكلمِ

ثم جاء عزّ الدين المَوْصلي المتوفى (٧٨٩هـ)، فنظم قصيدته التي أولها:

براعةٌ تستهلّ الدمعَ في الغلَمِ ... عبارةٌ عن نداءِ المفردِ العلَمِ

ثم جاء بعده ابن حجّة الحَمَوي (٨٣٧هـ)، فعارضها ببديعيته، التي ضمن مطلعها شطرًا من مطلع (الموصلي)، وأولها:

لي في ابتدا مَدْحِكمْ يا عُرْبَ ذِي سَلَمِ ... بَراعةٌ تَستهلّ الدمعَ في الغلَمِ

ثمّ جاءت الشاعرة عائشة الباعونية (ت٩٢٢هـ)، التي استطاعت ببديعيتها أن تتمثل التجربة، وأن تعبر عنها بمعطيات شعرية أكثر عمقًا، واستهلتها بقولها:[2]

في حُسْنِ مَطْلَعِ أقمارٍ بذي سَلَمِ ... أصبحتُ في زُمرةِ العُشّاقِ كالعَلَمِ

---

(١) البديعيات في الأدب العربي، علي أبو زيد: ٧٣.

(٢) الفتح المبين في مدح الأمين: ٥٧.

أقـولُ والـدمعُ جـارٍ جـارحٌ مُقلـتي والجـارُ جـارَ بغـدْلٍ فيـه مُتَّهـمـي

يـا لَلْهـوى فـي الهـوى رُوحٌ سـمحتُ بهـا ولـم أجـدْ روحَ بُشـرى مـنهمُ بهـم

استطاعت هنا الشاعرة أن تضمّ الغرض الشعري (المديح النبوي) ملوّنًا بعاطفتها وإحساسها، إلى جانب الغاية التعليمية[1].

فامتازت قصيدتها بوضوح المعاني وقوة السبك، ولا بدّ أن يكون معاصروها تلقّوها بكثير من القبول، لأنها استغراق في التوسل والمناجاة، مع ما فيها من فنون البديع، وهذا كان منتهى البلاغة عند شعراء هذا العصر، وكان الظفر بنكتة منه غاية ما يصبو إليه كبار الشعراء، ومهما يكن من أمر هذه البديعيات، فإنها تعكس ذوق العصر الذي شغف بالبديع أيما شغف، "ولولا ذلك لما أقدم عليها كبار الشعراء وقتئذٍ، بل لَمَا جعلوها غاية وذروة لا يستطيع بلوغها إلا المقتدر العليم، ولَمَا استطاع هذا الفن الشعري الطريف أن يحيا قرابة سبعة قرون من عمر تراث هذه الأمة، وأن ينتشر في معظم أصقاعها"[2]

ولا حاجة بنا إلى ذكر كل ما استعمله أولئك الشعراء من أنواع البديع، فهي كثيرة، وسنكتفي بالإشارة إلى أهمها: فمن أبرز المحسنات البديعية لديهم التورية والطباق وحسن التعليل، والجناس والطباق وغيرها، وسنبدأ بالتورية:

١- التورية:

وهي أن يؤتى بلفظ له معنيان: أحدهما قريب ظاهر وهو غير مقصود، والثاني بعيد خفي وهو المطلوب، وقد كثرت التورية في هذا العصر وأُلّفت فيها كتب ورسائل، وذكر ابن حجة الحموي أنها من أفضل فنون الأدب فقال: "...لأنّ هذا النوع -أعني التورية- ما تنبّه لمحاسنه إلا مَنْ تأخر من حذّاق الشعراء، وأعيان الكتّاب، ولعمري إنهم بذلوا

---

(١) ينظر: البديعيات، علي أبو زيد: ٥٠

(٢) البديعيات، علي أبو زيد:٢٢٣

الطاقة في حسن سلوك الأدب إلى أن دخلوا إليه من باب، فإن التورية من أعلى فنون الأدب، وأعلاها رتبة، وسحرها ينفث في القلوب، ويفتح بها أبواب عطف ومحبة"[1] وأشار إلى أن أدباء هذه العصور هم الذين "سَمَوا إلى أفق التورية، وأطلعوا شموسها، وامتزجوا بها أهل الذوق السليم لمّا أداروا كؤوسها"[2].

وأغرم أدباء هذا العصر بالتورية، وطاروا بها عجبًا، وادعوا لأنفسهم فضلها، وأن السابقين لم يكونوا أهلًا لاجتلاء محاسنها، ولا قادرين على إبراز جمالها، وأنهم هم سبّاق حلبتها، والمبرزون في ميدانها، يقول صلاح الدين الصفدي في كتابه (فض الختام عن التورية والاستخدام): "ومن البديع ما هو نادر الوقوع، ملحق بالمستحيل الممنوع، وهو نوع التورية والاستخدام، فإنه نوع تقف الأفهام حسرى دون غايته عن مرامي المرام.

لَوْعٌ يَشُقُّ على الغبيِّ وجودُهُ ... من أي بابٍ جاءَ يغدو مُقفلا

لا يفرع هضبته فارع، ولا يقرع بابه إلا من نتحو البلاغة نحوه في الخطاب، وتجري ريحها بأمره رُخاءً حيث أصاب"، ويدلّ كلام ابن حجة والصفدي على أنهما يدركان قيمة هذا النوع، وأثر الحذق في صياغته وإحكامه، ويفخر ابن حجة بأن أهل عصره هم الذين جلوا محاسن التورية، وأزاحوا عنها حجبها.

وحملت رايتها المدرسة المصرية، وشهد لشعراء مصر بالسبق فيها كلّ من تحدّث عن التورية، وأشار ابن حجة في غير ما موضع إلى تفوّق المدرسة المصريّة فيها، وإلى أقطابها البارزين من أمثال: محيي الدين بن عبد الظاهر والوداعي والسراج الورّاق وابن نباتة، إذ تنافسوا في الإكثار منها، وباهوا بها سابقيهم، مدعين لأنفسهم شرف ابتداعها،

---

(١) خزانة الأدب ٢/٤٠.

(٢) خزانة الأدب ٢/٤٤.

ومنها ما جاء في قول سراج الدين (الورّاق) مورّيًا بلقبه[1]:

وَاخْجَلتـــي وصَـــحَائفي قـــدْ سُـوِّدت ... وصـــحائفُ الأبـــرارِ فـــي إشـــراقِ

وفضـــيحتي لمعنِّـــفٍ لـــي قائـــلٍ: ... أكـــذا تكـــونُ صـــحائفُ الـــورّاقِ؟!!

وقوله فيمن اسمه عرفات:

أطْنَبـــوا فـــي عَرَفـــاتٍ، فغـــدوا ... يتَعَـــاطَوْنَ لـــهُ حُسْـــنَ الصِّـــفاتْ

ثـــمَّ قـــالوا لـــي: وهَـــلْ واقفْتَنـــا ... قلـــتُ: عنـــدي وَقْفَـــةٌ فـــي عَرَفـــاتْ؟!

ومن توريباتهم التي دارت على الألسن قول بدر الدين بن لؤلؤ[2]:

يـــا عَـــاذلي فيـــه قُـــلْ لـــي: ... إذا بَـــدا كيـــفَ أسْـــلو

يمـــرّ بـــي كـــلَّ وقـــتٍ ... وكلّمـــا مَـــرَّ يحلـــو

وقعت التورية بالفعل (مرّ) الذي يعني اجتاز، و(مرّ) من المرارة ضد الحلاوة أي صار مرًّا. وأكثروا من الاستشهاد بقول ابن منظور المصري (٧١١هـ) متغزّلًا بأسلوب القدماء، ومورّيًا (السواك) بالسِّوى[3]:

بـــالله إنْ جـــزْتَ بـــوادي الأراكْ ... وقبّلـــتَ أغصـــانَه الخُضْـــرُ فـــاكْ

ابعـــثْ إلـــى عَبْـــدِكَ مِـــنْ بعضِـــه ... فـــإنني واللهِ مـــا لـــي سِـــواكْ

ومن توريباتهم أيضًا قول مجير الدين بن تميم في النيلوفر[4]:

---

(١) فوات الوفيات ٢/١٨٤، والورّاق: لقب الشاعر، والورّاق: الذي ينسخ الكتب؛ يشير إلى أن كل إنسان يتناول كتابه يوم القيامة ليقرأ فيه ما دوّن عليه من أعماله الصالحة والطالحة.

(٢) فوات الوفيات ٤/٢٧٨.

(٣) الدرر الكامنة ٤/٢٦٤.

(٤) نصرة الثائر على المثل السائر: ٢١٥.

غـدا اللبـؤلؤ المصـفرُ يحكـي النـ ـجـومَ فـلا يُغـادِرُها شَـبيها

تغـوصُ العـينُ فيـه إذا تجلّـى النـ ـنهارُ وفـي الظـلامِ يَغـوصُ فيهـا

وقد استعمل العين هنا في معنين: أولهما العين الباصرة، والثاني العين الجارية.

وشغفُ القوم بالتورية حملّهم على التماسها في المصطلحاتِ العلمية، فأكثر الشعراء من استعمال الأسماء ومصطلحات العلوم والإشارات التراثية في بناء المعاني، رغبة في إثبات المقدرة، واتساع المعرفة، والإلمام بالعلوم المختلفة، وقد عرف هذا الفن باسم (التوجيه) على غرار ما رأينا عند السراج الوراق في قوله موريًا بمصطلحات عروضية[1]:

قالـتْ: جمعـتَ لفاقـةٍ كسـلًا فـانهضْ وقـمْ وادأبْ لهـمْ العائلـه

فأجبـتُ: هـل تـدرين لـي سـببًا قالـتْ: ولا وتـدًا، وهـذي الفاصلـه!

ومن ذلك أيضًا قوله موريًا بمصطلحات نحوية[2]:

أنـا الـذي مرضـتْ شـهرًا كـاملًا فمـا رأيـتْ عائـدًا ولا صِـلَهْ

وقد أصبحت التورية مذهبًا شعريًا خالصًا، أسماه بعض النقاد والأقدمين (السحر الحلال)، وجعل من لا يأخذ به مقصّرًا، وعدّوها من وسائل تعميق المعنى وتجديده، والانعتاق من قيد تكرار معاني القدماء، كما كانوا يرون أنفسهم روّاد هذا الفنّ ومدنته.

٢- الطباق والمقابلة:

هو الجمع بين المتضادين، فإذا جاوز الطباق ضدّين وترتّب كان مقابلة، وقد أبدى الشعراء عناية بالطباق والمقابلة، مثل قول العفيف التلمساني في الرياض[3]:

ريـاضٌ بكافـا المُـزنُ فهْـيَ بواسـمُ وناحَـتْ لغيـرِ الحُـزْنِ فيهـا الحمـائمُ

---

(١) و(٢) الغيث المسجم ١/٣٣

(٣) فوات الوفيات ٢/٧٥.

يبيتُ النـدى فـي أفقهـا وهـو نـائرٌ ويُضـحي علـى أجيادهـا وهـو نـاظِمُ

طـابق التلمسـاني بـين بكـاء المـزن وابتسـام الريـاض، وانتشـار النـدى فـوق الريـاض وانتظامه على أغصانها، ويبيت ويضحي، فأعطى تنويعًا للمعنى، وتحريكًا للوصف لأن الضد يظهر بضده. والدلالة على المفارقة القائمة في هذا العصر بين أهل العلم وأهل المال، يقول ابن الوردي موضّحًا صعوبة الجمع بينهما[1]:

لـيَ نَفْـسٌ تقيّـةٌ لـم يَعِبْهـا غيـرُ حظّـي وذا بغيـرِ اختيـاري

جـامعُ الحـظِّ والـذكاءِ قليـلٌ يصـعبُ الجمـعُ بـين مـاء ونـارِ

ومن أطرف ما ورد فيه الطباق وصف البوصيري لعمله في تعليم الصبيان بقوله[2]:

قـد صـارَ كُتّـابي وبيتـي مـن بلـي غيـري وأبنـائي كبـرج حَمَـامِ

أعطـيهم عقلـي وآخـذُ عقلَهُـمْ فـأبيعُ نـوري مـنهمُ بظـلامِ

ومن هذا القبيل قول ابن قرناص إبراهيم الحموي (٦٧١هـ) في وصف ليله وليل من يحب[3]:

ليلـي وليلُـكَ يـا سُـؤالي ويـا أملـي ضـدّان، هـذا بـه طـولٌ وذا قِصَـرُ

وذاكَ أنّ جفـونـي لا يُلـمُّ بهـا نـومٌ وجفنُـكَ لا يحظـى بـه سَـهَرُ

وتغزّل صفي الدين الحلّيّ، فقال[4]:

الوجْـهُ منـك عـن الصّـوابِ يُضِـلُّني وإذا ضَـلَلْتُ فإنـه يَهْـديني

وثمِيتَـي الألحـاظُ منـك بنظـرةٍ وإذا أرَدْتَ بنظـرةٍ تُحيينـي

(١) الديوان: ٢٩٧.
(٢) الديوان: ٢٥٤.
(٣) المنهل الصافي ١/١٤٠-١٤١.
(٤) الديوان: ٤٢٧.

وكـذاك مـنْ مـرضِ الجفـونِ بليّتـي وإذا مرضـتُ فإنهـا تشـفيني

ولـذاكَ أشْـري الوصْـلَ منـك بمُهجتـي وأبيـعُ دنيـائي بـذاك ودينـي

حال المحبّ هُنا مناقضة لحال المحبوب، هذا متيم مقبل، وذاك معرض مدبر، لذلك اتبع الشاعر طريقة التضاد والطباق لإظهارها، فوجه المحبوب يضلّه ويهديه، وألحاظه تميته وتحييه، وجفونه تُمرضه وتشفيه؛ لذلك أظهر استعداده لبيع دينه ودنياه، في سبيل رضا من يحبّ ووصله، فاستعمال الطباق في الأبيات لم يكن للزينة، وإنما لإيصال موقف محدد إلى المتلقي.

ولما تولّى ابن خلكان قضاء الشام ثانيًا، بعد سبع سنين، وقدم من مصر، كان له يوم مشهود، جلس في منصب حكمه، وتكلم الشعراء، وأسهب الطباق بعضهم، فقال[1]:

رأيـتُ أهـلَ الشـامِ ملْـؤا مـا فـيهمُ قـطُّ غيـرُ راضِ

نـالهمُ الخيـر بعـد شـرٍّ فالوقـت بسـعد بـلا انقبـاضِ

وعُوِّضـوا فرحـةً بحـزنٍ مـذ أنصـف الـدهر فـي التقاضـي

وسـرَّهُمْ بعـد طـولِ غـمٍّ قـدومُ قـاضٍ وعـزل قاضـي

فكلهُـمْ شـاكر وشـاكٍ بحـال مسـتقبلٍ ومـاضِ

وقد تركت المطابقات هنا أثرها في المنطق والتعليل، كما أنّ تواترها أفاد في تعميق الدلالات وإثرائها.

٣- حسن التعليل:

وهو من أجمل المحسنات البديعية المعنوية، وإحدى طرائق توليد المعاني واختراعها، وفيه ينكر الأديب صراحة أو ضمنًا علة الشيء المعروفة، ويأتي بعلّة أدبيّة طريفة

---

(١) فوات الوفيات ١/١١١.

تناسب الغرض الذي يريده، وهو ضرب من الرياضة الذهنية فيه متعة للحسّ واللبّ، ومنه قول ابن نباتة[1]:

لم يزلْ جوذُه يجورُ على المـا ... ءِ إلى أنْ كسا النُّضارَ اصفرارا

وحسن التعليل من ضروب الصنعة التي شاعت آنذاك، واتخذها الشعراء وسيلة لتوليد المعاني بإسناد الحدث إلى غير مسببه، كقول مجير الدين بن تميم في وصف دوران الناعورة وصوتها[2]:

أيا حُسْنَها من روضةٍ منماغ نشرُها ... فسادَتْ عليه في الرِّياضِ طروزُ

ودولابُها كانت تُغَدُّ منلوعُه ... لكثرةِ ما يبكي لها ويسدوز

قدّم الشاعر تعليلاً حسنًا لتغريد الطيور، ولشكل الناعورة بصنعة ظاهرة، لا يأتلق مع علتها الحقيقية، فأدخلها في عالم البشر وأحاسيسهم وأهوائهم في صورة مكتملة، أراد بها الإدهاش والإمتاع، والتعليل إما أن يكون صحيحًا وإمّا وهميًا، يريد منه الشاعر الاحتجاج لما يذهب إليه أو لتسجيل معنى جديد أو صورة مبتكرة، مثل قول مجير الدين بن تميم[3]:

بكوا لجراحةِ شقَّتْ جبينَ الـ ... ـحبيبِ، فقال: ما ضرَّ الجراحُ

الـيمنَ جَبينُه صُبحًا مُنيرًا ... ولا عجبٌ إذا انشقَّ الصباحُ

لا يريد مجير الدين معرفة سبب جرح جبين الحبيب، فهذا أمر لا يعنيه، ما يعنيه هو الحبيب وما يمكن أن يقال فيه شعرًا، وما يوحي به جرحه، لذلك جعل الجرح مناسبة لإقامة معنى غزلي جديد عن طريق التعليل الوهمي للجرح، فالشعراء درجوا على تشبيه

---

(١) الديوان: ١٩١.

(٢) خزانة الأدب ٢/٧٧.

(٣) ألحان السواجع للصفدي ٢/٢٤٦.

الجبين بالصبيح، والصبح ينشقّ عادة، فذهب الشاعر إلى أن هذا هو سبب الجرح في جبين الحبيب، فانتقل إلى الخيال، وإلى ما جرت عليه العادة في تشبيه الجبين والصبح، ليقيم منهما علّة ومعلولًا، وليصل منهما إلى معنى جديد يعجب الناس ويخفف عن الجريح.

٤- الاقتباس:

وهو أن يتضمن الكلام شيئًا من القرآن الكريم أو الحديث الشريف بلا دلالة على أنه منهما، وقد أكثر الشعراء من الاقتباس معتمدين على ثقافتهم الدينية، ومن جيّده قول أبي الحسين الجزّار[١]:

قلـــتُ لمّـــا ســـكبَ السُّـــقـــي علـــى الأرض الشُّـــرابا
غيـــرةٌ منـــي عليـــهِ ليتنـــي كنـــتُ تُرابًـــا"[٢]

ومنه ما اقتبسه صفي الدين الحلي من الآيات البينات في سورة الفرقان "وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونًا وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلامًا"، و"إن عذابها كان غرامًا إنها ساءت مستقرًا ومقامًا" و"وإذا مروا باللغو مروا كرامًا"، فقال يتشوق إلى عشيرته ويفتخر بها[٣]:

بَلِّغِـــي الأحبـــابَ يـــا ريـــ ـــحَ الصَّـــبَا عنّـــي السَّـــلاما
وإذا خاطبَـــكِ الجَـــا هـــلُ بـــي، قُـــولي سَـــلاما
أنـــا مَـــنْ لـــمْ يَـــذُمِ الدُّنـــ ـــيا لـــهُ يومًـــا ذِمامَـــا
مِـــنْ أُنـــاسٍ صَـــيَّروا العِـــزّ ضَ علـــى الـــذُّمّ حرامَـــا

(١) نصرة الثائر على المثل السائر: ٣٤٣.
(٢) سورة النبأ: ٤٠.
(٣) الديوان: ٤٩، الذّمام: الحرمة، والعِرْض: موضع المدح والذم من الناس، وغرامًا: لزامًا.

وإذا مـــــــرّوا بلغـــــــوٍ فـــي الـــورى مَـــرّوا كرامـــا
فلكـــــمْ ذُقْـــــتُ عـــــذابًا للهـــوى كـــــانَ غرامـــــا
إنّ نـــــارَ الشـــــوقِ ســـــاعت مُســـــــتقرًّا ومُقامـــــــا

ويقتبس الحلّي أيضًا قوله تعالى: "سيماهم في وجوههم من أثر السجود"(١)، ليقول في آل بيت رسول الله ﷺ (٢):

يـــا عشـــرةَ المختـــارِ يـــا مـــنْ بِهِـــمْ يفـــــوزُ عبـــــدٌ يتـــــولاهُمُ
أعـــرف فـــي الحشـــر بحبـــي لكُـــمْ إذ يُعْـــــرَفُ النـــــاسُ بســـــيماهُمُ

ويقتبس صلاح الدين الصفدي من قول الله سبحانه وتعالى في سورة الشعراء: "يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره" فيقول:

يـــــا عاشـــــقينَ حـــــاذروا مُبتبـــــمًا عَـــــنْ ثَغْـــــرِهِ
فطرْفُـــــهُ الســـــاحرُ مُـــــذْ شَـــــككتمْ فـــــي أمـــــرِهِ
"يريـــــدُ أن يخـــــرجَكم مـــــنْ أرضِـــــكم بســـــحرِهِ"(٣)

واقتبس بعضهم الحديث الشريف: "إذا لم تَسْتَحْي فاصنع ما شئت"(٤)، بقوله(٥):

إذا لـم تَصُـنْ عِرْضًـا ولـم تخـشَ خالقًـا و تَسْـتَحْي مخلوقًـا فمـا شـئت فاصـنعِ

وهكذا لم يترك أدباء هذا العصر مصدرًا لاقتناص المعاني وتحصيلها؛ إلا سعوا إليه وأخذوا منه، وكان القرآن الكريم ببيانه المعجز وأسلوبه العلوي أجدر باهتمامهم، فراحوا

---

(١) سورة الفتح: ٢٩.
(٢) الديوان: ٨٧.
(٣) سورة الشعراء: ٣٥.
(٤) صحيح البخاري، رقم الحديث: ٣٤٨٣.
(٥) المستطرف في كلّ فن مستطرف ١/١٥٥.

يقتبسون منه، حتى غدا وجود آية في النصّ الأدبي أدعى لقبوله، فكان له في السمع وقع، وفي القلب حلاوة.

٥- التضمين:

يسمّي نقاد العصر المملوكي هذه الظاهرة (الإيداع) وعدّوا هذا الصنيع من مظاهر الجمال بعد أن صنفوه ضمن ألوان البديع، يقول ابن حجة في خزانته: "والإيداع الذي نحن بصدده هو أن يودع الناظم شعره بيتًا من شعر غيره أو نصف بيت أو ربع بيت بعد أن يوطئ له توطئة مناسبة"، ويعرض ابن حجة طرائق الشعراء في ذلك، ثم يبين الرتبة العليا منه فيقول: "وأحسن الإيداع ما صُرف عن معنى غرض الناظم الأول، ويجوز عكس البيت المضمّن بأن يجعل عجزه صدرًا، أو صدره عجزًا، وقد تحذف صدور قصيدة بكمالها وينظم المُودِعُ صدورًا لغرض اختاره، وبالعكس".

واستجابة لهذا المطلب الجمالي راح الشعراء يفتنّون في إيداع شعرهم بعض الشعر القديم، فيأخذ البوصيري، في أحد أبيات بردته شطرًا من بيت للمتنبي فيقول[1]:

فإنّ أمّارتي بالسوء ما اتّعظتْ ... من جهلها بنذير الشيب والهَرَم

ولا أعَدَّتْ من الفعل الجميل قرى ... ضيفٍ ألمّ برأسي غيرَ محتشِم

وقد أخذ البوصيري الشطر الأخير من قول المتنبي:

ضيفٌ ألمّ برأسي غيرُ محتشِم ... والسيفُ أحسنُ فعلًا منه باللّمم

وقد يودع الشاعر في شعره غير بيت لغير شاعر، ويرى أن البراعة في أن يوطئ لذلك بتوطئة واحدة كما فعل شهاب الدين محمود، وعدّ ذلك من أي افتنانه فقال: "وقد ضمّنت بيتين بتوطئة واحدة وهما[1]:

---

(١) الديوان: ١٩١.

(١) حسن التوسل: ٦٢.

وبتنا على حكم الصبابة مطعمي ... زفيري وأشجاني وشربي المدامعُ

وخلٌ يعاطيني كؤوس ملامةٍ ... وينشدني والهمُّ للقلب صادعُ

أتطمعُ من ليلى بوصلٍ وإنما ... تُقطِّعُ أعناقَ الرجالِ المطامعُ

فبتُّ كأني ساورتني ضئيلةٌ ... من الرقش في أنيابها السمُّ ناقعُ

والبيتان اللذان يعنيهما هما الأخيران وأولهما للبُعيث، والثاني للنابغة.

ويأخذ ابن نباتة بعض بيت للمتنبي بعد أن يصرفه عن غرضه الأول فيقول[1]:

بوجهك من ماءِ الملاحةِ موردٌ ... لظامٍ وشربُ العامريِّ سرابُ

إذا زرتني فالروحُ و المالُ هيِّنٌ ... وكلُّ الذي فوق التراب تراب

وينظم صدوزا لأبيات يأتي لها بأعجاز من شعر الحطيئة وطرفة، وذلك في قوله يمدح الملك المؤيد[2]:

إذا جئتَه تعشو إلى ضوءِ كأبه ... "تجدْ خيرَ نارٍ عندَها خيرُ موقدِ"

تُحدِّثك الأنفاسُ فيها عن اللمى ... "ويأتيك بالأخبارِ من لم تُزوِّد"

فَشِمْ بارقًا قد خوّاتك ولا تَشِمْ ... "لخولةَ أطلالٌ ببَرْقةِ ثُهمدِ"

وهكذا غدا التضمين سمة من سمات الجمال، وحرص الشعراء على تطريز شعرهم ببعض أقوال من سبقهم من الشعراء إظهارًا لسعة الباع، وطول النظر في التراث، ولا ريب أن مثل ذلك الصنيع كان يروق ذوقَ الصفوة المتأدبة التي فتنت بالقديم أيما فتنة، حتى إننا نرى الشاعر مجير الدين بن تميم يفخر بأن نصف شعره من شعر غيره إذ يقول[1]:

أطالع كلَّ ديوان أراه ... ولم أزجُرْ عن التضمين طيري

---

(١) الديوان: ٦٢.

(٢) الديوان: ١٢٨.

(١) فوات الوفيات ٤/٥٥.

أضمّن كل بيت فيه معنى فشعري نصفه من شعر غيري

وقد ذكر ابن حجة أنّ مجير الدين بن تميم "أتى فيه بالعجائب والغرائب"، وأشار ابن تغري بردي إلى أن الشعراء في هذا العصر كانوا يقصدون التضمين قصدًا حتى أصبح طريقة من طرائق قول الشعر، وذكر أنه "في التضمين الذي عاناه فضلاء المتأخرين آية، وفي صحة المعاني والذوق اللطيف غاية، لأنه يأخذ المعنى ويحل تركيبه، وينقله بألفاظه الأولى إلى معنى ثانٍ، حتى كأنّ الناظم إنما أراد به المعنى الثاني"[1]، وما من شك في أنّ هذا العمل يعبر عن لون من الإجادة تتمثل في حسن الاختيار من جهة، وفي براعة الانتقال من جهة أخرى، ومن ذلك قول الشاب الظريف:

جلا ثغرًا وأطلع لي ثنايا يسوقُ بها المحبُّ إلى المنايا

وأنشدَ ثغرُهُ يبغي افتخارًا "أنا ابنُ جلا وطلاعُ الثنايا"[2]

وهكذا هام شعراء هذا العصر بشعر الأوائل، فأكثروا من الإغارة عليه، يضمنونه في شعرهم، ويدخلونه فيه، لأنهم كانوا يكبرونه ويحفظونه ويتمثلون به، ويستعينون به من أجل بناء معانيهم وصورهم وصنعتهم البديعية، وكان التراث حاضرًا دائمًا في أذهانهم وغايتهم اللحاق به ومجاراته.

هذا فيما يتعلق بالصنعة المعنوية، أما **الصنعة اللفظية** فكانت الظاهرة الأبرز في الشعر، والغاية الأساس منها منح النص طاقة موسيقية إضافية بجرس الألفاظ، وانسجام توالي المقاطع، وقد فتن بعض شعراء العصر بالجناس حتى كوّنوا اتجاهًا لفظيًا في الصنعة البديعية، يقابل أصحاب التورية والاتجاه المعنوي فيها، ويعد الصفدي من أعلام هذا الاتجاه.

ويقوم **الجناس** على تشابه كلمتين لفظًا واختلافهما معنى، وقد كثر لدى شعراء هذا

---

(١) المنهل الصافي٣/٣١٤.

(٢) ضمن الشاعر عجز بيته الثاني صدر بيت سُحَيم بن وثيل.

العصر وتنوع، وحسبنا أن نرى تلك الأنواع المختلفة للجناس التي أخذ يفرّعها ابن حجة في خزانته، فهناك: المركّب، والمطلق، والملفّق، والمذيّل، واللاحق، والتّام، والمطرّف، والمصحّف، والمحرّف، واللفظي، والمقلوب، والمعنوي؛ وهي اثنا عشر لونًا، وقد شغف الصفدي بالجناس شغفًا شديدًا، وصنف فيه مصنفًا سماه (جنان الجناس) جمع فيه كثيرًا من شعره الذي تضمن هذا اللون البديعي، بينما راح ابن حجة يتهكّم على الصفدي وذوقه، ويرى في الجناس لونًا من ألوان العقادة، ويقول: " وما أظرف ما وقع له (الصفدي) مع الشيخ جمال الدين بن نباتة، وذلك أنه لمّا وقف على كتابه المسمى بجنان الجناس وقد اشتمل على كثير من هذا النوع سماه (جنان الخنّاس)".

ومن الأمثلة التي ضربها الصفدي على الجناس قوله[1]:

أنـــــى محلّـــــي أنـــــاسٌ بهـــــمْ تحلّـــــى المـــــديحُ

زاروا وزانـــــــــــــوا وزادوا هـــــذا الجنـــــاسُ المليـــــحُ

فهذا مثال وضعه الصفدي لإيضاح نوع منه، ومثل ذلك قوله أيضًا[2]:

يـــا مَـــنْ إذا مـــا أتـــاهُ أهـــلُ المـــودّةِ أوّلـــمْ

أنـــا مُحبُّـــك حقًّـــا إن كُنـــتَ قـــومي أوْ لَـــمْ

جانس الصفدي بين القافيتين، ولم يتم له الجناس إلا بعد أن حذف تتمة الكلام، فأضاف إلى فن الجناس فنًا بديعيًا آخر، هو الاكتفاء، ويبدو من البيتين أنهما صُنعا لإقامة هذه الصنعة فحسب، ومن ذلك أيضًا قوله[1]:

وســـاقٍ غـــدا يســـعى بكـــأسٍ وطَرْفُـــهُ يُجَـــرِّدُ أســـيافًا لغيـــرِ كفـــاحِ

---

(١) جنان الجناس: ٤٥.

(٢) جنان الجناس: ٢٥.

(١) الغيث المسجم في شرح لامية العجم ٢/٤١٠.

إذا جـرحَ العُشّـاقَ قـالوا: أقمـتَ فـي مـــدارجِ راحٍ أمْ مـــدارِ جـــراحِ

إنّ عمله هذا يقوم على تقديم مقطوعات تحتضن هذا النوع من الجناس وتتحلّى به، تحدوه الغاية التعليمية من تحقيق البديع وتوفير الشواهد لذلك، مع رياضة فكره وتمرين قريحته، وإن شئت برهانًا أسطع ودليلًا أنصع فافتح أي ديوان شعري من هذا العصر ليطالعك هذا الجهد الفني وحب الطباق والجناس واستغلال بعض الألفاظ ثم الاشتقاق منها، ومن ذلك قصيدة في الخمر وسقاتها للشاعر ابن المرحّل (صدر الدين بن الوكيل ٧١٦هـ) [١]:

ليـذهبوا فـي ملامـي أيّـةَ ذهبـوا فـي الخمـرِ لا فضـةٌ تبقـى ولا ذهـبُ

راحٌ بهـا راحتـي، فـي راحتـي حصلـتْ فـتمّ عُجبـي بهـا وازدادنـي العَجـبُ

فمـا كتمـوا راحتـي مـنْ راحِهـا خَلـلًا إلّا وغـرّوا فـؤادي الهـمَّ واستلبوا

وهكذا تسير القصيدة على هذا السبيل من تعمد الصناعة اللفظية والزخرفة البديعية، لإظهار البراعة اللغوية والفنية، ومن ذلك أيضًا قول صدر الدين بن الوكيل في مدح قرا سنقر [٢]:

شـمسٌ سـما فـوقَ السـماءِ محلّـه وسـبا سـناه البـدرَ فـي هالاتـه

بالسـيف والقلـم ارتقـى فمضـى بـذا لعُداتـه ومضـى ذا لِعداتِـهِ

فـالعلم بـين بنانـه وسِـنانه والحلـم مـن أدواتـه ودواتـه

فنحن نرى في هذه الأبيات عدة ألوان من الجناس، الجناس الخطي بين (سبا وسنا) والجناس المحرّف (عُداته وعِداته) وجناس من التصريف بين (بنانه وسنانه)

---

(١) شذرات الذهب ٦/٤١.

(٢) المنهل الصافي ٣/١٣٠.

والجناس المطرَّف بين (أدواته ودواته)، ومن الجناس المُطلَق قول العزازي[1]:

هلْ مِنْ جناحٍ إن جنحتُ إلى الهوى ... وعشقتُ سَحّار الجفونِ غريرا

ومن الجناس المذيّل قول ابن نباتة[2]:

فساخ نشرًا وبَدا فالبدرُ مِنْ ... حسدٍ خافٍ ونشرُ الروضِ خافتْ

مثلما قدْ أقبلتْ من مصرِها ... أنجمُ العلمِ فنجمُ الشّامِ شامتْ

ولم يقف جهد الشعراء في الجناس عند هذا الحد، بل راحوا ينظمون القصائد، ويجانسون بين قوافيها، فتبدو القافية وكأنها كلمة واحدة مردّدة، وخذ إن شئت مثالًا على ذلك قول ابن دقيق العيد في الحنين إلى ربوع الحجاز وقضاء مناسك الحج والعمرة[3]:

تهيمُ نفسي طَرَبًا عندما ... أستلحُ البرقَ الحجازيّا

ويستخفُّ الوجْدُ عقلي وقد ... لبستُ أثوابَ الحِجَا زيّا

ياهلْ أُقضّي مِن منًى ليلتي ... وأنحرُ البُزْلَ المَهاريّا

فأرتوي من زمزمٍ فهْيَ لي ... ألذُّ من ريقِ المَهَا ريّا

إنك لا تشك في أن الشاعر قصد التجنيس، فهو يجانس بين (الحجازيا) نسبة إلى أرض الحجاز، والحِجَا ومعناه العقل، و(زيًا) أي اللباس، كما جانس في البيتين الأخيرين بين كلمتي (المهاريا) وتعني الذوق المهارية منسوبة إلى مَهْرة بن حيدان أبي قبيلة، وهم حيّ عظيم نسب إليه نوع من النوق، وبين (المها): البقر الوحشية و(الري): الارتواء.

والأمر الذي يسترعي النظر في هذا العصر هو أنّ الأدباء شغفوا بالجناس، وأصبح مزية للشعراء حينئذٍ، حتى إنّ العماد الأصفهاني لا ينسى أن ينبه على كل قصيدة تمتاز

---

(١) الديوان: ٨.

(٢) الديوان: ٧٨.

(٣) بدائع الزهور ١/٤١٢.

بالجناس في صيغة المعجب المستظرف لهذا اللون من الصنعة، ومن هنا نستنتج أنه كان ميلًا عامًا حتى أضحى ذوق العصر، فإذا أراد أن يقدّم قصيدة للغزي قال: "وله من قصيدة في مدح الصاحب مكرم بكرمان وقد قصد التجنيس"[1]، إشارة إلى أن الجناس كان يقصد لذاته، وإذا أراد في موضع آخر أن يقدم أبياتًا للقيسراني قال: "ومن أخرى مجنسة ملسة، للقلوب مختلسة، وللعقول مفترسة...."[2]، كما يقول في موضع ثالث وقد قصد يحيى بن سلامة الحصكفي: "وله من قصيدة قصد فيها التجنيس الظريف، اللطيف الطريف، الذي لو كان (البُحْتريُّ) في زمانه أقرّ بأنه عَبْدُ بيانه، ومُصلّي ميدانه"[3].

ومن ضروب الصنعة اللفظية التي احتفى بها الشعر في هذا العصر: المهمل والمعجم وهو النظم الذي يأتي مهملًا ليس فيه أحرف منقوطة، أو يأتي مُعجمًا ليس فيه أحرف مهملة، وهو نظم لا تظهر صنعته في سماعه، لأن الأذن لا تميّز الأحرف المنقوطة من غيرها، وإنما في القراءة، لأن العين تميّز الحرف المعجم من الحرف المهمل، ومن ذلك قصيدتان للحلي، افتتح المهملة بقوله[4]:

كم ساهرٍ حَرَّم لمس الوساد ... وما أراه سُؤْله والمراد

ما سَهَرُ الوالهِ معطٍ له ... وصلًا ولو داومَ طول السهاد

ونظم بالمقابل قصيدة أخرى معجمة ليس فيها حرف مهمل، منها[1]:

فُتِنتُ بظبي بغى خيبتي ... بجفنٍ تفنّن في فتنتي

تجنّى فبتُّ بجفنٍ يفيضُ ... فخيّبتُ ظنّي في يقظتي

وثمة محسنات لفظية أخرى، كالإكثار من الألفاظ المصغّرة، ومن ذلك

---

(١) و(٢) و(٣) خريدة القصر وجريدة العصر: قسم شعراء الشام ١٢١/٢، ٢٥٧، ٤٧٥، والبُحْتري: هو أبو الفتح البحتري الشاعر العباسيّ البارع في صنعته، والمصلّي: الذي يأتي ثانياً في السباق.

(٤) الديوان: ٦١٨.

(١) الديوان: ٦١٩.

قصيدة لصفي الدين الحلي أتى بألفاظها مصغرة، سارت أبياتها على هذه الشاكلة[1]:

نُقَيْطٌ من مُسَيْكٍ في وُرَيْدٍ خُوَيْلُكَ أم وُشَيْمٌ في خُدَيْدِ

وذَيّاكَ اللُّوَيْمُ في الصُّحَيّا وُحَيْهُكَ أم قُمَيْرٌ في سُعَيْدِ

ومن الشعراء الذين جعلوا التلاعب بالألفاظ مصدرًا لمحاولة التجديد البوصيري في قوله[2]:

وأصبحَ شغلُه تحصيلَ تِبْرٍ وكانتْ راؤُهُ مِنْ قبلُ نُونا

لقد كان ميدان الألفاظ والتصرف بها أوسع الميادين التي بقيت لشعراء هذا العصر - كما رأوا- فتزاحموا فيه يقدمون أعمالًا غريبة وألاعيب عجيبة؛ يقول الصفدي[3]: "ووجدت الورّاق الحظيري قد تكلف أشياء من هذه الأنواع، ومن ذلك بيتان كل كلمة منهما مهموزة وهما:

بأبي أغيدٌ أذاب فؤادي إذ تناءى وأظهرَ الإعراضا

رشأٌ يألفُ الجفاءَ فإنْ أقـ ـبل أبدى لأمليه انقباضا

وفي (انقباض) نظر".

ونقرأ للقيراطي في مدحه لابن الشهيد[1]:

في لامِ خدك عُذّال الهوى باؤوا بإثم مَنْ لا لَهُ لامٌ ولا باءُ

بقافِ أقسمُ لولا نونُ حاجبه لم يفنَ صادٌ ولا باءٌ ولا راءُ

---

(١) فوات الوفيات ٣٣٨/٢.

(٢) الديوان: ٢٧١.

(٣) نصرة الثائر: ٣٧١ وما بعدها.

(١) ديوان القيراطي: ٤٢-٤٣

نعم ولولا معاني ابن الشهيد سمت لم يحلُ مسمعٌ ولا دالٌ ولا حاءُ

هكذا تصير مهمة الشاعر أن يتلاعب هذا التلاعب بالحروف، فيحل الألفاظ وتصير مهمة القارئ أن يعيد جمع شتاتها.

ومما شاع بين الشعراء آنذاك نظم القصائد على حروف المعجم، فالبيت الأول يبدأ بالألف والثاني بالباء والثالث بالتاء، وهكذا، كما نرى في صنيع محمد بن أحمد الدشناوي إذ يقول في مدح رسول الله صلى الله عليه وسلم[1]:

أبيتُ سوى مدح خير الورى فأصبح نظمي وثيقَ العرا

بروحي صفات تُحلّي القريض وتسبكه ذهبًا أحمرا

تعين القريحةُ أنّى وثبت وتبرز ألفاظها جوهرا

ثراء الفقير امتداح البشير فمهما اطّرا المدح فيه طرّا

وتمضي القصيدة على هذا النسق حتى حرف الياء، ومن قبل الدشناوي كتب الجزار معشّراته التي وسمها (بالضراعة الناجحة والبضاعة الرابحة) في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم، وكل مُعَشَّر من هذه المعشّرات يلتزم في بداية أبياته حرفًا من حروف المعجم، فيقول مثلًا في المعشّر الذي يلتزم حرف الهمزة[2]:

إمامَ الورى المبعوث من آل هاشم لنا ولرُسْل الله فيك رجاءُ

إذا بعث الله النبيّين في غدٍ وضمّهُمُ للهاشميّ لواءُ

ويمضي على هذا النسق عشرة أبيات تبدأ كلها بحرف الألف، ثم ينتقل إلى حرف الباء فيصنع الصنيع نفسه، وهكذا حتى يأتي على حروف المعجم.

فهذه أمثلة من التفنن في استعمال الألفاظ وتقليبها، وهي محاولات تجديد لفظية رأى

---

(١) الطالع المسعود: ٤٩٠

(٢) الضراعة الناجحة والبضاعة الرابحة، أبو الحسين الجزار.

القوم أنهم بلغوا بها وبأمثالها محطّ الرحال -كما يقول الصفدي[1]-فإن فاتهم التجديد في المعاني، فإن ميدان الصياغة، والتجديد في أساليب الأداء لا يزال متسعًا، فتنادوا إليه زرافات ووحدانًا، وقدّموا بين يدي الأدب كثيرًا مما فخروا به، وعدّوه فتحًا لم يُسبقوا إليه، وأنهم به قد بلغوا الغاية التي لا تسامى.

وخلاصة القول: أنّ الذوق العام في هذا العصر آل إلى تفضيل اللين على الرصانة، والرقة على القساوة، كما كان متجهًا إلى الصنعة، متقبّلًا لها، يراها المتلقي ناصعة مونقة، ويراها الشاعر قريبة من حسّه الشعري المرهف، فيكثر منها، ليُعَدّ من أعلام هذا الفنّ الذي أصبح ذا مكانة رفيعة في قلوب الخاصة والعامة.

(١) نصرة الثائر: ٥١.

وقل رب زدني علما
جامعة دمشق
Damascus University

القسم الثاني: النثر

وقل رب زدني علما
جامعة دمشق
Damascus University

وقل رب زدني علما
جامعة دمشق
Damascus University

النثر

أقبل أدباء العصر المملوكي على النثر الفني لارتفاع شأن الكتابة والكتّاب، ولأنها السبيل إلى العمل في الدولة، وإلى الارتقاء في المكانة الاجتماعيّة، وأضحى فنّ الكتابة علمًا له أصوله وقواعده، وصار للكاتب عُدة مؤهلات، عليه تحصيلها، مثل إجادة اللغة وعلومها، والعلم بالشريعة، ومعرفة نظام الحكم وتسلسل المراتب فيه، والتصرّف بفنون القول وضروب الكتابة وطرائقها.

وأخذت كفة النثر الأدبي ترجح في هذا العصر على كفة الشعر، وأصبح الشعر فنّ العامة والنثر فنّ الخاصة، لذلك ازدهر النثر، فهو يلبي حاجة ماسة إليه، كما أنه يشبع الحاجة الجمالية لدى الناس، فاجتمعت المنفعة والمتعة ليصل النثر الفني إلى أقصى ما يمكن أن يصل إليه في التنوع والغنى، والعمق والتعقيد، ليكون في مستوى فخامة الدولة، وليؤكد تميّز أصحابه ومهارتهم الأدبيّة.

تنوّعت فنون النثر الأدبي وتشعبت، فظهر فيه النثر الديواني الذي يخرج من ديوان الإنشاء برسائله وأوامره ونواهيه، والرسائل الأدبية، والخُطب والمقامات، وضروب الكتابة الدينيّة، والإجازات والتقاريظ، وكذلك الحكايات والسير الشعبيّة، وما يقرب من التمثيليات المسرحيّة، والكتابة للعامة.

- *النثر الديواني*: بلغ الذروة لحاجة المماليك إلى من يدبر شؤون الدولة، لأنهم لا يستطيعون لعجمتهم مخاطبة أهل البلاد التي يحكمونها، فأقاموا دواوين الإنشاء في حواضر السلطنة، واستخدموا فيها أهل العلم والأدب من العرب. وأنواع النثر الديواني كثيرة، منها الرسائل والتقاليد والتواقيع، والتهاني والمراسيم، وعقود الصلح والأمان والعهود، والمنشورات والمطالعات، والسجلات والوصايا والمهادنات، والمبايعات والمسامحات الماليّة، وغير ذلك.

ولم يُبق كُتّاب الدواوين الرسائل الديوانية على غرضها النفعي، بل أضافوا إليها المتعة المتأتية من الأسلوب الأدبي ومن العناصر التي يودعونها فيها، فهم يؤدون أغراض السلطان بأسلوب أدبيّ، ولولا ذلك لما كان النثر الديواني من الأدب، فالمضمون ليس من مضامين الأدب، وغايته ليست غاية الأدب، ولكنّ طريقة أدائها هي طريقة الأدب، وجهدوا لتأتي كتبهم على قدر كبير من الجزالة والفخامة والبلاغة، تليق بالدولة وعظمة ملكها، لذلك يعتمد النثر الديواني على الجهد العقلي المنظم والتنسيق والترتيب والتثقيف، ليكون على أتمّ صورة يستطيعونها.

- *الإجازات والتقاريظ:* تمثل برزخًا بين النثر الديواني والفني، فهي تشترك مع النثر الديواني في تحديد موضوعها وفي طريقة بنائهما، وتشترك مع النثر الأدبي في حرية الكاتب واختياره الأسلوب الذي يريد، فلا يتقيّد بأسلوب معين ولا بطريقة محددة في أداء الإجازة والتقريظ، وكلّ كاتب يؤديهما وفق قدرته وبراعته، ويقدم كل ما يستطيع، لأنه يعلم مسبقًا أنّ ما يكتبه سيعرض على الناس، والأدباء منهم خاصة.

والإجازة هي ما يكتبه العلماء والأدباء لتلاميذهم، وهي تثبت أنهم أتقنوا علمًا من العلوم، أو كتابًا من الكتب، وتجيز لمن كُتبت له أن يعمل بهذا العلم أو يروي هذا الكتاب، ولتكون الإجازة لائقة بصاحبها، دالة على مقدرته، فإنها تتحول من وثيقة أو اعتراف بتحصيل العلم إلى نص أدبي، يُحفظ ويروى، ويتدارسه شداة الأدب، لأنّ الكاتب يحاول أن يوفر لها كل ما يستطيع من الفصاحة والبلاغة، وما يدلّ على مهارته في فنون القول.

أما التقاريظ فتكتب عادة على المصنفات والرسائل والقصائد، وجرت العادة أنه إذا صنف كاتب في فن من الفنون، ونظم شاعر قصيدة، أو دبج ناثر

رسالة، فأجاد فيما أبدع، يكتب له أهل صناعته تقريظًا، ويأتي كلّ منهم بما في وسعه من البلاغة، وغالبًا ما يكون التقريظ من الأقران، وربما طلب صاحب الكتاب أو القصيدة أو الرسالة من الأدباء وأصحاب الاختصاص تقريظهم، ليضمن لما كتبه الانتشار والقبول، وليتال الشهرة والاعتراف بموهبته وقدرته.

اتسم النثر الديواني في بناء النص بوجود شكل محدّد، يبدأ بمقدمة من حمد الله تعالى، والصلاة على نبيّه ﷺ، ويختار الكاتب في الحمد والصلاة من آلاء الله وصفات النبي ﷺ ما يدلّ على موضوع النص، ثمّ يأتي بعبارة انتقال، أو بتمهيد للموضوع، ثم يعرض موضوع النص، ويختمه بالمراد من النص، أو بدعاء أو إعادة الحمد والصلاة على رسول الله ﷺ.

وأسلوب النثر الديواني يميل إلى الفخامة والجزالة، والإكثار من الاقتباس والتضمين، ومن ضروب الصنعة البديعية، وفي ذلك يتفاوت الكتّاب ويتمايزون، وكذلك في المبالغة والخطابية.

كتب ناصر الدين شافع[1] بن علي بن عباس على لسان السلطان قلاوون رسالة جوابية إلى السلطان القان[2] أحمد الذي أرسل يخبر بإسلامه[3]:

بسم الله الرحمن الرحيم

بقوة الله تعالى بإقبال دولة السلطان الملك المنصور قلاوون

إلى السلطان أحمد

---

(١)شافع بن علي بن عباس بن إسماعيل الكناني، سبط ابن عبد الظاهر (ت ٧٣٣هـ)، فوات الوفيات ٩٣/٢.

(٢)القان أحمد بن هولاكو ملك التتار، كان اسمه تاكودار قبل إسلامه، فوات الوفيات ٢٤١/٤.

(٣) القلقشندي: صبح الأعشى ٢٥٨/٧

"أما بعد حمد الله الذي أوضح بنا ولنا للحقّ منهاجًا، وجاء فجاء نصر الله والفتح ودخل الناس في دين الله أفواجًا، والصلاة على سيدنا ونبينا محمد الذي فضله الله على كل نبي نجّى به أمته وعلى كلّ نبي ناجي، صلاة تُنير ما دجا.

فقد وصل الكتاب الكريم، المتلقى بالتكريم، المشتمل على النبأ العظيم، من دخوله في الدين، وخروجه عمّن سلف من العشيرة الأقربين، ولمّا فُتح هذا الكتاب بهذا الخبر العلم المُعلم، والحديث الذي صحّ عند أهل الإسلام إسلامه، وأصحّ الحديث ما روي عن مسلم، توجّهت الوجوه بالدعاء إلى الله سبحانه في أن يثبّته على ذلك بالقول الثابت، وأن يُنبت حَبّ حُبّ هذا الدين في قلبه كما أنبت أحسن النبت من أخشن المنابت، وحصل التأمّل للفصل المبتدأ بذكره من حديث إخلاصه في أول عُنفوان الصبا إلى الإقرار بالوحدانية، ودخوله في الملّة المحمدية بالقول والعمل والنية.

فالحمد لله على أن شرح صدره للإسلام، وألهمه شريف هذا الإلهام، فحمدنا الله على أن جعلنا من السابقين إلى هذا المقال والمقام، وثبّت أقدامنا في كلّ موقف اجتهاد وجهاد تتزلزل دونه الأقدام...".

وكتب شهاب الدين بن فضل الله[1] عن الملك محمد بن قلاوون رسالة إلى بهادرخان المغولي[2]:

الحمد لله الذي جعلنا بنعمته إخوانًا، وجمعنا على طاعته أصولًا لا نتفرق أغصانًا، نحمده على ما أولانا ونشكره على ما ولّانا، ونرغب إليه في مزيد لطافه التي شملت أقصانا وأدنانا، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، شهادة كالشمس لاتدع في الأرض مكانًا، ونشهد أن سيدنا محمدًا عبده ورسوله

---

(١) أحمد بن يحيى بن فضل الله العدوي (ت ٧٤٩هـ)، فوات الوفيات ١/١٥٧.

(٢) القلقشندي: صبح الأعشى ٧/٢٧٥.

الذي شيّد بنا لشريعته أركانًا، وشدّ بعضنا ببعض لنكون كما شبّهنا به بنانًا أو بُنيانًا، صلى الله عليه وعلى آله صلاة لا تتوانى، ورضي الله عن أصحابه والتابعين لهم بإحسان وزادهم إحسانًا، وسلّم تسليمًا كثيرًا.

وبعد: فإنّ من أعظم المبهجات لدينا، المنهجات لطريق السرور إلينا، الملهجات بوصف أكرم وارد علينا، هو الكتاب الشريف، بل السحاب المُطيف، بل البحر الذي يقذف درراً، ويقصّ عن السحاب أثرًا ويرفع ستراً[1]، ويطلع قمراً، ويطوّل أوضاحًا وغُرراً، ويُحدث عن العجائب خبراً، بل ينشر الروض جبَراً، ويُهبّ الرياح سحراً، ويُبرق ذهبه المموّه آصالًا وبُكراً، الصادر عن الحضرة الشريفة العالية السلطانيّة الأعظميّة العادلية الشاهنشاهية الأخوية القانية، زادها الله شرفاً- وأدام بها تُحفاً، وصاغ بها لكل سمع شنفاً، وأيدها بزائد مزيده حتى تقول: حسبي وكفى، فإنه وصل صُحبة المجلس السامي الأمير الكبير المقرب المجتبى المرتضى المختار شرف الدين مجد الإسلام زين الأنام جمال المقربين، مرتضى الملوك والسلاطين الحاج أحمد الأشقر، والشوق إليه شديد، والتطلع إليه كمثل العيد، فقربناه إلينا نجيًا، وتلقّينا منه مهديا، وكأن السماء ألقت منه حُليًا، أو أقلّت كوكبًا دُريًا، أو مدّت من المجرّة دُرجًا، وعطفت من مهنّدات البروق خُلجًا، وقدّت من سواد القلوب شطر كل سطر فيها، وأغارت مقلة كل ريم قام بسواد ناظره يفدّيها، وسرّحنا ملحه الحدق في حدائق، ونفحنا به للحقائق حقائق، واستطلعنا به شموس الافتقاد، واطّلعنا منه على نفوس نفائس الوداد، وصادف منّا قلبًا صديًا إلى ما يروق من أخباره، وشوقًا إلى ما يهبّ من نسيم دياره، وتطلّعنا إلى من يرد رُسله الكرام، ويقصّ علينا ما لا يستقصى من مواقع الغمام، وعلمنا منه وممّا ذكره المقرب الحاج شرف الدين أحمد ما للحضرة الشريفة عليه

---

(١) ما خفي أو ما يستر.

من نعمة يلتحف بملابسها، ويقتطف من مغارسها، وتجري في السيف رونقا، وتُزيّن بالكواكب أفقا، وتجرّ على الكثبان من الشموس رداء مُخلقا...

وأما غير هذا: فهو أن الحاج أحمد أحضر إلينا ورقة كريمة، بل درة يتيمة بخط يد الحضرة الشريفة فأعجبنا بها ووجدناها في غاية الحُسن التي لا يعد زهر الرياض لها مُشبها، وما رأينا مثل ما كُتب فيها، كأن السماء قد نظّمت في سطورها النجوم الزهر من دراريها، فأكرم بيد كتبت سطورًا اعترف بها الرمح للقلم، واستمدّ السحاب من طُروسها الكرم، وجرت بجامد ذهب ومسائل دم، وتنافست على إثباتها صحائفه وأقلامه ودُوبّه[1] والجو والبروق والدّيَم، وطلعت منها تباشير النجاح، وتحامد عليها مسك الليل وكافور الصباح، واتفقت على معنى واحد وقد تنوّعت قسما، وأشرقت فتمنّت السماء أن تكون لها صحيفة والبرق قلما، فأرخصت قدر ياقوت في التقليب، وحسّنت بمحاسنها هجران حبيب، لقد أوتيت من الخطّ غاية الكمال، ونسجت يد ابن هلال فيه على فم ابن هلال، فأمّا الولي فإنّه من أولياتها، وأنواؤه مما فاض من إنائها، طالما حذق إليه أبو علي فاختطف برقّه أباه مُقلّه[1]، وفطن ابن أسد أنه لو أدركه أبوه لنسي شبله، فسبحان من صرّف في يمينه القلم بل الأقاليم، ووهبه من أفضل كلّ شيء﴿ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاء وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾[2].

منشور كتبه محيي الدين بن عبد الظاهر، يأمر فيه السلطان بإبطال الحشيش بعد الخمر[3]:

---

(١) جمع دُواة: وعاء الحبر.

(١) ابن هلال وابن مقلة من أعلام الخط العربي.

(٢) الحديد: ٢١.

(٣) زعلول سلام: الأدب في العصر المملوكي ٩/٢.

يُعلم أن المنكرات التي أمرنا أن نُملأ الصحائف بأجرها ونُفرغ الصحاف، ألا يخلو بيت من بيوتها من كسر أو زحاف، قد بلغنا الآن أنها احتضرت، وأن كلمة الشيطان بالتعويض عنها قد نُصرت، وأن أم الخبائث ما عقمت، والجماعة التي كانت ترضع الكأس قد أرتعت بعدما فُطمت، وأنها في النشأة ما حبّب إبليس مسعاها، وأنها لما أخرج المنع عنها ماءها من الخمر أخرج لها من الحشيش مرعاها، وأنها استراحت من الخمار، واستغنت بما تشتريه بدرهم عمّا كانت تبتاعه بدينار، وأن ذلك فشا في كثير من الناس، وعُرف في عيونهم ما يُعرف من الاحمرار في الكأس، وصاروا كأنهم خُشب مسندة سكرى، وإذا مشوا يقدّمون لفساد أذهانهم رِجْلًا ويؤخرون أخرى.

ونحن نأمر أن تُجتث أصولها وتُقتلع، ويُؤدّب غارسها حتى يحصد الندامة كل زارع، وتُطهّر منها المساجد والجوامع، ويُشهر مستعملها في المحافل حتى تنتبه العيور من هذا الوسن، وحتى لا تُشتهى بعدها خضراء ولا خضراء الدمن.

كتب الصفدي تقريظًا على ديوان خُطَب لجمال الدين التبريزي[1]:[2]

قرأت هذه الخطب المسرودة على حروف المعجم من أولها إلى آخرها على مصنفها وكاتبها العبد الفقير إلى الله تعالى القاضي جمال الدين عبد القاهر بن محمد التبريزي الحاكم بصفد المحروسة، لا زالت الطروس توشّى وتوشّع بكلامه وأقلامه، وتُرصّف بحكمه وأحكامه، ومحاسن أيامه ولياليه تُنشا وتُنشد، ودرر نظمه ونثره تُنظم وتُنضد، قراءة من غاص اللجّة من بحر حبرها، وصدق معجز آياتها، وما شك في خبر خُبرها، واستجلى وجوه عرُبها وتوجيه إعرابها، وتحقّق أن القرائح ما لها من طاقة على مثلها في بابها، وتنزّه في حدائقها التي ضُربت

---

(١) عبد القاهر بن محمد بن عبد الواحد التبريزي (ت ٧٤٠ هـ)، أعيان العصر ٣/١٢٤.

(٢) الصفدي: أعيان العصر ٣/١٢٧.

عليها أوراق الأوراق، واجتلى أبكارها الغرّ، فكانت حقيقة فتنة العشاق، فسرّحت سوام الطرف فيما أرضاه من روضاتها، ورشفت قطر البلاغة مما زُهي من زهراتها:

وتشنّفت أذني بلؤلؤ لفظها ... وتنزّهت عيناي في جنّاتها

وتأملت أفهامنا فتمايلت ... بترشّف الصهباء من كاساتها

لا غرو أن عقدت لسان أولي النهى ... عن مثلها بالسحر من كلماتها

كتب الشهاب محمود إجازة للكاتب عز الدين بن العجمي[1]:[1]

أما بعد حمد الله جاعل علْم البيانِ عَلَمًا على الإعجاز، وسلّمًا إلى ارتقاء ذُروة الفصاحة المستقرة على رُكْني الحقيقة والمجاز، ووسيلة إلى الإحاطة بأسرار البلاغة المستكنّة في طرفي الإطناب والإيجاز، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذي أوتي جوامع الكَلِم ولوامع الحكم، التي يتضاءل لديها كل منثور من كلام البشر ومنتظم، وعلى آله وصحبه الذين من زلّ عن سُننهم ذلّ وهوى ومن تمسّك بسُننهم فاز وسلم.

فإني لما دخلت في غمار طلبة الأدب رغبة في اقتباسه، وطمعًا في تحصيل بعضه بإدامة التماسه، وحصّلت كثيرًا من كتبه رواية ودراية، وعرفت ما أجتنب من نقائص المعاني والألفاظ التي لا تؤمن نكايتها في الأذهان السليمة بالسراية، لم أزل أستضيء بنور أنمته، وأهتدي بمنار من بلغ الغاية فيه من علماء أمته، وأقنع من لحاق من برّز في مضماره برؤية غباره، وأرضى من مآثر من صرفه على إيثاره بمشاهدة آثاره، فتمّت على نفحات آدابهم، ورفلت

---

(١) عبد المؤمن بن عبد الرحمن الكاتب (ت ٧٤١ هـ)، أعيان العصر ٣/١٨١.

(١) الصفدي: أعيان العصر ٣/١٨٢.

فواضل ما تشبثت به من أهدابهم، وكاتبوني فأجبت بعدم الرغبة في العتق في رقّهم، وجاروني فوافقتهم في المضمار الأدبي مع الاعتراف بتقدمهم وسبقهم، فقبلوا من كلامي ما لولا حُسن إغضائهم لم يُقبل، وأسبلوا عليّ ما اضطرتني إليه المباشرة ستر تجاوزهم، ولولا جميل اعتنائهم لم يُسبل.

ولما فُزت بالاجتماع بالجناب العالي الشيخي العربي، نفع الله به طارحته في فنون الأدب غير مرة، فرأيت من مواده بحرًا لا يرى العبر عائمه، وشاهدت من بدائهه برقًا لا يفقد الريّ شائمه، وتناولت منه إمامًا تقطر الفصاحة من أعطاف قلمه، وتخطر البلاغة من أفواف كلمه، وتنزّل المعاني المتمنعة من معاقل القرائح على حكمه، وتقف جياد البدائه حسرى دون الوسط في حلبة علمه، إن وشى الطِّرس فرياض، وإن أجرى النفس فحياض، أو نظم فقلائد أو نثر فغرائد، لا يتجاسر المعنى المطروق أن يَلم بفكره، ولا يقدم التخيّل المسبوق على المرور بذكره، ولا يجوز زيف الكلام على ذهنه المنتقد، ولا يثبت عناء النظام لدى خاطره المتّقد، فسمعت منه مقامات في العرفان قد وشى الأدب حبرها، وحقق الطلب خبرها، وزان الصدق لهجتها، وزاد الحق بهجتها، وحلّتها البلاغة برقومها، وكللتها الفصاحة بشهبها ونجومها، تُشرق القلوب بأضوائها، وترتوي النفوس بأنوائها، وتستضيء البصائر بأقمارها، وتهتدي السرائر بما تجتلي في رياض اليقين من يانع ثمارها...

ولما وقفت على تلك البدائع، وفهمت ما تضمنته من النكت الروائع، وعلم مني أني ممن يعرف الدر وإن لم يملكه، وينتقد التبر وإن لم يسبكه، ولذلك أتعوّض فيما أعانيه من الكتابة عن الدُّر بالخرز، وأكتفي عن أبكار المعاني الجليلة من العُون المسنة بما هو سدادٌ من عوز، سامني مع ارتفاع شأنه في هذه الصناعة، وائتراثه دوني من نفائس هذه البضاعة، أن أجيزه رواية نظمي

الذي قدّمت العذر في انتهاج طريقه، ونشري الذي أوضحت السبب في مصاحبة فريقه، ومكاتباتي التي أنشأتها بسبب الوقائع التي دعت إليها، وتواقيعي التي ارتجلتُ غالبها لحفز الدواعي الباعثة عليها، ولما لي في قواعد ذلك من تأليف وتصليف، وانتخاب غني بشهرته عن التصريف، فسألته الإعفاء من هذه الدرجة التي قدره أرفع منها، ورغبت إليه في قبول القول بالموجب في إجازتي من فوائده التي هي أحق بأن يُروى غريبها ويُحدّث عنها، فلم يُعف من تلك الإشارة التي قصده بها الإحسان، ومُراده أن ينظم سبح نظمي في سلك ما يؤخذ عنه من درر بدائعه الحسان.

فامتثلت أمره -أعزه الله تعالى ونفع به- وأجزته رواية ما يجوز لي روايته من مسموعاتي ومقروءاتي واختياراتي ومناولاتي، وما لي من نظم مختلف الأوضاع، مستحق لولا ما يضوع فيه من المدائح النبوية أن يُضاع ولا يُذاع، وإنشاء نوّعته كثرة المباشرة، وكثّرته المحافظة على الوظيفة والمثابرة... ورغبت إليه في أن يصلح من ذلك ما أغفله القلم، وزلّ فيه الفكر الذي عثرته أبلغ من عثرة القدم، إذ هو الملي بالإحسان في ذلك، الجدير بتوطئة ما تعذر سلوكه على المسالك.

ومولدي بحلب في شعبان سنة أربع وأربعين وستمئة، وهي إذ ذاك للعلوم معالم، ولوفود الفوائد مواسم، وسمعت بها الكثير ولكن أين أصوله؟ وفقد لي في الواقعة ثبت كبير ولكن كيف حصوله؟ فإن وُجد في ذلك شيء في الأصول فهو أصل في هذه الإجازة، وإن تعذر وجوده فكم سُلبت بضاعة فضل في أثناء مفازه.

محمد بن سلمان في المحرم سنة ست عشرة وسبعمئة.

يراد بالنثر الأدبي ما كتب ليؤثر ويمتع في المقام الأول، ولينقل رسالة إلى المتلقين، وفيه يطلق الكاتب لنفسه العنان، ويتحرر من أي قيد، ويسير في أدائه على هواه، ووفق ما تجود به قريحته، ويحرص على أن يأتي أسلوبه الأدبي ممتعًا مؤثرًا، وقد تنوعت ألوان النثر الأدبي، ولم يترك الكتاب طريقة من طرائق الكتابة إلا اتبعوها، ولم يعرفوا فنًا من فنون التعبير إلا اصطنعوه، ولم يتركوا ضربًا من ضروب البديع إلا أدرجوه في نصوصهم، حتى بلغت الكتابة الأدبية درجة عالية من التعقيد.

يتوزع النثر الأدبي على فنون مختلفة، منها الرسائل الأدبية المتنوعة، والخطب بألوانها المتباينة، والنثر الأدبي بتجلياته الكثيرة، والمقامات التي أخذت أشكالًا مختلفة، إلى جانب السيرة الشعبية، وما يقرب من الكتابة القصصية والمسرحية.

أنواع النثر الأدبي:

١- الرسائل الأدبية: هي الرسائل التي يتبادلها الأدباء فيما بينهم، أو التي يتصدون فيها إلى الوصف العام، أو التي تأخذ موضوعات الشعر، أو التي تعالج أحد الموضوعات العامة، وهي نصوص تأخذ شكل رسالة، يضع فيها الأديب كل ما يستطيع من فنون القول، وكل ما يملك من بلاغة ومقدرة على التأثير، ويصطنع طرائق الأدب في التعبير، فيمزج الواقع بالخيال، ويزين الأسلوب بكل ألوان الزينة التي تمتع المتلقي.

٢- الرسائل الإخوانية والذاتية: تعكس هذه الرسائل علاقات الأدباء في صفوها وكدرها، ويعبر فيها الكاتب عن مشاعره في حميمية واضحة وذاتية خالصة، وليس للرسائل الذاتية بناء محدد، ولا أسلوب معين، بل يمضي فيها الكاتب على سجيته من فكرة إلى فكرة، ويعبر بأسلوبه الخاص الذي يراه بديعًا.

وكذلك الرسائل الوصفية التي يصول فيها الكاتب ويجول، ويأتي بما تسمح به موهبته، معتمدًا على خيال متوثب يعيد تركيب الصور لتأتي معبرة ومؤثرة في الوقت

نفسه، وعلى ذوقه في اختيار الألفاظ وتركيبها وإقامة العلاقات بينها، فهو يرسم بالكلمات ما يصل إلى الحواس، وهذه مهمة صعبة، لا يجيدها إلا القلة من الذين أوتوا الموهبة وحصلوا الثقافة وتمرسوا بالكتابة الأدبية. وقد أطال الكتاب رسائل الوصف، وخاصة تلك التي تتناول المعارك والحروب، وتصف الحصون، وأيضًا رسائل الرحلات ورسائل الطرد.

٣- الرسائل التي تناولت أغراض الشعر: زاحمت الرسالة الشعر في أغراضه وموضوعاته، واستخدمت استخدام القصيدة وقامت مقامها، فكتبت رسائل في المدح والهجاء والغزل والرثاء والخمر والوصف، وكانت هذه الموضوعات حكرًا على القصيدة، فقد توجّه الأدباء نحو النثر لأنه يتيح له حرية أكبر من الشعر في تقليب المعاني، وعرض المشاعر وبناء الصور، واستيفاء جوانب الموضوع، وكذلك في استخدام ضروب التعبير وفنون القول، وألوان الصنعة البديعية، التي يحدّ الوزن والقافية من استيفائها على الوجه الأكمل.

٤- الرسائل التأليفية: شاعت في هذا العصر، وأولاها الأدباء اهتمامًا كبيرًا، ولا يقصد منها إيصال جانب من العلوم إلى شداته، وإنما البحث في موضوع ثقافي بأسلوب أدبي، أو استعراض المقدرة على توليد المعاني وتقليبها في موضوع محدد، مثل المفاضلة بين نظيرين كالسيف والقلم، والماء والهواء، الليل والنهار، أو تقصي أوصاف شيء مما لا يؤبه له تقصيًا أدبيًا، يستعرض فيه الكاتب مقدرته الأدبية ومهارته في الصناعة البديعية، مثل وصف السكين والممحاة والطرس والمروحة وغير ذلك مما شاع في الشعر، وانتقل إلى النثر، وتتميز هذه الرسائل بطولها، وبكثرة الاقتباس والتضمين والاحتجاج لما يذهب إليه الكاتب، مبرزًا قدرته العقلية على الجدل وتوليد المعاني والانتصار لرأيه، وهذه الرسائل ضرب من الترف الفكري، ووسيلة للتدرب على الكتابة في أي موضوع يعرض للكاتب أو يطلب منه.

ويأتي في إطار هذه الرسائل ما يضعه الأدباء في حادثة معينة والتأريخ لها بأسلوب أدبي ليجمعوا بين الإخبار والتأثير ، أو ليظهروا مدى تأثيرهم وانفعالهم بها.

لقد أضحت الرسالة في العصر المملوكي الفن الأقرب إلى ذات الكاتب، والأكثر تعبيرًا عن أفكاره ومشاعره، والأكثر طواعية لمقتضيات الحال، فهو فن يخلو من القيود، وليس له تقاليد محددة، مفتوح على كل الاحتمالات، ويستطيع الكاتب أن يستخدمه في كل مقاصده، وأن يعبر به عن أكثر الموضوعات حميمية، وأكثر المشاعر رقة وشفافية، وأكثر الأفكار دقة، إنها الفن الذي يقبل التشكل بأي شكل يريده الكاتب، أو هي الفن السهل الممتنع الذي يظن كل امرئ أنه يستطيع فعله، ولا يستطيع إجادته إلا الأدباء الموهوبون، لذلك انتشرت الرسائل، واختلفت ألوانها بحسب ما يُراد منها، وتنوع أسلوبها وفق موقع الأديب ومقدرته ومذهبه الفني.

من رسالة السيف والقلم لابن نباتة: (١)

... فبرز القلم بإفصاحه ونشط لارتياحه، ورقي من الأنامل على أعواده، وقام خطيبا بمحاسنه في حلّة مداده، والتفت إلى السيف فقال ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ ن والقلم وما يسطرون ﴿ما أنت بنعمة ربك بمجنون﴾(٢) الحمد لله الذي ﴿علم بالقلم﴾(٣) وشرفه بالقسم، وخط به ما قدّر وقسم، وصلّى الله على سيدنا محمد الذي قال (جف القلم بما هو كائن) وعلى آله وصحبه ذوي المجد المبين وكل مجد بائن، صلاة واضحة السطور، فائحة من أدراج الصدور، ما نقلت صحف البحار غواديها، وكتبت أقلام النور على مهارق الدياجي حكمة باريها، أما بعد:

---

(١) ابن حجة الحموي: خزانة الأدب ١/٢٣٠.

(٢) القلم: ١

(٣) العلق: ٤

فإنما القلم منار الدين والدنيا، ونظام الشرف والعليا، ومجاديح[1] سحب الخير إذا احتاجت الهمم إلى السقيا، ومفتاح باب اليُمن المجرب إذا أعيا، وسفير المُلك المحَبَّب، وعُذيق الملك المرجَّب[2]، وزمام أموره السائرة، وقادمة أجنحته الطائرة، ومطلق أرزاق عفاته المتواترة، وأنملة الهدى المشيرة إلى ذخائر الأخرة، به رُقم كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل، وسُنة نبيه ﷺ التي تهذب الخواطر الخواطل، فبينه وبين من يفاخره الكتاب والسنة، وحسبه ما جرى على يده الكريمة من منة...

أقول قولي هذا وأستغفر الله من الشرف وخيلائه، والفخار وكبريائه، وأتوكل على الله فيما حكم، وأسأله التدبير فيما جرى به القلم. ثم اكتفى بما ذكره من أدواته، وجلس على كرسي دواته، متمثلاً بقول القائل:

قلم يفلّ الجيش وهو عرمرم والبيض ما سُلّت من الأغماد

وهبت له الأجام حين نشا بها كَزم السيول وصولة الآساد

فعند ذلك نهض السيف قائمًا عجلا، وتلمّظ لسانه للقول مرتجلا، وقال: ﴿بسم الله الرحمن الرحيم... وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب إن الله قوي عزيز﴾[1] الحمد لله الذي (جعل الجنة تحت ظلال السيوف) [2] وشرّع حدها في ذوي العصيان فأغصّهم بماء الحتوف، وشيّد مراتب ﴿الذين يقاتلون في سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص﴾[3] وعقد موصوف، وأجناهم من ورق حديدها الأخضر ثمار نعيمها الدانية القطوف،

---

(١) مجاديح السماء: أنواؤها.

(٢) ترجيب النخلة: ضم أعذاقها إلى معفاتها لئلا تنفضها الريح.

(١) الحديد: ٢٥.

(٢) السيوطي: الجامع الصغير ١/٤٩٦.

(٣) الصف: ٤

وصلى الله على سيدنا محمد هازم الألوف، صلاة عاطرة في الأنوف، حالية بها الأسماع كالشنوف، وسلم.

أما بعد:

فإن السيف زُبد الحق الوري وزبده القوي، وحدّه الفارق بين الرشيد والغوي... حملته اليد الشريفة النبوية، وخصّته على الأقوام بهذه المزيّة، وأوضحت به للحق منهاجا، وأطلعته في ليالي النقع والشك سراجًا وهّاجا، وفتحت باب الدين بمصباحه حتى دخل فيه الناس أفواجا... أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم من لفظ يجمح، ورأي إلى الخصام يجنح، ولسان يحوجه اللدد إلى أن يخرج فيجرح، وأتوكّل عليه في صدّ الباطل وصرفه، وأسأله الإعانة على كل باحث عن حتفه بظلفه.

ثم اختفى في بعض الخمائل وتمثل بقول القائل:

سل السيف عن أصل الفخار وفرعه فإني رأيت السيف أفصح مقولا

فلما وعى القلم خطبته الطويلة الطائلة، ونشطته الجليلة الجائلة، وفهم كنايته، وتلويحه، وتعريضه بالذم وتصريحه، وتعديله في الحديث وتجريحه، استغاث باللفظ النصير واحتد، وما أدراك ما حدة حده القصير، وقام في دواته وقعد، واضطرب على وجه القرطاس وارتعد، فانحرف إلى السيف وقال: ... أتفاخرني وأنا للوصل وأنت للقطع، وأنا للعطاء وأنت للمنع، وأنا للصلح وأنت للضراب وأنا للعمارة وأنت للخراب، هيهات أنا المنتصب لمصالح الدول وأنت في الغمد طريح، والمتعب في تمهيدها وأنت غافل مستريح، والساهر وقد مُهّد لك في الغمد مضجع، والجالس عن يمين الملك وأنت عن يساره فأي الحالتين أرفع؟ والساعي في تدبير حال القوم، والمفني لنفعهم العمر إذا كان نفعك يومًا أو بعض يوم، فاقطع عنك أسباب المفاخرة، واستر أنيابك عند

المكاشرة، فما يحسن بالصامت محاورة المفصح، والله يعلم المفسد من المصلح...

فعند ذلك وثب السيف على قدّه، وكاد الغضب يخرجه عن حدّه، وقال: أيها المتطاول على قصره، والماشي على طريق غرره، والمتعرض مني إلى الدمار، والمتحرش بي، فهو كما تقول العامة: ذنبه قش ويحترش بالنار، أو لست الذي طالما أرعش السيفُ للهيبة عطفك، ونكّس للخدمة رأسك ومرفك، وأمر بعض رعيته وهو السكين فقطع فقاك وشق أنفك، ورفعك في مهمات خاملة وحطك، وجذبك للاستعمال وقطك، فليت شعري كيف جسرت، وعبست على مثلي وبسرت، وأنت السوقة وأنا الملك، وأنا الصدق وأنت المؤتفك، وأنت لصوص الحطام وأنا لصوص الممالك، وأنت لحفظ المزارع وأنا لحفظ المسالك.

إن عاينت الديوان وقعت في الحساب والعذاب، أو البلاغة سحرت وبالغت فأنت ساحر كذاب، أو فخرت بتقييد العلوم فما لك منها سوى لمحة طرف، أو برقم المصاحف فإنك تعبد الله على حرف... وهل أنت في الدول إلا خيال تكتفي الهمم بطيفه، أو إصبع يُلعق بها الرزق إذا أكل الضارب بقائم سيفه، وساع على رأسه قل ما أجدى، وسار ربما أعطى قليلا وأكدى، ثم وقف وأكدى[1]...

فلما تحقق تحريف القلم حرجه، وفهم مقدار الغيظ الذي أخرجه، وسمع هذه المقالة التي يقطر من جوانبها الدم، ورأى أنه هو البادي بهذه المناقشة والبادي أظلم، رجع إلى خداعه، وتنحى عن طريق قراعه... فالتفت إليه وقال: أيها الملتهب في قدحه، والخارج عما نُسب إليه من صفحه، ما هذه الزيادة في السباب، والتطفيف في كيل الجواب، وأين علم الشيوخ عن جهل الشباب، أما

---

(١) الأولى: بخل، والثانية: تعثر.

كان الأحسن بك أن تترك هذا الرفث[1]، وتلم أخاك على الشعث[2]، وتحلم كما زعمت أنك السيد، وتزكو على الغيظ كما يزكو على النار الجيد، أما تعلم أني مُعينك في تشييد الممالك، ورفيقك فيما تسلكه لنفعها من المسالك، أما أنا وأنت للمُلك كاليدين، وفي تشييده كالركنين الأشدين... فلا تُشمت بنا الأضداد ولا تسلط بفُرقتنا المفسدين في الأرض إن الله لا يحب الفساد، واغضض الآن من خيلائك بعض هذا الغض، ولا تشك أني قسيمك وإن قيل لك (يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض) [1]، وإن أبيت إلا أن تهدد وتجرد الشعب وتحدد، فاذكر محلنا في اليد الشريفة السلطانية الملكية المؤيدية، أيد الله نعمها، وجازى بالإحسان شيمها، وأيقظ في الآجال والآمال سيفها وقلمها...

رسالة الثبا عن الوبا لابن الوردي: [2]

الله لي عُدَّة من كل شدّة، حسبي الله وحده، ألَيس الله بكافٍ عبده، اللهم صلّ على سيدنا محمد وسلّم، ونجّنا بجاهه من طعنات الطاعون وسلّم.

طاعون روّع وأمات، وابتدأ خبره من الظلمات، يا له من زائر، من خمسة عشر دائر، ما صبرنَ عنه الصين، ولا منع منه حصن حصين، سلّ هنديًا في الهند، واستند على السند، وقبض بكفيه وشبّك على بلاد أزبك، وكم قصم من ظهر فيما وراء النهر، ثم ارتفع ونجم وهجم على بلاد العجم، فأوسع الخُطا إلى أرض الخطا، وقرم القرم ورمى الروم بجمر مضطرم وجرّ الجزائر إلى قبرص والجزائر، ثم قهر خلقًا بالقاهرة، وتنبهت عينه لمصر ﴿فإذا هم بالساهرة﴾[3]،

---

(١) الرفث: الفحش.

(٢) التفرق.

(١) ص: ٢٦

(٢) ديوان ابن الوردي: ٨٦.

(٣) النازعات: ١٤

وسكن حركة الإسكندرية فعمل شغل الفقراء الحريرية، وأخذ من دار الطراز طراز الدار، وصنع بصناعها ما جرت به الأقدار.

واسكندرية ذا الوبا متبعٌ يمدُّ إليك ضبْعه

صبزا لقسمته التي تركت من السبعين سبعه

ثمّ تيمم الصعيد الطيّب وأبرق على برقة منه صيّب، ثم غزا غزة، وهزّ عسقلان هزّة، وعكّ[1] إلى عكا واستشهد بالقدس وزكّى، فلحق من الهاربين الأقصى بقلب في الصخرة، ولولا فتح باب الرحمة لقامت القيامة في كرة، ثم طوى المراحل ونزل بالساحل، فصاد صيدا وبغت ببيروت كيدا، ثم سدّد الرشق إلى دمشق، فتربّع وتمهّد وفتك كل يوم بألف أو أزيد، فأقلّ الكثرة، وقتل خلقًا ببثرة، فالله تعالى يُجري دمشق على سُنّتها ويُطفي لفحات ناره عن نفحات جنّتها..

أصلح الله دمشقا وحماها عن مسبّهْ

نفسها خسّت إلى أن تقتل الناس بحبّهْ

ثمّ مرّ المزة وبرز إلى برزة، وركب تركيب مزج بعلبك، وأنشد في قارة "قفا نبك"، وغسل الغسولة، وبلغ من كسوف شمس شمسين سوله، وطرح على الجُبة بُرشه وأزبد على الزبداني نعشه، ورمى حمص بجلل، وصرفها مع علمه أنّ فيها ثلاث علل، ثم طلق الكلّة في حماة فبردت أطراف عاصيها من حُمّاه... ثم دخل معرة النعمان فقال لها: أنت مني في أمان، حماة تكفي في تعذيبك فلا حاجة لي بك...ثم سرى إلى سرمين والفوعة وشعّث على السُّنّة والشيعة، وسنّ

---

(١) عكّ: اشتدّ ومال.

للسنة أسنته شُرّعا وشيّع في بلاد الشيعة مصرعا، ثمّ أنطى[1] أنطاك بعض نصيب ورحل عنها حياء من نسيانه ذكرى حبيب، ثمّ قال لشيزر ولحارم لا تخافا مني، فأنتما من قبل ومن بعد في غنى عني، فالأمكنة الردية تصبح في الأزمنة الوبية، وأخذ من أهل الباب أهل الألباب، وباشر تل باشر وذلل ذلول، وقصد الوهاد والتلاع وقلع خلقاً من القلاع، ثمّ طلب حلب ولكنه ما غلب، فهو -والحمد لله- أخفّ وطأة، ولم أقل ﴿كزرع أخرج شطأه﴾[2].

ومن الأقدار أنه يتتبع أهل الدار، فمتى بصق واحد منهم دما، تحقق كلهم عدما، ثم يسكن الباصق الأجداث بعد ليلتين أو ثلاث اللهم إنه فاعل بأمرك فارفع عنّا الفاعل، وحاصل من عند من شئت فاصرف عنّا الحاصل فمن لدفع هذا الهول غيرك يا ذا الحول...

كم دخل إلى مكان فحلف لا يخرج إلا بالسكان، ففتش عليهم بسراج، وهذا جلب لأهل حلب الانزعاج، استرسل ثعبانه وانساب وسمي طاعون الأنساب، وهو سادس طاعون وقع في الإسلام، وعندي أنه الموت الذي أنذر به نبيّنا عليه أفضل الصلاة والسلام...

فلو رأيت الأعيان بحلب وهم يطالعون من كتب الطب الغوامض، ويكثرون في علاجه من أكل النواشف والحوامض، قد لاطف كلّ منهم مزاجه وعدّل، وبخروا بيوتهم بالعنبر والكافور والسعد والصندل، وتختموا بالياقوت وجعلوا البصل والخل والصحنا[1] من جملة الأدم والقوت، وأقلوا من الأمراق والفاكهة، وقرّبوا إليهم الأترج وما شابهه، ولو شاهدت كثرة النعوش وجملة الموتى،

---

(١) لغة من أعطى.

(٢) الفتح: ٢٩

(١) الصحنا والصحناة: إدام يتخذ من السمك الصغار، مُشه مصلح للمعدة.

وسمعت بكلّ قطر من حلب نعيًا وصوتًا ﴿لوليت منهم فرارا﴾[1] وأبيت فيهم قرارًا، فلقد كثرت أرزاق الجنائزية فلا رُزقوا، وعاشوا بهذا الموسم وعرقوا من الحمل فلا عاشوا ولا عرقوا، فهم يلهون ويلعبون ويتقاعدون على الزبون... فنستغفر الله من هوى النفوس فهذا بعض عقابه، ونعوذ برضاه من سُخطه وبمعافاته من عذابه... إذا صبر المسلم على مصيبة فالصبر عبادة، وقد ثبت عن نبينا ﷺ أن المطعون شهيد[2] فهذا الثبوت حكم بالشهادة، وهذه الخفية تُعجب الحنفية، فإن قال قائل: هو يُعدي ويُبيد، قل: بل الله ﴿يبدئ ويعيد﴾[1]، وإن جادل الكاذب في دعوى العدوى وتأوّل، قلت: قد قال الصادق عليه السلام "فمن أعدى الأول"[2]، ولو سلّمنا فتكه بأهل الدار، فهو بإرادة الفاعل المختار... ومن فوائده تقصير الآمال، وتحسين الأعمال، واليقظة من الغفلة والتزوّد للرحلة.

هذا يُوصي بأولاده ... وهذا يودّع جيرانه

وهذا يُهيّئ أشغاله ... وهذا يُجهّز أكفانه

وهذا يُصالح أعداءه ... وهذا يلاطف إخوانه

وهذا يوسّع إنفاقه ... وهذا يخالل مَن خانه

وهذا يحبّس أملاكه ... وهذا يحرّر غلمانه

وهذا يغيّر أخلاقه ... وهذا يعيّر ميزانه

ألا إن هذا الوبا قد سبا ... وقد كاد يرسل طوفانه

---

(١) الكهف: ١٨

(٢) الحديث (الطاعون شهادة لكل مسلم) الجامع الصغير للسيوطي ١٥٠/٢

(١) البروج: ١٣

(٢) الحديث في الجامع الصغير للسيوطي ١٨٠/٢

فـــلا عاصـــم اليـــوم مـــن أمـــره ســـــوى رحمـــــة الله ســـــبحانه

ومـا منعنـا الفـرار منـه سـوى التمسـك بالحـديث، فهلـمّ بنـا نسـتغيث إلـى الله تعـالى فـي رفعـه فهـو خيـر مغيـث، اللهـم إنـا نـدعوك بأفضـل مـا دعـاك بـه الـداعون، أن ترفـع عنّـا الويـا والطـاعون، ولا نلتجـئ فـي رفعهمـا إلا إليـك، ولا نعـوّل فـي العافيـة منهـا إلا عليـك ، نعـوذ بـك يـا رب الغلـق مـن الضـرب بهـذه العصـا، ونسـألك رحمتـك فهـي أوسـع مـن ذنوبنـا، ولـو كانـت عـدد الرمـل والحصـى، ونتشـفع إليـك بـأكرم الشـفعاء لـديك، محمـد نبـي الرحمـة، أن تكشـف عنّـا هـذه الغمّـة، وأن تجيرنـا من الوبال والتنكيل، وأن تعصمنا فأنت حسبنا ونعم الوكيل.

كتب الصفدي مجيبًا لجمال الدين بن غانم[1] على كتاب عتب: [2]

يقبـل الأرض، ويصـف شـوقه الـذي شـق الجـوانح وجـرح الجـوارح، ومـلأ الفـؤاد فـوادح، ويـذكر حنينـه الـذي شـغله عـن ذاتـه، وأذهلـه حتّـى عـن تمنّـي اللقـاء ولذّاتـه، ونغّـص صـفو عيشـه بالبُعـد وهـذه أحسـن حالاتـه، ويُنهـي ورود المثـال العـالي فتلقّـى منـه أكـرم وارد، وحـوى مـن ألفاظـه الغُـرّ مصـائد الشـوارد، وشـافهه منهـا ألسـن عتـب لهـا فـي القلـب وقـع السـيوف وإن كانـت فصـاحتها مثـل المبـارد، وأضـرمت فـي الحشـا نيرانـا لهـا الزفـرات دخـان، والضـلوع المحنيّـة مواقـد، فقابلهـا بأعـذاره الملفّقـة فقالـت حـرارة تلـك السـطور: دعنـا مـن عـذرك البـارد، ونظـر مـن تلـك الحـروف المنظمة إلى نونات كأنها برائن الأسود وإلى ميمات كأنها عيون الأساود:

وكـأن ذاك الطـرس أصـبح سـلّة الـــ ـــحاوي وهاتيـك السُّـطور أفاعيـا

ثـم إنّ المملـوك كـابر نفسـه، وقـال: ربمـا تصـحّف عليـه مـا تصـفّح، وترجّـى أن يكـون هـذا القـدر هـو الـذي ترجّـح، وجـالس بـين آسـاته وعطفـه، فـذاك ترنّـم، وهـذا

---

(١) عبد الله بن علي بن محمد القاضي الكاتب (ت ٧٤٤هـ). أعيان العصر ٢/٦٩٦.

(٢) الصفدي: أعيان العصر ٢/٧٠٤

ترنّح... وقال: هذا هو العتب المحمود العواقب، وهذا التأديب الذي يعقب الرضا ولا يعاقب، وقد عاد المملوك إلى صوب الصواب، وتضرّع من تلك السطور على عتبات العتاب، وظنّ أنما فُتن، فاستغفر ربّه، وخرّ راكعًا وأناب... فليغفر مولانا هذه الهفوة، وليقلّه عثرة هذه الخطوة التي لم يلق فيها حظوة، والله يُمتّع العيون والنفوس بجماله وجلاله، ويزيّن الوجود بمحاسنه التي يخجل منها البدر في كماله بمنه وكرمه إن شاء الله.

كتب الشهاب محمود إلى أولاد شرف الدين ابن القلانسي[1] يعزيهم بوفاته: [2]

ويُنهي أنه اتصل به ما قدّره الله من وفاة المولى السيّد الوالد، تغمّده الله برضوانه وبوّأه فسيح جنّته، فأجرى دموعه ونفى هجوعه، وصدع قلبه وأطار لبه، وأطال ألمه وأطاب عدمه، وألزم الحصر لسانه وألقى قلمه، فإنا لله وإنا إليه راجعون، امتثالًا لأمره، وصبرًا على حلو القضاء ومرّه، مات والله الصاحب الذي كان المملوك يعقد على محبته الخناصر، ويستند من أخوّته إلى نسبة صفاء ثابتة الأواصر، ويأنس ببقائه ويعلل نفسه بلقائه، فاجتثّت بوفاته أصل الوفاء، وتكدّر بذهابه وِرْد الصفا، وذهب الود إلا باللسان، وتنكّرت بين المعارف وجوه الإحسان الحسان، وعدمت الرياسة راسها وفي الرأس أكثرها، وفقدت المعالي عينها فلم يبق إلا أثرها، فللّه تلك النفس ما كان أتقاها، وتلك الشيم ما كان أطهرها وألقاها... نضّر الله ذلك الوجه الكريم، ولقّاه نضرة النعيم، وتقبّل أعماله، وبلّغه عند القدوم عليه من عفوه سوله، ومن رضاه آماله...

---

(١) محمد بن محمد بن نصر الله التميمي (ت ٧١٥هـ)، أعيان العصر ٥/١٨٨.

(٢) الصفدي: أعيان العصر ٥/١٩٠.

على أنه ما فُقد من جمال بيته باق ببديه في الوجود، ولا عدم من علاوة راق بأولاده إلى رُتب القعود، ولا ذهب مَن لم تخل معاليه من ذي مقام محمود، فعمله الصالح ببقائهم متصل المواد، وثناؤه السائر بدوام ارتقائهم آخذ في الازدياد.

قال ابن الوردي يهجو القاضي الرياحي[1]:[2]

أما بعد، حمدًا لله الذي لا يُحمد على المكاره سواه، والصلاة والسلام على نبيه محمد الذي خاف مقام ربه وعُصِم من اتباع هواه، وعلى آله وصحبه الذين بذل كل منهم في صون الأمة قواه، وسلمت صدورهم من فساد النيات، "وإنما لكل امرئ ما نواه" فإن نصيحة أولي الأمر تلزم، والتنبيه على مصالح العباد قبل حلول الفساد أحزم، والمتكلم لله تعالى مأجور، والظالم ممقوت مهجور، وتحسين الكلام لدفع الضرر عن الإسلام عبادة، والنثر والنظم للذب عن أهل الإسلام من باب الحسنى وزيادة، وجرحة الحاكم بالأعراض صعبة، إذ نص الحديث النبوي أن حُرمة المسلم أعظم من حرمة الكعبة، ومخرق خرقته مذموم، ولحم العلماء مسموم، وهذه رسالة أخلصت فيها النية، وقصدت بها النصيحة للرعية، أودعتها من جوهر فكري كل ثمين، وناديت بها على هزيل ظلم أبناء جنسي مناداة اللحم السمين، لكن جنبتها فحش القول إذ لست من أهله، وخلدتها في ديوان الدهر شاهدة على المسيء بفعله، ورجوت بها الثواب، نصرة للمظلوم، وعبرة على حملة المُلوم، وسميتها: " الحرقة للخرقة " فقلت:

اعلموا يا ولاة الأمر، ويا ذوي الكرم الغمر، أبقاكم الله بمصر للأمة، ووفقكم لدفع الإصر وبراءة الذمة، إن حلب قد نزعت للزبدة، ووقعت من ولاية

---

(١) أحمد قاضي مالكي في حلب (٧٤٨هـ)، تتمة المختصر لابن الوردي ٢/٤٩٠.

(٢) ديوان ابن الوردي: ١٥٤.

التاجر الرياحي في خُسر وشدّة، قاضٍ سلب الهجوع وسكب الدموع، وأخاف السرب، وكدّر الشرب، بجُرأته التي طمّت وطمّت، وعاميته التي عمّت وعمت، وفتنته التي بلغت الفراقد، وأسهرت ألف راقد، ووقاحته التي أدهشت الألباب، وأخافت النطف في الأصلاب، فكم لطّخ من زاهد، وكم أسقط من شاهد، وكم أرعب بريًا، وكم قرب جريًا، وكم سعى في تكفير سليم، وكم عاقب بعذاب أليم، وكم قلب ذائب، بنائبة توسّط بها عند النائب، حرّض على مَن قيل: إنه حضر الخمر، وحمله على أن قرعه بالمقارع إلى أن قُضي الأمراء من الشفاعة، وظنوا هم والنائب، أن هذا امتثال لأمر الشرع وطاعة:

يا خامِلَ الذّائب في حكمه ... أن يقتُلَ النّفس التي حُرّمتْ

غششته والله في دينه ... بُشْراكَ بالنّار التي أضرمتْ

أسقط في يوم مشهود تسعة من أعيان الشهود، فو الله لو كان في غنم رياح ما سمح بهذه العدّة لذبّاح، وهذا مقت وأي مقت، ما سمعنا بمثله في وقت، أتُسلم أرباب البيوت إلى هذا الرجل التهوت، ﴿فلولا نفر مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ﴾[1] من ذمّ هذا الجريء على تخريق الخرقة.

سُحقا لقاضٍ مالكي سطا ... بتسعة أكبر مَن فينا

وإن أعربناه لها سكتة ... ألحق بالتسعة تسعينا

سبب إسقاطه لهؤلاء النفر، أنه أقر عندهم أول مدته من السفر، بأن (قرابغا) [2] أعطاه ثلاثة عشر ألف دينار، ووكله أن يشتري بها ما يرضاه من العقار، فلما مات قرابغا عاش الوكيل، وندم على إقراره فبدرهم بالإسقاط

---

(١) التوبة: ١٢٢.

(٢) من أمراء المماليك كان نائب دمشق (ت ٨٧٤٩هـ)، أعيان العصر ٤/٨٠.

والتكيل، فهيهات هيهات، فهذا المحو عين الإثبات، لقد أكد الحال، وأشرب القلوب أنه أكل المال... هذا مالكي متعصب، قد أسكره الذهب والمنصب، فلا يفرق بين الأرض والسما، ولا يعرف عموم الخاصة من خصوص العمى، حركاته وسكناته مكتوبة عليكم، ولا ندري أنشكوكم إلى الدهر، أم نشكو الدهر إليكم، من قاض سمين الأموال، مهزول النوال، فُزاد لا يلفظ إلا دم الأوراك، وجراد لا يسقط إلا على أموال الأتراك، وإذا وقع عنده، فقد وقع بين مخالب الأسود، وأنياب الأفاعي السود... غاية علمه إطالة السكوت، وقول الحاضرين له دائم الثبوت، سكناته غير متناهية، إذا تكلم ففي داهية، الويل له إن لم يتب، ويجهل حتى أسماء الكتب... مقدام ظلوم، جاهل بجميع العلوم، لا يعرف في الفقه الطلاق من التطليق، ولا في النحو الإلغاء من التعليق، ولا في التفسير أسباب النزول، ولا في القرآن حجج ﴿وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ﴾ [1] ولا في اللغة القدح من الكاس، ولا في الأصلين الجوهر الفرد والجلي من القياس، ولا في المنطق الشكل المنتج من العقيم، ولا في الحديث الصحيح من السقيم... يُضرب إذا حكم كأبكم، ويفتخر بأب له وأم، ويرعد ويضطرب، ويبعد ويقترب، حتى كأنه قتل عنتر أو فتح قلعة تُستَر [2]، يتأوه على الشرع من بعده، ويزيد في الشريعة المطهّرة زيادات من عنده، الويل له من هذه الأعمال، كيف يحتاج دين الله إلى إكمال، لقد وقع في عار، لا تغسله الأنهار... إذا جلس خِلْتَ غولةً جالسة، وإذا تكلم متطيلسا [3]، قلت جاء البرد والطيالسة، لا قراءة له ولا قرى، فليت العيون اكتحلت منه بأميال السرى، يحب من القرآن: ﴿أَلَا فِي الْفِتْنَةِ

---

(١) إبراهيم: ٤٦.

(٢) تستر: مدينة في خوزستان شرق شط العرب، معجم البلدان ٢٩/٢.

(٣) لابس الطيلسان وهو يشبه العباءة.

سَقَطُوا﴾[1] ومن الحديث: "أباهي بكم الأمم حتى بالسقط"، ومن الفقه سقوط يد السارق بألفة، ومن النحو سقوط التنوين بأل والإضافة...

بعد الامتهان في الرحاب، يقال: بسم الله رئيس الأصحاب، وما مَرَدَ جنُّه، وأفسد بهذه الكلمة ذهنه، إلا نقيب هو له طبْق، فتعساً لجارح بلبله الدبق، فو الله لولا كراهة السخافة، لأتيت هنا بأفانين من حديث خرافة، ثم إنه مع تلك الأباطيل، يدعي العفّة عن أكل البراطيل، فليته تناول الحطام، وتعفف عن أعراض الأنام، أو ما علم هذا المشلول اليد، المفتوق اللسان، أن العرض أنفس من المال عند الإنسان، كيف عادت حلب تسكن، وفيها هذا الأثفُ الألكن، راؤه غين، ومنطقه شين، إذا سبح الرب، لا تدري أسبح أم سب، من ألمّ بشكله تألّم، ولا سيما إذا تكلم، ولايته هُتْكة، وعزله كالحج إلى مكة... ثم إن من أعظم ذنوبه، وأكبر عيوبه، أن هذا القرد الظالم، حوله من المغاربة جمع غير سالم، وهم في السر يتوقعون قيام الحرب، ويطمعون أن مصر سيملكها أهل الغرب، لا تكونوا فيه من الممترين، فقد غلب على قلبه حب بني مرين، فاعزلوا عن أعمالكم هذا القرد، وإن غضب فغضب الأسير على القِدّ، فإنه يميل إلى الزيدية ويتذكر الدولة العُبيدية، لا عاش ولا بقي، ولقي من الخيبة ما يتقي، فهذه الدولة مطاعة، إلى قيام الساعة، على رغم قاض إذا حكم جار، ولو على الجار، وإن غضب أو صال، فرق الأوصال، عامي طَرِف، لا شرف له ذكر، ولا ذكر له شرف، يوقع العظيمة، ويعظم الوقيعة، ويشارع الخليفة، ويخالف الشريعة، يدع الإيثار، ويؤثر الدعة، ويختار المرابع المذهبة على المذاهب الأربعة، وإن تعصب لمالك، فخلط نفسه في ذلك... فأخرجوا من حلب هذا النار تدخلوا الجنة...

---

(١) التوبة: ٤٩.

كتب علاء الدين بن غانم[1] في وصف قلعة:[2]

ذات أودية ومحاجر لا تراها العيون لبُعد مرماها إلا شزْرا، ولا ينظر ساكنها العدد الكثير إلا نزْرا، ولا يظن ناظرها إلا أنها طالعة بين النجوم بما لها من الأبراج، ولها من الفرات خندق يحفّها كالبحر إلا أن ﴿هذا عذب فرات وهذا ملح أجاج﴾[1] ولها واد لا يقي لفحة الرمضاء ولا حرّ الهواجر، وقد توعّرت مسالكه فلا يُداس فيه إلا على المحاجر، وتفاوت ما بين مرآه العلي وقراره العميق، ويقتحم راكبه الهول في هبوطه ﴿فكأنما خرّ من السماء فتخطفه الطير أو تهوي به الريح في مكان سحيق﴾[2]

كتب الشهاب الحجازي إلى الشهاب بن التائب[3] مُلغزًا في خاتم:[4]

الْحَمد لله عَالم الْغَيْب، وساتر الْعَيْب. سَأَلتك -أعزّك الله- شهاب النجبا، وَخَاتم الأدبا، فاتح مقفل كل معمى ومخبّا، رئيس الآداب، كهل الأدب شيخ الْكتاب، أَخُو البلاغة، ابْن البراعة، أَبُو التقى، أدام الله تَعَالَى لَهُ البقا، عَن شخص راق فِي المرأى لكل رائي، يضيء كَالْكَوْكَبِ، ويدور كاللولب. حسن الصّفَات والنشأت، سَاكن كثير الحركات، صَامت لَا ينْطق يُؤْخَذ مِنْهُ عدَّة لُغَات. يُورث وَيَرِث، ويتصبب ويتبعث. جَبرته أبْلَج، وثغره غير مفلج. لَا يزَال فَمه مَفْتُوحًا، وَمَع جودته وصلابته لَا تراهُ إِلَّا مفدوحًا. بهواه كل ذِي ثروة وسخا، صبور على كد مستعمله فِي الشدَّة والرخا. بديع فِي مَعَانِيه بعيد عَن الْعَكْس

---

(١) علي بن محمد بن سلمان بن حمائل (ت ٧٣٧هـ)، فوات الوفيات ٧٨/٣.

(٢) ابن شاكر الكتبي: فوات الوفيات ٨٣/٣

(١) الفرقان: ٥٣.

(٢) الحج: ٣١.

(٣) الأديب الشاعر (ت ٨٦٥هـ)، بدائع الزهور ٣٦٥/٢

(٤) نظم العقيان ص٧٠.

والطـرد، وَرُبمَـا أحـس عِنْـد الْحـر بـالبرد. إِذا لَاذَ بِصَـاحِبِهِ لَازم المـلَاذ، ويعـد اسْتِعْمَاله مـن المـلَاذ. لَـهُ فـم وَعين يروقـان السَّامع والباصـر، وتألفـه الْأَيْـدِي مـن ذَوي الْأَيَادي وتُعقد عَلَيْـهِ الخناصـر، يحمـل زِائِـره علـى رَأسـه، وَإِن لم يكن من أَبنَاء جنسـه، ويفر مِمَّـن وُضـع علـى النعش، وَرُبمَـا صَـحَّ فِـي الرِّهَـان عَلَيْـهِ النقش، طالمـا وَضـعه الْقَارِي فِـي آخر الْكَـلَام الْقَدِيم بنفسـه، ويروي عَنْـهُ الحَـدِيث بفصّـه. أَبْلَـج من الفضـة، وأبهـج من الأقحوانـة الغضـة، طالمـا ضـيق علـى صَـاحبه حَتَّـى ضَـاقَ بِـهِ ذرعـا، ولربمـا حصـلت التُّوسـعَة مـن قلبـه فَلم يُجد نفعـا. محلـى وَفِـي قالـب الْحسن مفـرغ أَبـيض اللَّـوْن كَأَنَّمَـا صِـيغ مـن اللؤلؤ بـدر السَّـمَاء بـل هُـوَ مـن ثَنَـاء مالكـه يصْـبغ. ظـرف مظـروف، عِنْـد ذَوي الظَّـرْف مَعْـرُوف. يوضـع علـى الْمُعسـر إِذا حصـل لَـهُ الضّيق، وانـه لنعم الرفيـق، لَا يدع اثْنَيْنِ يسلكان مسلكه، وَلَا يرضـى فِـي ممره ومقره بِشَرِيكِه رُبَاعِي الحـروف وَنصفه حرف مُعْجم، وان أنقصـته مـن حُرُوفـه تمّ. ذكر فِـي الْقُرْآن، وَخصلتـه بِيَد سيد ولد عدنان، ويهواه كل إِنْسَان، ونبّهت علـى فضـله الْكُهَّـان والرهبـان، وَمَـا اخْتَلَـف فِـي حبـه اثْنَـان، فليُنْعم سَيِّدي حفظـه الله تَعَـالَى بِـالْجَوَابِ مـن ألفاظـه العليـة، تفضـلًا علـى هَـذِه الْفقـر الفقيـرة مـن الْخـلَاوَة وان كَانَـت خليـة، وليصـفح عَـن اللِّسَـان العيـي، والجنـان الْحَبِـي، وَالله تَعَـالَى يَجعلـه فِـي حسب خَاتم الْأَنْبِيَاء وَسيد الأصفياء.

الخطابة

تفترض ظروف العصر المملوكي وأحداثه أن تكثر الخطابة، لأنه عصر جهاد وحروب، وهذا يتطلب أن ينهض الخطباء لبثّ الحماسة في النفوس، وحشد الناس في حركة التصدي العام للغزو الصليبي والاجتياح المغولي، ولكننا لا نجد في المصنفات التي وصلتنا خطبًا حربية، ربما لأن القادة المجاهدين لم يكونوا عربًا، والخطابة فن عربي، لا يحسنه إلا من أتقن العربية، وربما لأن هذه الخطب كانت ترتجل في مواقع القتال، ولم يتمكن المقاتلون من حفظها لتصل إلى أيدي المصنفين، فالخطب الحربية لا تخضع لنهج محدد، وإنما ترتبط بالخطيب وبظروف الخطبة، وهي مرتجلة تميل إلى القصر، وربما قيلت في جمع لا ينتبه أحد منهم إلى حفظها وتقييدها، فوجود الخطب الحربية لا شكّ فيه، واتساع هذا الوجود مفترض ولكن ليس بين أيدينا ما يؤيده ويدل عليه.

والضرب الثاني من الخطب المعروفة هو الخطب الاجتماعية، وأهمها خطب الزواج، وكانت تكتب على شكل صداق، يخرج من ديوان الإنشاء، فتكون من النثر الديواني، ولما ضعفت ملكة الفصاحة عند الناس، وقلّت قدرتهم على الارتجال اتجه بعض الأدباء إلى كتابة خطب الزواج، ليحفظها المتأدبون والذين يطلب منهم القيام بذلك في هذه المناسبات.

وغلبت الخطابة الدينية على خطب العصر، واستقرت على شكل محدد، تلقى في صلاة الجمعة والعيدين، وقد تابع فيها الخطباء ما وصل إليهم من العصور السابقة، وأضافوا إليها بعض ما استجدّ في عصرهم، ثم كُتبت الخطب وجُمعت في دواوين ليحفظها خطباء المساجد ويتلوها على الناس.

ابتعدت الخطب الدينية عن الارتجال، وحُضّرت لمناسبات معينة، وكُتبت بأسلوب متصنع، على نهج محدد في طريقة العرض لا زال مستمرًا إلى أيامنا

هذه، وكل ديوان يحوي خُطبًا بعدد أسابيع السنة، ولكل أسبوع خطبة تتناول المناسبة الموافقة لها والقريبة منها، وأهم ما يميز أسلوب الخطبة، توازن الفقرات والجمل المسجوعة، وهذا يعطي الخطبة إيقاعًا محددًا، يساعد الخطيب على تلوين نبرته، ويؤمن التأثير في السامعين، وروعي في الخطبة الوضوح لأن معظم المستمعين لها من العامة.

ويمكن إلحاق خطب الكتب بفن الخطابة، فقد حرص كل مصنّف على وضع خطة لكتابه أو مقدمة، يبين فيها موضوع الكتاب وسبب تأليفه، ويجهد لتأتي على أكمل وجه في البلاغة، ويضع فيها أقصى ما يستطيع من مهارة في الكتابة، لأنها واجهة الكتاب، وهي التي تقنع القارئ بقراءة الكتاب، وتوضح مكانة المؤلف ومقدرته، ولهذا احتفل المصنفون لخطب كتبهم، وتأنقوا في أسلوبها الذي يكون غالبًا مغايرًا لأسلوب الكتاب، إذ يغلب على الخطبة الأسلوب الأدبي والصنعة البديعية، حتى إذا باشر الكاتب موضوع كتابه وتفصيله، اختفت الصنعة أو خفّت.

ففنّ الخطابة في العصر المملوكي مال إلى التقليد والتقييد، ولم يخرج عن ذلك إلا الخطب الحربية المرتجلة، أما الخطب الاجتماعية والدينية وخطب الكتب، فإنها تُهيأ وتُدرس وتُعدّ بعناية، وتكتب بطريقة تلائم الإلقاء وتؤمن التأثير في السامعين، وهي تعتمد على التدقيق والتكثيف وبذل الجهد العقلي في بنائها وصياغتها، فخرجت عما كانت عليه من قبل.

قال السلطان قطز[1] حين توجه لملاقاة التتار:[2]

---

(١) قطز بن عبد الله المظفر سيف الدين المعزي قائد معركة عين جالوت (ت ٦٥٨هـ)، فوات الوفيات ٢٠١/٣.

(٢) المقريزي: السلوك في دول الملوك ٤٤٩/١.

يا أمراء المسلمين، لكم زمان تأكلون أموال بيت المال، وأنتم للغزاة كارهون، وأنا متوجه، فمن اختار الجهاد يصحبني، ومن لم يختر ذلك يرجع إلى بيته، فإن الله مطلع عليه، وخطيئة حريم المسلمين في رقاب المتأخرين.

كتب الصفدي صداق خطبة ابن أمير:[1]

الحمد لله الذي أيّد هذا الدين بناصره، وشيّد قواعده بشدّ أواخيه وإحكام أواصره، وخصه بكرم أبوّته وطيب عناصره. نحمده على نعمه التي منها الهداية الى اتباع السنة، والعناية بما يؤديه الى سلوك الطرق التي توصل الى الجنة، والرعاية لأعمال تكون النفس بها يوم الفزع الأكبر مطمئنة.

ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، شهادة تخفق بين سرادق العرش أعلامها، وتشرق في الحنادس المظلمة أقمارها، وقد كمل نورها وتمامها، وتورق غصون الإيمان بأدلتها إذا انشقت عن زهرات اليقين أكمامها.

ونشهد أن سيدنا محمدًا عبده ورسوله الذي حضّ على النكاح، وحث على تجنّب السفاح، وحصّ[1] قوادم الباطل، وراش جناح النجاح، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين حافظوا على اقتفاء آثاره، وبلّغوا الأمة ما وصل إليهم من سُننه وأخباره، وكاثروا النجوم الزاهرة بمهاجريه وأنصاره، صلاة لا تحدّ البوارق من رضوانها لثاما، ولا تشق السوابق من غفرانها غماما ما عُقد نكاح، وفُقد سفاح، وسلّم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدين، وبعد:

فإن النكاح من مزايا هذه الأمة ومحاسنها التي تجلو بأنوارها الحنادس المدلهمة، والسنّة بذلك طافحة، وفي كل مكان منها نافجة[2] نافحة، فمن ذلك

---

(١) الصفدي: أعيان العصر ٥/٢٦٠.

(١) حصّ: قطع.

(٢) وعاء الطيب.

ما هو في بيانه ووضوحه، كالعلم، وهو قوله عليه السلام "تزوجوا الولود الودود فإني مكاثر بكم الأمم"(١).

وكان المقر الكريم العالي المولوي الأميري الناصري محمد بن الأمير المرحوم بدر الدين مسعود بن الخطير (١) ممن طاب فرعًا وأصلًا، وحوى الفضلين حكمًا وفصلًا، وحاز المنقبتين قلمًا ونصلًا، وتفرد بالمحاسن التي فضلها للعيان مشهود، وروضها بغمام الكمال مجود، وحوضها لك ناهل مورود، وحديثها في الناس مشهور، وما أصدق مَن روى حديث ابن مسعود، ومحلّه في السيادة أثيل وأثير، وباعُ رمحه في الباس طويل ولسان السيف من غيره قصير، ومناقب بيته فعُمدةُ كلّ خطيب وصف بني الخطير:

من النفر الغُرّ في قومهم ... فطالوا أصولا وطابوا جدودا

فلذلك تمسك بالسبب المتين من المنّة، وآثر الاتصال بمن حجابها بيض السيوف وحُجّابها زرق الأسنة، ورغب على المقر الشريف العالي المولوي الأميري السيفي تمر أمير مهمندار(٢):

غدا في الزمان كبير الأنام ... بتدبيره تستقيم الدول

وخطب الجهة المصونة الخاتون قطلوملك ابنة الأمير المرحوم شرف الدين موسى، لأنها في كفاية كنفه، وظل حجره وتصرفه، ومهاد برّه وتلطّفه، وعناية إقباله عليها وتعرفه.

لا يبعث النجم طرفا نحو مطرفها ... وكيف يلحظ طرفا بالعفاف عُمِز

---

(١) السيوطي: الجامع الصغير ٤٤٣/١.

(١) أحد أمراء دمشق (ت ٧٦٣هـ)، أعيان العصر ٢٥٩/٥.

(٢) الأمير سيف الدين المهمندار، تولى أعمالاً مختلفة في الدولة (ت ٧٦٢هـ)، أعيان العصر ١٠٩/٢.

ولا تجـوز الصبا مـن دون مضـربها ولا تمـرُّ عليهـا وهـي عنـد تَبـزْ

قال ابن سودون من خطبة نكاح:[1]

الحمد لله الذي حلّل بالعقد حُرمة النكاح، ومحا بالإسلام ما كُتب في الجاهليّة من السفاح، جعل بين الزوجين مودّة ورحمة، فكان لهما عند حصوله فلاح، فسبحان مَن جمع من الشتات شملا، وجعل به لقطع الأُنس وصلا، وأوجد به من القِدَم نسلا.

أحمده على تآلف القلوب دوامًا، وأشطره على ذلك ابتداء واختتامًا، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، شهادة يُعقد بها ما انحلّ من السرور، وينحلّ بها ما انعقد من الشرور، وأشهد أن سيّدنا محمد ﷺ عبده ورسوله الذي رغّب في النكاح، وما زال عليه يُثني، حتى قال: النكاح سُنّتي، فمن رغب عن سنّتي فليس منّي[1]، صلى الله عليه وعلى آله وأزواجه وعترته والعامل في النكاح بسُنّته من سائر أمته، وسلم تسليمًا كثيرًا.

خطب الخليفة في أول جمعة بعد توليه في مصر:

الحمد لله الذي أقام لآل العباس ركنًا وظهيرًا، وجعل لهم من لدنه سلطانًا نصيرًا، أحمده على السراء والضراء، وأستعينه على شكر ما أسبغ من النعماء، وأستنصره على الأعداء، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله، صلى الله عليه وسلم، وعلى آله وصحبه نجوم الاهتداء، وأئمة الاقتداء، ولا سيما الأربعة الخلفاء، وعلى العباس عمّه وكاشف غمّه، وعلى السادة الخلفاء الراشدين والأئمة المهديين، وعلى بقية الصحابة والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

---

(١) وعاء الطيب.

(١) صحيح البخاري، باب الترغيب في النكاح ٢/٧.

أيها الناس، اعلموا أن الإمامة فرض من فروض الإسلام، والجهاد محتوم على جميع الأنام، ولا يقوم علم الجهاد إلا باجتماع كلمة العباد، ولا سُبيت الحُرم إلا بانتهاك المحارم، ولا سُفكت الدماء إلا بارتكاب المآثم، فلو شاهدتم أعداء الإسلام حين دخلوا دار السلام، واستباحوا الدماء والأموال، وقتلوا الرجال والأطفال، وسبوا الصبيان والبنات، وأيتموهم من الآباء والأمهات، وهتكوا حرم الخلافة والحريم، وأذاقوا مَن استبقوا العذاب الأليم، فارتفعت الأصوات بالبكاء والعويل، وعلت الضجّات من هول ذلك اليوم الطويل، فكم من شيخ خُضّبت شيبته بدمائه، وكم من طفل بكى فلم يُرحم لبكائه.

فشمّروا ساق الاجتهاد في إحياء فرض الجهاد ﴿فاتقوا الله ما استطعتم، واسمعوا وأطيعوا، وأنفقوا خيرًا لأنفسكم، ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون﴾. فلم يبق معذرة في القعود عن أعداء الدين، والمحاماة عن المسلمين.

وهذا السلطان الملك الظاهر، السيد الأجل، العالم العادل المجاهد المؤيد، ركن الدنيا والدين، قد قام بنصر الإمامة عند قلّة الأنصار، وشرّد جيوش الكفر بعد أن جاسوا خلال الديار، وأصبحت البيعة باهتمامه منتظمة العقود، والدولة العباسية به متكاثرة الجنود.

فبادروا عباد الله إلى شكر هذه النعمة، أخلصوا نياتكم تُنصروا، وقاتلوا أولياء الشيطان تظفروا، ولا يردعنكم ما جرى، فالحرب سجال والعاقبة للمتقين، والدهر يومان والأخر للمؤمنين، جمع الله على التقوى أمركم، وأعز بالإيمان نصركم، وأستغفر الله العظيم لي ولكم ولسائر المسلمين، فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم.

الخطبة الأولى لربيع الأول من خطب الجمعة:(١)

الحمد لله الذى أنعم علينا بإظهار سيد البشر، وقدّر ولادته في هذا الشهر الشريف الأزهر، وليلة ولادته عليه الصلاة والسلام فاقت أنواره النجم والقمر، وعكف على منزل آمنة الطيرُ وهلّل وكبّر، وانشق ديوان كسرى ومال وانكسر، فسبحان من أرسله كافة للناس، فبشّر وأنذر، أحمده سبحانه وتعالى حَمْدَ من أمر بالمعروف ونهى عن المنكر، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة يُمحى بها ذنبنا الصغير والأكبر، وأشهد أن سيدنا ونبيّنا محمدًا ﷺ، عبده ورسوله، صاحب المعجزات التي بطول الزمان ذكرها يُنشر، اللهم فصلّ وسلم وبارك على هذا النبي الكريم والرسول السيد السند الأعظم ذي القلب الرحيم، سيدنا محمد، وعلى آله وأصحابه صلاة وسلامًا دائمين متلازمين إلى يوم الحشر وسلّم تسليمًا كثيرًا.

أيها النّاس: سبق في علم الله كما ورد في الْخَبَر: مَا كَانَ وَمَا يكون، وَمَا غَابَ وَمَا حضر، فسبحان من اطّلع على خلقه فعلم طَاعَة الطائع وَكُفر من كفر، قبض قَبْضَة من خلقه، وَقَالَ: هَذِه إِلَى الْجنَّة وَلَا أُبَالِي، وَهَذِه إِلَى سقر، وَقبض قَبْضَة من نوره وَقَالَ: كوني مُحَمَّدًا سيّد الْبشر، فكانت بين يديه كالمصباح الأنور الأزهر، فشعشع ونوّر، وَقسم نوره على أَرْبَعَة أَقسَام كَمَا قد جَاءَ فِي الْخَبَر: فخلق من الْجُزْء الأول، اللّوح والقلم، فكتب الْقَلَم مَا بِهِ الله قد أمر، وَخلق من الثَّانِي الْعَرْش والكرسي، وَكَانَ اسْم الرَّسُول على الْعَرْش مسطرًا مَكْتُوبًا: عَلَيْهِ لَا إِلَه إِلَّا الله، لَا أعفر لقائلها حَتَّى مَعهَا يَا مُحَمَّد تُذكر، وَخلق من الثَّالِث الشَّمْس وَالْقَمَر، وَنور الْفجْر إِذا ظهر، وَخلق من الرَّابِع الْجنَّة وَمَا فِيهَا من حُور وولدان وقصور وثمر، فَلَمَّا أَرَادَ الله أَن يخلق آدم أَبَا الْبشر، أفرغ

---

(١) ديوان خطب ابن نباتة :٢١.

على طينة قطرات من نور النبي المفتخر، وقال لها: كوني آدم فكانت كما جاء في السير، الحديث: من كرامتي على ربي أني ولدت مختونا ولم ير أحد سوأتي[1]، وعنه أنه قال: إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم، فأنا خيار من خيار من خيار[1].

قال الصفدي في خطبة جنان الجناس:[2]

الحمد لله الذي رفع في فن البديع جناب جناسه، وملّك من شاء من البشر قيادة قياسه، وأعلى مقداره للأديب إلى أن قاس المسك الأذفر[3] بأنفاسه، وجرّك البليغ في الإنشاء لأن جاس[4] خلاله الطاهرة من أنجاسه، وفتح على فرسان النظم والنثر بالأنفال[5] من أنفاسه، ووهب لمن شاء السبق إلى البلاغة على أفراد أفراسه، ونصر كتائب الفصاحة بأجناد أجناسه، وبعث إلى النفوس اللطيفة أطراب أطراسه.

نحمده على ما خص به من اللغة التي لا زال جلالها يروع ويروق، وأتحف به من الآداب التي لا تبرح رياضها وحياضها تفوح وتفوق، وفتح به من الألفاظ التي تسوم البلاغة وتسوق، ومنح من المعاني التي تعوج عن الفهاهة وتعوق، حمدًا يذوب حلاوة لمن يذوق، ويشوب بالطرب سمع من يشوق.

ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، شهادة نعوذ بأمانها من الحالة الخاسئة والكرّة الخاسرة، ونجدها يوم القيامة سترًا من العيوب البادية والفرطات

---

(١) السيوطي: الجامع الصغير ٤٧٢/٢

(١) المصدر نفسه.

(٢) الصفدي: جنان الجناس: ٦.

(٣) مسك أذفر: جيد إلى الغاية.

(٤) جاس: طلب الشيء واستقصاه.

(٥) الأنفال: الغنائم والهبات.

البادرة، وننال بها في ذلك اليوم المآرب القاصية، وننصر الحجة القاصرة، ونبعث فيها اليقظة إلى العيون الساهية عن آفات الساهرة.

ونشهد أن سيدنا محمدًا عبده ورسوله، أفصح من رُقِم في الطروس خط خطابه، وأبلغ من أمطرت الأسماع صوت صوابه، وأعز من جادل في الله فأطلع شمس اليقين في جوّ جوابه، وأشرف من جاهد في الله حتى رفل في ثوب ثوابه، صلى الله عليه وعلى آله الذين ما فرّق أحدهم في الحق بسيفه بين أقاربه وقرابه، ونصروا الدين القيّم، بالمتجانسين: كتائبه وكتابه، وصحبه الذين تجلّى بهم الإيمان وانجاب عن أنجابه، ووُلّي بهم البهتان، وانساب إلى أنسابه، صلاة تُحث بها جنائب الشرف إلى جنابه، وتُحط بها ركائب المجد في ركابه، وسلّم ومجّد وشرّف وكرّم. وبعد:

فلما كان فن البديع في الزمن المتأخر أحسن بدعة، وأوضح لمعة، وأملح طلعة، وأكثر رواية وسعة، ولا أقول رياء وسُمعة، به تبنى بيوت الشعر في أشرف بقعة، وتبرز أبكار الأفكار منه في خلعة بعد خلعة، وإذا كان الشعر بحرًا فهو منه أعذب جرعة، والمكاتبات حِلّة مرقومة فهو طراز كلّ رقعة، خصوصًا نوع التجنيس الذي هو ركن شريعته وبيان شِرعته، وديباجة صنائعه في صنعته، وآية سجدته وغاية سجعته، وغيث نجدته وغيث نجعته، تشهد الخطباء له بفضل جماعته وجمعته، وتعترف الشعراء برفع محله ومحل رفعته، وتدخل به الألفاظ الفصيحة الأذن بغير إذن لشفاعة حقه وحق شُفعته، فله في كل خلوة جلوة، وفي كل خطوة حظوة، إن دخل في خطبة توّجها، أو قصيدة تبّجها، أو شُبهة روّجها، أو وضع في الطروس نمّقها، أو نسخ كلمة جاء بخبر منها وحققها، فهو في البديع خال خدّه وطراز بُرده، وفصّ خاتمه وجود حاتمه، وسجع حمامه وسخ غمامه، وزهر كمامه وقمر تمامه، متى عُدّ في القصيدة

بيت، كان الجناس طرازه، ومتى طاف بالبلاغة متكلّم، كانت أركان كعبته وحجاب حجازه، ومتى كان السحر الحلال بابه، كان في الحقيقة إليه مجازه، قد أخذت أفراد محاسنه بمجامع القلب، ودخلت على كل لُبّ بهمزة السلب، فهو نوع فيه على الحُسن عون، يُكسب اللفظ رونقًا وطلاوة، وبه تزال حور المعاني في حُلى وحلّة وحلاوة.

أحببت أن أضع فيه ما يشفي الغُلّة وينفي العلّة، ويوضح سُبله بالشواهد والأدلة، ويظهر بُدوره كاملة بعد أن كانت أهلّة، ويردّ كل فرع إلى أصله، ويميّز كل نوع بجنسه القريب وفصله، ويستوفي الناظر فيه الوصول إلى المراد بوصوله، ويتصرّف في البلاغة كيف شاء إذا كان محصورًا في محصوله، ويصيب أغراض الفصاحة بمرسلات نصوله، ويترجّح له صحة ما تضمّنه باعتدال فصوله، ويثير الفوائد من أماكن مكامنها، ويقتنص جوامحها من مواطئ مواطنها.

قال ابن هشام[1] في خطبة أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك:[2]

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام الأتمّان الأكملان على سيدنا محمد خاتم النبيين وإمام المتقين وقائد الغُرّ المحجّلين، وعلى آله وصحبه أجمعين، صلاة وسلامًا دائمين بدوام السموات والأرضين.

أما بعد حمد الله مستحق الحمد وملهمه، ومنشئ الخلق ومُعدمه، والصلاة والسلام على أشرف الخلق وأكرمه، المنعوت بأحسن الخُلُق وأعظمه، محمد نبيه وخليله وصفيه، وعلى آله وأصحابه، وأحزابه وأحبابه، فإن كتاب الخلاصة الألفية في علم العربية، نظم الإمام العلامة جمال الدين أبي عبد الله محمد بن

---

(١) عبد الله بن يوسف بن عبد الله النحوي المشهور (ت ٧٦١هـ)، الدرر الكامنة ١٨٧/٣.

(٢) ابن هشام: أوضح المسالك ١٠/١

مالك الطائي[1] -رحمه الله- كتاب صغر حجمًا وعزُر علمًا، غير أنه لإفراط الإيجاز، قد كان يُعد من جُملة الألغاز.

وقد أسعفت طالبه بمختصر يُدانيه، وتوضيح يسايره ويُباريه، أحلُّ به ألفاظه وأوضح معانيه، وأحلل به تراكيبه وأنقح مبانيه، وأعذب به موارده، وأعقل به شوارده، ولا أخلي منه مسألة من شاهد أو تمثيل، وربما أشير فيه إلى خلاف أو نقد أو تعليل، ولم آلُ جهدًا في توضيحه وتهذيبه، وربما خالفته في تفصيله وترتيبه، وسميته، "أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك".

وبالله أعتصم، وأساله العصمة مما يصم، لا ربّ غيره، ولا مأمول إلا خيره، عليه توكلت وإليه أنيب.

---

(١) محمد بن عبد الله بن مالك الطائي النحوي (ت ٦٧٢هـ)، فوات الوفيات ٤٠٧/٣

النثر الديني

غلب التوجه الديني على أدب العصر المملوكي، شعره ونثره، فمقدمة النصوص وخاتمتها دينية، والاحتجاج للرأي مستمد من المبادئ الدينية، وظهرت فنون نثرية دينية خالصة، مثل الخطب الدينية والمدح النبوي النثري، والمولد النبوي، والمواعظ والأدعية والأوراد، وقد عرف النثر الديني قبل العصر المملوكي، لأن الدين كان وما يزال ملهمًا للأدباء، يأخذون منه موضوعات ومعاني، ويرقق مشاعرهم وأحاسيسهم، ويغذي أرواحهم بطاقة إبداعية كبيرة تسمو بإنسانيتهم.

- *المدح النبوي:* لا يختلف المدح النبوي النثري عن المدح النبوي الشعري في مضمونه ومعانيه، وكان هذا المدح يأتي في نصوص نثرية مختلفة، حين يعرّج الكاتب على ذكر رسول الله ﷺ، أو ينفرد بنصوص خاصة أنشئت لمدح النبي الكريم، فجميع مقدمات النصوص النثرية تحوي مدحًا نبويًا، وتتحوّل هذه المقدمات إلى مدح نبوي خالص حين تكون لنص أو كتاب يتحدث عن رسول الله ﷺ.

وعرفت في هذا العصر رسائل خاصة بالمدح النبوي، كان يرسلها الأدباء إلى المدينة المنورة، لتُتلى أمام ضريح رسول الله ﷺ وهي تماثل قصائد المدح النبوي في بنائها ومعانيها، وكذلك بعض المقامات المخصصة للمدح النبوي.

أما المولد النبوي فهو فن نثري قريب من المدح النبوي، أو جزء منه، احتُفل به قبل العصر المملوكي، وبدأ التأليف فيه أيام الأيوبيين، يعرض أصحابه طرفًا من السيرة النبوية، يقصر على مرحلة الولادة وإرهاصاتها، والطفولة والنشأة، وربما امتد إلى مرحلة البعثة، وحفلت الموالد النبوية بمدح رسول الله ﷺ وتمجيده، فحوت ما حوت المدائح النبوي، وأدت ما أدته، ولأن

الموالد النبوية ألفت لتلقي في الاحتفالات الدينية، فقد جاء أسلوبها ملائما للإنشاد والترديد، لذلك كتبت بأسلوب أدبي، يمتزج فيه الخيال بالواقع، والسرد بالشعر، ومال إلى التوقيع الموسيقي.

- ***المواعظ:*** نصوص نثرية كان يلقيها الوعاظ في المساجد والمحافل، وبعضها كتب فوصل إلينا، وفيها ينهى أصحابها عن أمر أو يحثون على اتباعه، وقد اقتربت بعض المواعظ من الخطابة الدينية في مضمونها وشكلها، وكتب بعضها على هيئة رسالة، وبعضها كتب بأسلوب أدبي يحفل بالشاعرية والإيقاع، ويتسم بالشفافية، وكتب بعضها على شكل الأدعية والأوراد، فداخلتها حتى صعب تمييزها منها.

- ***الأدعية والابتهالات والأوراد:*** أكثر ألوان النثر الديني اقترابا من الأدب ومن طرائقه في التعبير، حتى شابهت الشعر في صياغتها وشفافيتها، وقد كثرت الأوراد والأحزاب عند المتصوفة، فكان لكل طريقة صوفية وردها الخاص أو أورادها التي يضعها رأس الطريقة وكبار شيوخها، وتتضمن إشارات إلى ما يميز الطريقة من غيرها.

وعلى الرغم من أن الورد ضرب من الدعاء والابتهال الذي يرفعه العبد إلى ربه، لا يحتمل عرض الأفكار والعقائد، ولا يحتمل الصنعة الثقيلة، لأنه لفتة لاجئ إلى الخالق، عامرة بالصدق، وتحمل خلجات النفس ورفيف الروح، فإن ما وصل إلينا منها أنشأها أصحابها بعد تفكر وتدبر، وكتبوها ليطلع عليها الناس ويحفظوها ويرددوها في مناسباتهم، فحملوها أفكارهم وعقائدهم، وظهرت عليها الثقافة وتزيد النظر، وطغت الصنعة على أسلوبها.

وكان النثر الديني أكثر ألوان النثر الأدبي جمالا وشفافية، يتوفر فيه الصدق والإخلاص في التوجه، فقلت فيه الصنعة ليلائم الإلقاء والإنشاد، ويبقى

النثر الديني شاهدًا على أنّ الأدب العربي في العصر المملوكي لم يكن ذا لون واحد، ولم يكن أدب الصنعة اللفظية فقط، بل كان فيه الأدب الذي يسمو في مضمونه وأسلوبه.

كتب لسان الدين بن الخطيب[1] رسالة على لسان السلطان أبي الحجاج يوسف[2] بن إسماعيل إلى سيد العالمين ﷺ إثر نظم:

إلى رسول الحق إلى كافة الخلق، وغمام الرحمة الصادق البرق الحائز في ميدان اصطفاء الرحمن قصب السبق، خاتم الأنبياء وإمام ملائكة السماء، مَن وجبت له النبوّة وآدم بين الطين والماء، شفيع أرباب الذنوب، وطبيب أدواء القلوب والوسيلة إلى علام الغيوب، نبي الهدى الذي طَهُر قلبه، وغُفر ذنبه، وختم به الرسالة ربه، وجرى في النفوس مجرى الأنفاس حُبّه، الشفيع المشفّع يوم العرض، المحمود في ملأ السماء والأرض، صاحب اللواء المنشور يوم النشور، والمؤتمن على سرّ الكتاب المسطور، ومُخرج الناس من الظلمات إلى النور، المؤيد بكفاية الله وعصمته، الموفور حظه من عنايته ونعمته، الظلّ الخفّاق على أمته، مَن لو حازت الشمس بعض كماله ما عدمت إشراقا، أو كان للآباء رحمة قلبه ذابت نفوسهم إشفاقا، فائدة الكون ومعناه، وسر الوجود الذي بهر الوجود سناه، وصفي حضرة القدس الذي لا ينام قلبه إذا نامت عيناه، البيرق الذي سبقت له البشرى، ورأى من آيات ربه الكبرى، ونزل عليه ﴿سبحان الذي أسرى﴾[3].

---

(١) محمد بن عبد الله بن سعود السلماني الأديب الوزير (ت ٨٤٧٦هـ)، شذرات الذهب ٦/٢٤٤

(٢) يوسف بن إسماعيل النبهاني، ابن الأحمر (ت ٨٧٥٥هـ)، فروخ: تاريخ الأدب العربي ٦/٤، ٥

(٣) الإسراء: ١

من الأنوار عنصر نوره مستمدة، والآثار تختلف وآثاره مستجدة، مَن طوى بساط الوحي لفقده، وسُدّ باب الرسالة والنبوة من بعده، وأوتي جوامع الكلم فوقفت البلغاء حسرى دون حدّه، الذي انتقل في الغُرر الكريمة نوره، وأضاءت لمجلاده مصانع الشام وقصوره، وطفقت الملائكة تجيئه وفودها وتزوره، وأخبرت الكتب المُنزلة على الأنبياء بأسمائه وصفاته، وأخذ عهد الإيمان به على من اتصلت بمبعثه منهم أيام حياته، المَفْزَع الأملع يوم الفزع الأكبر، والسند المعتمد عليه في أهوال المحشر، ذي المعجزات التي أثبتتها المشاهدة والحس، وأقرّ بها الجن والإنس، من جماد له يتكلم وجذع لفراقه يتألم، وقمر له ينشق، وحجر يشهد أن ما جاء به هو الحق، وشمس بدعائه عن مسيرها تُحبس، وماء من بين أصابعه يتبجّس، وغمام باستقائه يصوب، وطوي[1] بصق في أجاجها فأصبح ماؤها وهو العذب المشروب، المخصوص بمناقب الكمال وكمال المناقب، المُسمّى بالحاشر العاقب، ذي المجد البعيد المرامي والمراقب، أكرم مَن رُفعت إليه وسيلة المعترف المغترب، واستُنقِذ بشفاعته المذنبون، وسَعِد باتباعه ﴿الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾. صلى الله عليه وسلم ما لمع برق، وهمع ودق، وطلعت شمس، ونسخ اليوم أمس، ونجت لديه قربة البعيد والمقترب، سيد الرسل محمد بن عبد الله بن عبد المطلب، الذي فاز بطاعته المحسنون، من عتيق شفاعته وعبد طاعته، المعتصم بسببه المؤمن بالله ثم به، المستشفي بذكره كلما تألم، المفتتح بالصلاة عليه كلما تكلم.

كتبه إليك يا رسول الله والدمع ماح، وخيل الوجد ذات جماح، عن شوق يزداد كلما نقص الصبر، وانكسار لا يُتاح له إلا بدنوّ مزارك الجبر، وكيف لا يُعيي مشوقك الأمر، وتوطأ على كبده الجمر، وقد مطلت الأيام بالقدوم على

---

(١) بئر.

تربتك المقدّسة اللحد، ووعدت الآمال وفاءت بإخلاف الوعد، وانصرفت الرفاق والعين بنور ضريحك ما اكتحلت، والركائب إليك ما رحلت، والعزائم قالت وما فعلت، والنواظر في تلك المشاهد الكريمة لم تسرح، وطيور الآمال عن وكور العجز لم تبرح.

أما والذي بعثك بالحق هاديا، وأطلعك للخلق نورًا باديا، لا يطفئ غُلّتي إلا شُربك، ولا يُسكن لوعتي إلا قُربك، فما أسعد من أفاض من حرم الله إلى حرمك، وأصبح بعد أداء ما فرضت عن الله ضيف كرمك، وعفّر الخد في معاهدك ومعاهد أسرتك، وتردد ما بين داري بعثتك وهجرتك...

المقامة السندسية في والدي خير البرية:[1]

﴿لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم﴾[2]. نبي سري ، قدره علي وبرهانه جلي ، خير الخليقة أمًا وأبًا وأزكاهم، حسبًا ونسبًا. خلق الله عز وجل لأجله الكونين، وأقر به من كل مؤمن العينين ، وجعله نبي الأنبياء وآدم منجدل في طينته ، وكتب اسمه على العرش إعلامًا بمزيته عنده وفضيلته، وتوسل به آدم عليه السلام فتاب عليه، وأخبره أنه لولاه ما خلقه، وناهيك بها مزية لديه.

ومن خصائصه فيما يذكر الغزالي[3] وغيره، أن الله ملّكه الجنة، وأذن له أن يقطع منها من يشاء ما يشاء، وأعظم بذلك منّة، وخصّه بطهارة النسب تعظيمًا لشأنه، وحفظ آباءه من الدنس تتميمًا لبرهانه، وجعل كل أصل من أصوله خير أهل زمانه ، كما قال في حديث البخاري الذي تقطع بصدوره من

---

(١) مقامات السيوطي ١/٥٦٧.

(٢) التوبة: ١٢٨.

(٣) أبو حامد محمد بن محمد بن أحمد الطوسي، حجة الإسلام (ت ٥٠٥هـ)، وفيات الأعيان ٤/٢١٨.

فيه : "بُعثت من خير قرون بني آدم قرنًا فقرنًا، حتى كنت من القرن الذي كنت فيه"[1]، وقال -عليه الصلاة والسلام- : "أنا أنفسكم نسبًا وصهرًا وحسبًا لم يزل الله ينقلني من الأصلاب الطيبة إلى الأرحام الطاهرة مصفى مُهذّبًا، لا تتشعب شُعبتان إلا كنت في خيرهما، فأنا خيركم نفسًا وخيركم أبًا"[2].

وأرسله إلى جميع الخلائق كافة، من الإنس والجن والملائكة الصافة، قال البارزي[3]: وأدخل في دعوته الحيوانات والجمادات والشجر، وقال السبكي[4]: هو مُرسل على كل من تقدّم من الأمم وغير.

قال الصفدي في استطراد عند ذكر النبي ﷺ:

قد كان ﷺ يباسط أصحابه وجلساءه، ويمزح ويلين جانبه لمن حضره ويؤنسه، فإذا كانت الحرب، واحتد الجد، وحمي الوطيس، وخارت القوى، وذهلت الأبطال، تقدم أصحابه واتقى بنفسه ﷺ، ومن خصائصه أنه كان ﷺ إذا جرّد سيفًا لا يغمده حتى ينال به من عدوه، ومنها تحريم الهزيمة عليه من العشر في الحرب، ولا شك في لطفه ورأفته ورقة قلبه وحنوّه على قومه، وهم به كافرون، يؤذونه ويكذبونه، ويصدون عنه ويحاربونه، وهو يحلم عليهم، ويشفق عليه عنادهم. قال الله تعالى: ﴿عزيز عليه ما عنتم﴾[5] ، وقال ﷺ يوم كُسِر سنّه: "اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون"، حتى وصفه الله تعالى في كتابه فقال: ﴿وإنك لعلى خلق عظيم﴾[1] ثناء على صفته الحميدة، وخلاله الجميلة، وكان

---

(١) السيوطي: الجامع الصغير ١/٤٢٧.

(٢) المصدر السابق ١/٣٦١.

(٣) قاضي القضاة هبة الله بن عبد الرحيم الشافعي (ت ٧٣٨هـ)، شذرات الذهب ٦/١١٩.

(٤) قاضي القضاة عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي (ت ٧٧١هـ)، شذرات الذهب ٦/٢١٩.

(٥) التوبة: ١٢٨.

(١) القلم: ٤.

أشدّ حياء من العذراء في خدرها، ولا شكّ أنه كان ﷺ من النجدة والشجاعة والبأس والإقدام ولقاء العدو في الغاية التي تكبو دونها سوابق الأبطال، وتتبرقع الفرسان بغبارها، فإنه كان في حروب الكفار أقرب الناس إلى العدو...

وبالجملة فصفاته وشمائله وما انطوى عليه أجلّ من أن يحيط به وصف، وأشرف من أن يضم جواهرها نظم أو رصف، فلو جرى القلم إلى أن يجف، وصرّ لسانه إلى أن يخفت ويخفى، ما جنى زهرًا أنبتته حدائق تلك الحقائق، ولا التقط درًا ملأ حقائب هاتيك الخلائق، ولا اجتلى من ذلك الأفق الذي كله شموس وأقمار غير شهبه الخفية، ولا نال على ظمئه من ذلك البحر غير بقية، وكل موارده عذبة شهية، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم.

إن في الموج للغريق لعُذرا ... وإضحًا أن يفوته تعداد

نعم قد دوّن الناس جملة من شمائله وصفاته، ووضعوا كتبًا كأنها رياض تتأرّج بنسمات سماته، وأودعوها لُكنًا بُدورها في التمام، ورصعوها جواهر تروق في التأليف والانتظام.

في بطن قرطاس رخيص ضُمّنت ... أحشاؤه دُرر الكلام الغالي

وبوّبوا ورتّبوا، وهذّبوا ودقّقوا، وذكروا، ونصّوا، وخبّروا، وقصّوا، وحبّروا، ودبّجوا، وحكوا الصحيح وما روّجوا

وعاجوا فأثنوا بالذي أنت أهله ... ولو سكتوا أثنت عليك الحقائب

فما كتاب القاضي عياض[1] إلا رياض، ولا الشمائل إلا خمائل، ولا كتاب الدلائل إلا فوائد جلائل، ولا الشهاب إلا مُطفئ التهاب.

---

(١) عياض بن موسى بن عياض السبتي صاحب كتاب الشفا في مناقب المصطفى (ت ٥٤٤هـ)، شذرات الذهب ٤/١٣٨.

أســـــاميا لـــــم تـــــزده معرفـــــة وإنمـــــا لـــــدُة ذكرناهـــــا

جاء في المولد النبوي لعائشة الباعونية[1]:[2]

... وقيل لأمه: إنك حملت بسيد هذه الأمة، ورقص الكون طربًا بترادف البشائر بظهور عين الرحمة، وكان من بركاته ﷺ التي لا يوقف لها على حد، ولا تُحصر بعدّ، أن والدته منذ حملت به لم تشك ثقلًا ولا وحما، ولا وجعًا ولا ألما، وكان من أدلة حملها بالحبيب الأكرم أن كل دابة نطقت تلك الليلة وقالت: حُمل برسول الله ﷺ، ولم يبق سرير ملك من ملوك الدنيا إلا وأصبح منكوسًا على رأسه، ويُدْل صاحبه بالوحشة بعد إيناسه، ومرت وحوش المشرق إلى وحوش المغرب بالبشارات، وأمر الله تعالى في كل شهر من شهور حمله بنداء في الأرض ونداء في السموات، أن أبشروا فقد آن أن يظهر أبو القاسم وسيد ولد آدم.

ولما تم لوالدته شهران من حمل من نزلت في الذكر الحكيم محامده، توفي عبد الله والده، وقيل: توفي والنبي -عليه السلام- في المهد، وقيل: إنها أشهر تُعد، والراجح المشهور هو الأول، وعليه في الصحة المعوّل، ولم تزل تفاجئ أمه آمنه في مدة حمله ببدائع الآيات، وتواصلها ببركاته جلائل الكرامات، حتى كان ليلة مولده المكرم ومقدمه المعظم، تتابعت البشرى، وظهرت الآية الكبرى، من حراسة السماء بالشهب الثواقب من كل مارد، وانتكاس الأصنام وانعكاس مقاصد من هو لها عابد، وخمود النيران، وكان لها ألف سنة لم تخمد، وارتجاج الإيوان الذي مثل حُسن بنائه لم يُعهد، وغيض بحيرة ساوة، وفيض وادي سماوة،

---

(١) عائشة بنت يوسف بن أحمد (ت ٩٢٢هـ)، الكواكب السائرة ١/٢٨٨.

(٢) عائشة الباعونية: المولد الأهنى: ٢٣.

وابتكام[1] الكهان من الخطاب وعجزهم عن رد الجواب، هذا والأنوار ساطعة وسُحب الخيرات هامعة، ولما آن أوان سفور شمس ذاته الكريمة لأعين الناظرين، وقرب ميقات وضع من وضع ببركته الإصر والأغلال التي كانت من قبل عن المؤمنين، تعاقبت البشرى من عوالم الجبروت، وتوالى الهناء في عالم الملكوت، وزُيّنت الجنان، وضوعف ما بها من الخيرات الحسان، وماج الكون طربًا وسرورًا، وامتلأت بقاع الأرض خضرة ونورًا، وتعطرت أرجاء الوجود بعبير أنفاس الإيناس، وشخصت أحداق الحدائق تشوقًا لرؤية أكرم الناس، وتوالت المنح وتتابعت الفوائد، وأعلن بالبشرى كل متحرك وجامد، وتضاعفت من أجناس الموجودات على هذه المنة جلائل المحامد، وفُرّقت خلع التكريم على أعيان الملأ الأعلى تفخيمًا لشأن مولده وتعظيمًا، ودُقّت كؤوس البشائر في قدس تلك الحضائر تنويهًا بشرف مقدمه وتكريمًا، وسجعت وُرق التهاني بوفاء صاحب المثاني تأكيدًا الرفعة قدره وتقريرًا، وهبت نسمات الأنس من تلقاء جانب القدس بمقدم من أطلعه الله في سماء الاصطفاء الأعظم سراجًا منيرًا، واستهلت ديم النعيم بورود من أرجت مشام أرواح أهل الفلاح بريحان وفائه، وأينعت رياض الحكم بمجيء مَنْ هدى القلوب إلى حضرة المحبوب بأشعة ضيائه، وأسفر صباح الوصل بين ظهور بدر سماء القاب وشمس الرسالة، وطلعت نجوم الهدى ببركات مولد المنقذ من الضلالة، ورفعت رايات المجد ونُصبت أعلامه، وأقبلت دولة العز وظهرت أحكامه. وإلى ذلك أشير بما فتح به العلي الكبير:

اللّهُ أكبر كم وافت بشارات ... وكم تبدّت لتعظيم إشارات

---

(١) ابتكم: صار أبكم.

وَكَـــم تَجلّـــت بَـــراهين وَمُعجـــزة ... وَكَـــم تَوالَـــت كَرامـــات وَآيـــات

بِلَيلَـــة المَولِـــد الغَـــراء حـــين دَنـــا ... لِوَضـــع أَحمـــد خَيـــر الخَلـــق مِيقـــات

أَعظَـــم بِهـــا لَيلَـــةً جَلَـــت بَـــدائعها ... وَأَفصَـــحت بِالهُدَى فِيهـــا الجَمـــادات

وَأَشـــرَق الكَـــون بـــالأَنوار وَاتَّصَـــلَت ... مِـــن الهَواتِـــف بِالهَـــادي بِشَـــارات

وجاء في المولد: [1]

ولمـا ولـد ﷺ أعربـت عـن صفاتـه الأحبـار والرهبـان، وسـجعت الهواتـف بغرائـب المعـاني والبيـان، وسُـرّ بـه جـده عبـد المطلـب سـرورًا استولى علـى لُبّـه، وأحبّـه حُبًـا أخـذ بمجـامع قلبـه، وقـال وقـد راعـه مـا رأى مـن بـدائع الآيـات والبرهـان: سـيكون لابنـي هـذا شـان: وألهمـه الله تعـالى تسـميته محمـدًا فسمّاه بهـذا الاسـم المكـرّم، وذبـح عنـه فـي اليـوم السـابع مـن ولادتـه وأطعـم، وكانـت أول مَـن أرضعتـه أمـه ثـم ثويبـة مـولاة عمـه أبـي لهـب، ثـم سـاق السـعد مـن بنـي سـعد مـن قامـت فـي رضـاعه بمـا وجـب، وذلـك أن القحـط عـمّ بنـي سـعد، فقصـدوا مكـة مـن شـدة الإمحـال وضـيق الحـال، علـى نيـة التعـيش ببضـاعة رضـاعة الأطفـال، فلـم يبـق مـن نسـائهن ذات ولـد رضـيع، إلا وقـد عُـرض عليهـا الحبيـب الشـفيع، وتـأبى لحرمانهـا أن تأخـذ النبـي الكـريم، إذا قيـل لهـا: إنـه يتـيم، سـوى حليمـة فـإن الكـرم خصصـها فـي القـدم بالـدرة اليتيمـة، فأخذتـه بقبـول لـمّا عُـرض عليهـا، ومـا تـدري مـاذا يُسـاق إليهـا مـن كـرائم الغنـائم، ببركـات سـيد ولـد آدم، أخذتـه وثـديها لـم ينـز بقطـرة مـن السـغب، فـانهمر اللـبن فـي الحـال وانسـكب، وكـان ذلـك لهـا أول البشـر بخيـر البشـر، وكـان مركوبهـا لا يُـرى لـه خيـال مـن الهـزال، ولا يظـن مـن يـرى مشـيته إلا أنـه فـي شـكال، فحـين اسـتوت علـى ظهـره بخيـر الخلائـق، انطلـق يجـري جريانًـا تُقصّـر عنـه جيـاد

---

(١) عائشة الباعونية: المولد الأهدى: ٣٠.

السوابق، واخضرّ من تحته أديم الأرض لوقته، وأخصب الحي بحلوله، ونزل الغيث بنزوله، وقال قومها: لقد عمتنا بركات هذه الذات الكريمة، وإن كنت مخصوصة بها يا حليمة، فقد رأينا من بركات هذا الغلام ما يؤذن بعلوّ المقام، ولسان الوجود ينادي يا نيام، أتدرون من هذا الغلام، هذا سيّد الأنام، ومصباح الظلام ورسول الله الملك العلام، وفي مدح علاه، قد فتح الله:

هذا الحبيب وصفوة الجبّار ... أزلًا ولا أثر من الأثار

هذا الذي قرن المهيمن إسمه ... مع اسمه وجلاه للإظهار

هذا الذي نزل القران بمدحه ... وعليه أثنى في القديم الباري

هذا الذي خلق المهيمنُ نوره ... من نوره وحباه بالأنوار

هذا الذي حاز الكمال وغايةً ... خضعت لديها سائر الأخيار

هذا الذي لولاه ما خُلقت سما ... كلا ولا دُحيت ذوات قرار

من كلام ابن عطاء السكندري(١):(٢)

– الشوق على قسمين: شوق إلى الغيبة لا يسكن إلا بلقاء المحبوب، وهو شوق النفوس، وشوق الأرواح على الحضور والمعاينة، فإذا رفعك إلى محل المحاضرة والشهود المسلوب عن العلل، فذاك مقام التعريف إيمانًا حقيقيًا، وذاك ميدان تنزل أسرار الأزل، وإذا أنزلك إلى محل المثابرة والجهاد، فذاك مقام التكليف المقيد بالعلل، وهو الإسلام الحقيقي، وذلك ميدان تجلّي حقائق الأبدية.

والمحقق مَنْ لا يُبالي بأي صفة يكون، لأن صفتك تميل لا أنت، والصفة من العين للعين وهو ظهورك، والاسم للسان وهو نطقك، والاسم حقيقة الصفة،

---

(١) أحمد بن محمد بن عطاء الله (ت ٧٠٩هـ)، الدرر الكامنة ١/٢٧٣.

(٢) ابن عطاء الاسكندري: لطائف المنن: ٢٠٧.

والصفة حقيقة الوجود، والأسرار متنزلة عن الوجودية للصديقية، والحقائق متجلية عن الصفات بالولاية لأهل العلوم الظاهرة عن الأمم بالدليل لأهل السعاية.

– أوقات العبد أربعة لا خامس لها، النعمة والبلية والطاعة والمعصية، ولله عليك في كل وقت منها سهم من العبودية يقتضيه الحق منك بحكم الربوبية، فمن كان وقته الطاعة، فسبيله شهود المنة من الله تعالى، إذ هداه لها، ووفقه للقيام بها، ومن كان وقته المعصية فسبيله الاستغفار والتوبة، ومن كان وقته النعمة فسبيله الشكر، وهو فرح القلب بالله، ومن كان وقته البليّة فسبيله الرضا بالقضاء والصبر، والرضا رضّ النفس عن الشهوات، والصبر مشتق من الأصبار وهو الغرض للسهام، وكذلك الصابر ينصب نفسه غرضًا لسهام القضاء، فإن ثبت فهو صابر، والصبر: ثبات القلب بين يدي الرب، قال رسول الله ﷺ: "من أعطي فشكر، وابتلي فصبر، وظُلم فغفر، وظَلَم فاستغفر، ثم سكت، فقالوا: ماذا له يا رسول الله؟ قال: ﴿أولئك لهم الأمن وهم مهتدون﴾[1]". أي لهم الأمن في الآخرة وهم مهتدون في الدنيا.

– الناس على قسمين: قوم وصلوا بكرامة الله إلى طاعة الله، وقوم وصلوا بطاعة الله إلى كرامة الله.

– العارف لا دنيا له لأن دنياه آخرته، وآخرته ربه.

الزاهد جاء من الدنيا إلى الآخرة، والعارف جاء من الآخرة إلى الدنيا.

---

(١) الأنعام: ٨٢.

قال عبد العزيز[1] بن أحمد الديريني (ت ٦٩٤هـ):[2]

إلهي، عرّفتنا بربوبيتك، وغرّقتنا في بحار نعمتك، ودعوتنا إلى دار قدسك، ونعّمتنا بذكرك وأنسك.

إلهي، إنّ ظُلمة ظُلمنا لأنفسنا قد عمّت، وبحار الغفلة على قلوبنا قد طمّت، فالعجز شامل، والحصر حاصل، والتسليم أسلم، وأنت بالحال أعلم.

إلهي، ما عصيناك جهلاً بعقابك، ولا تعرّضنّا لعذابك، ولكن سوّلت لنا نفوسنا، وأعانتنا شقوتنا، وغرّنا سترك علينا، وأطمعنا في عفوك بِرّك بنا، فالآن من عذابك من يستنقذنا؟ وبحبل من نعتصم إن قطعت حبلك عنا؟ واخجلتنا من الوقوف غدًا بين يديك، وافضيحتنا إذا عُرضت أعمالنا القبيحة عليك، اللهم اغفر ما علمت، ولا تهتك ما سترت.

إلهي، إنّ كُنّا عصيناك بجهل فقد دعوناك بعقل، حيث علمنا أنّ لنا ربًّا يغفر الذنوب ولا يبالي.

الأدعية:

دعاء ومناجاة لابن عطاء الله الإسكندري:[3]

إلهي أنا الفقير في غناي فكيف لا أكون فقيرًا في فقري؟!

إلهي أنا المجهول في علمي فكيف لا أكون جهولًا في جهلي؟!

إلهي إن اختلاف تدبيرك، وسرعة حلول مقاديرك، منعا عبادك العارفين بك عن السكون إلى عطاء، واليأس منك في بلاء.

---

(١) عبد العزيز بن أحمد بن سعيد الديريني (ت ٦٩٩هـ)، شذرات الذهب ٥/٤٥٠.

(٢) السبكي: طبقات الشافعية الكبرى ٨/٢٠٠.

(٣) شرح الحكم العطائية: الشرنوبي، ١٩٥ وما بعدها.

إلهي مني ما يليق بلؤمي، ومنك ما يليق بكرمك.

إلهي وصفت نفسك باللطف والرأفة بي قبل وجود ضعفي، أفتمنعني منهما بعد وجود ضعفي.

إلهي إن ظهرت المحاسن مني فبفضلك، ولك المنّة عليّ، وإن ظهرت المساوي مني فبعدلك، ولك الحجة عليّ.

إلهي كيف تكلني إلى نفسي وقد توكلتَ لي؟ وكيف أضام وأنت الناصر لي؟ أم كيف أخيب وأنت الحفي بي؟

ها أنا أتوسل إليك بفقري إليك، وكيف أتوسل إليك بما هو عليك؟ أم كيف أترجم لك بمقالي وهو منك برز إليك؟ أم كيف تخيب آمالي وهي قد وفدت إليك؟ أم كيف لا تحسن أحوالي وبك قامت إليك؟

إلهي ما ألطفك بي مع عظيم جهلي، وما أرحمك بي مع قبيح فعلي!

إلهي ما أقربك مني، وما أبعدني عنك.

إلهي ما أرأفك بي! فما الذي يحجبني عنك؟

إلهي قد علمت باختلاف الآثار وتنقلات الأطوار، أن مرادك أن تتعرّف إليّ في كل شيء، حتى لا أجهلك في شيء.

إلهي هذا ذلي ظاهر بين يديك، وهذا حالي لا يخفى عليك، منك أطلب الوصول إليك وبك أستدل عليك، فاهدني بنورك إليك، وأقمني بصدق العبودية بين يديك.

إلهي! حققني بحقائق أهل القرب، واسلك بي مسالك أهل الجذب.

إلهي! أغنني بتدبيرك عن تدبيري، وباختيارك لي عن اختياري، وأوقفني على مراكز اضطراري.

بك أستنصر فانصرني، وعليك أتوكل فلا تكلني، وإياك أسأل فلا تخيبني، وفي فضلك أرغب فلا تحرمني، ولجنابك أنتسب فلا تبعدني، وببابك أقف فلا تطردني.

إلهي! اطلبني برحمتك حتى أصل إليك، واجذبني بمنك حتى أقبل عليك.

إلهي! كيف أخيب وأنت أملي، أم كيف أهان وعليك متكلي؟

إلهي! كيف أستعز وأنت في الذلة أركزتني، أم كيف لا أستعز وإليك نسبتني؟ أم كيف لا أفتقر وأنت الذي في الفقر أقمتني، أم كيف أفتقر وأنت الذي الذي بجودك أغنيتني؟

أنت الذي لا إله غيرك، تعرفت لكل شيء فما جهلك شيء، وأنت الذي تعرفت إليّ في كل شيء، فرأيتك ظاهرًا في كل شيء، فأنت الظاهر لكل شيء.

يا من استوى برحمانيته على عرشه فصار العرش غيبًا في رحمانيته، كما صارت العوالم غيبًا في عرشه، محقت الآثار بالآثار، ومحوت الأغيار بمحيطات أفلاك الأنوار.

يا من احتجب في سرادقات عزه عن أن تدركه الأبصار، يا من تجلى بكمال بهائه فتحققت بعظمته الأسرار، كيف تخفى وأنت الظاهر، أم كيف تغيب وأنت الرقيب الحاضر؟ والله الموفق وبه أستعين.

من ادعيته: (١)

- يا الله يا نور يا حق يا مُبين: أحيي قلبي بنورك، وأقمني بشهودك، وعرّفني الطريق إليك.

---

(١) ابن عطاء الإسكندري: لطائف المنن: ٢٥١.

- رب اغفر لي واجعلني لك عبدًا ذائب النفس بأنوارك، مطموس الحس بجلالك، واغفر لي وللمؤمنين والمؤمنات.
- إلهي، كيف يصل إليك من طلبك؟ أم كيف يفوتك من هرب منك؟ فاطلبني برحمتك ولا تطلبني بنقمتك، يا عزيز يا منتقم، إنك على كل شيء قدير.

من حزب أبي العباس المرسي[1]:[2]

اللهم إنا نسألك الخوف منك والرجاء فيك والمحبة لك والشوق إليك،والأنس بك والرضا عنك، والطاعة لأمرك على بساط مشاهدتك، ناظرين منك إليك، وناطقين بك عنك، لا إله إلا أنت، سبحانك، ربنا ظلمنا أنفسنا وقد ثُبنا إليك قولًا وعقدًا، فتُب علينا جودًا وعطفًا، واستعملنا بعمل ترضاه، وأصلح لنا في ذرياتنا، وإنا تُبنا إليك وإنا من المسلمين.

---

(١) توفي (٦٨٦هـ)، الوافي بالوفيات ٢٤٧/٧.

(٢) ابن عطاء الإسكندري: لطائف المنن: ٢٥٧.

استمر فن المقامات على الشكل الذي عرف به عند الهمذاني والحريري، فتابعه بعض أدباء العصر المملوكي ووفروا عناصره من حكاية وكدية وفكاهة، وبطل وراو، وغاية تعليمية أدبية، وأسلوب متصنع، وانحرف عنه بعض الأدباء فأسقطوا بعض هذه العناصر، ووصل الأمر إلى إسقاطها كلها، فلم يبق سوى ملامح الأسلوب والاسم فقط، فجعلت لذكر حادثة معينة، أو استخدمت لذكر أغراض الشعر وموضوعاته.

نوعا المقامات:

١- المتابعة: حاول بعض أدباء العصر المملوكي مجاراة رائدي المقامات في بنائها وأسلوبها ومحتواها، فهي توفر للأديب فرصة لإظهار إبداعه في الصنعة البديعية وثقافته ومقدرته على استخدام الموروث الثقافي في مقاصده، وتقدم للقارئ مادة لغوية وأدبية، وفكاهة وتسلية.

واقتربت بعض النصوص الأدبية من المقامات، وإن لم يطلق عليها أصحابها اسم مقامة ففيها عناصر المقامة كلها إضافة إلى تضمينها شيئًا من أحوال عصرهم وظواهره لتتم به الفائدة، ولتكون المقامة نصًا أدبيًا ممتعًا ومفيدًا، تابعوا فيه القدماء واستجابوا لمستجدات عصرهم.

٢- المفارقة: ابتعد معظم أدباء العصر المملوكي عن مقومات المقامة المعروفة ابتعادًا متفاوتًا، فمنهم من ظلت ملامح المقامة الأساسية ظاهرة عنده، ولكنه غير الهدف من المقامة، فتناول بعض ظواهر عصره وانتقدها، ومنهم من خرج بالمقامة عن صورتها المعروفة، وجعلها كالرسالة يبسط فيها المسائل العلمية أو يجعلها مفاخرة بين متناظرين، ومنهم من جعلها لتأريخ حادثة محددة، أو لتسجيل واقعة ذاتية، لأن ما يريد إيصاله إلى الناس يشتمل على حادثة

وموقف ذاتي، وإظهار براعته الأدبية، ووصلت المقامة إلى مزاحمة الشعر على أغراضه، فاشتملت على الوصف والمدح وغير ذلك.

ولم يقتصر فن المقامات على الاتجاهين السابقين، المتابع لأصول الفن، والمفرّط بهذه الأصول، بل تطور باتجاه فنون جديدة، وكان الأساس الذي بُنيت عليه أشكال نثرية جديدة، وقد سارت المقامات في اتجاهين جديدين، الأول وصل بالمقامة إلى الفن المسرحي، والثاني ذهب بها إلى الحكاية والقصة، فالمقامة تحتوي القصة والحدث والحوار ووصف الشخصيات، ونقدًا اجتماعيًا ساخرًا، ولذلك تعد تربة صالحة لاستنبات فنون جديدة، مثل القصة والمسرح.

المقامة الجيزية لابن سودون:(١)

قال كنيج بن مهلان: جُزت يومًا بالجيزة، والظل قد وجب، والجو منه قد احتجب، مع فتية من الرفاق، قد صفوا من كدر الفراق، واستراحوا من تعب المعيشة، وقطعوا أوقاتهم بوصل الحشيشة، وكانوا قد جعلوني في أمورهم بمنزلة أميرهم، لا يعصون لي أمرًا، ولو جئت شيئًا إمرًا(٢)، وأنا مع ذلك لا أقطع أمرًا دونهم، وإن أحسنوا برأيي ظنونهم، فقلت: يا قوم، أين تقيمون اليوم؟ فقالوا أنت المشير والمرتضى فيما به تشير، فقلت: إني أجلت النواظر في المناظر، وقد مالت الخواطر إلى القناطر. فقالوا: إن رأيك قد أصاب وقد رأيت بالصواب، فسرنا نطوي الطرق بنشر الحديث، ونقصد بالسير الهوينى دون الحثيث، حتى وصلنا إلى مانها وحصلنا بفنائها، فأطلع كل واحد نُزله من كُمّه، وقدمه بين

---

(١) ابن سودون: نزهة النفوس: ١٩٧.

(٢) باطل وسيئ.

يديه لتأخير همّه، ثمّ تبوّأ مقعده، وقعد ليُنزله وأقعده، وجلس يستحلي تلك الندوة، ويستجلي عليها بذوه[1].

فبينا نحن ننسرح وننسرج[2] ، والبسط في طي ذلك يندرج، إذا نزلت بناسبته[3] ، أنزلت بنا سكته، ودب النعاس علينا كالليل إذا عسعس، حتى صار أيقظنا منا أنعس، وكلما ألمّ بنا الهجوع، ألم قلوينا الجوع، وعلا فقدُ الطعام على وجود المنام، فقُمنا في التماس الشبع، ونستمسك بحبال الطمع، وإذا برجل قد نصب قدره على كوانينه، ورفع اللحم إليها بعد كسره بقوانينه، وهو يُلوّح مقاليه، ويفوّح نقاليه، فصحت: الرجعة الرجعة والنجعة النجعة، فعطفوا إليّ طائعين، وعكفوا عليه طامعين، ثم راودناه فيما يسدّ الرمق، وإن لم يكن من اللحم كان من المرق، فقال لأصحابي ولي: مه، فإن الطعام طعام وليمة، وإنما أنا رجل أجير، لا ولاء لي على قليل أو كثير، إلا أن صاحب الطعام من أبناء الكرام، يصنع كل عام هذه الضيافة، وكل من أتاه اليوم أضافه، لا يردّ عن ضيافته من عليه يرد، بل ينتدب لواجب حقه ويجتهد.

فانثنينا إليه، وكلٌّ قد طمع في الكرامه، وأن ينال من تلك الأطعمة مرامه، وخصصناه بالتحية إذ وصلنا إليه وقصصنا مقالة الطبخ عليه، فلما سمع ذلك منا قال: إن الطباخ لصادق في المقال، إلا أننا خصصنا هذا العام، لمن خاض في بحار العلوم وعام، حتى عرف لم تُقطت عين المغرفة دون عين المعرفة، وجيم المجرفة دون حاء المحرفة؟ فمن عرف ذلك أطعمناه، وفيما يحب أطمعناه.

---

(١) ما أظهره.

(٢) من قولهم سرّجه، بهّجه وحسّنه.

(٣) من السبات: النوم.

فتوافق أصحابي عن الجواب، وقالوا: الله أعلم بالصواب، لأنهم من قلّة الأكل وكثرة الخطأ، صاروا لا يدرون الصواب من الخطأ، ثمّ تأخروا وقدموني عند ذلك، لأوسع بالجواب ما ضاق بهم من المسالك. فقلت: يا قوم، إن هذه المسألة كما علمت لمُشكلة، ولكني بعون الله المجيب أستعين، وعنها أجيب، فأقول: إن المعرفة تسقط عند الاعتراف، وكذلك تفعل المجرفة عند الاجتراف، ومن جرف وغرف، وجرّب ما قلته عرف، فلما نقّطا نقّطا، والدهر كما فعلا بهما فعل، إذ الجزاء فيه من جنس العمل.

فقال صاحب الوليمة: لقد أصبت في الجواب وأجبت بالصواب، ولعمري إنك ممن يُكرَم، ويُطعم ولا يُحرم، من يكن لك احترم لقد اجتراً عليك واجترم، ثم أمر برفع الزيادي، فاحلولقوا حول الموائد، واحدودقوا بها على العوائد، وجلسوا لتلك الأطعمة ينظرون، والإذن من صاحبها ينتظرون، وقد أبطأ الذوق، وأسرع الشوق، فقلت: يا قوم، إن للتأخير آفات، وكم خير به قد فات، وإذا ظفرتم بطعام من أولم، أذن لكم فيه أولم، فاستصوبوا مقالي، وصوبوا نحو المقالي، وبدؤوا بالمشويات والأعاجيج، والمحمّرات من الأدججة والفراريج، ثم حالوا على التواني وجالوا على الأواني، فلما انتهينا من أكل ما اشتهينا، قلت: يا قوم إذا طعمتم فانحشروا وإذا طعمتم فانتشروا.

فانبثوا كالجراد منتشرين، وانثنى كل واحد ثانيًا على يومه، يؤمّل عوده ثانيًا ولو في نومه، وجاد كل عن خليله، وماد إلى حال سبيله.

وضع شرف بن أسد المصري[1] حكاية، هي: [2]

---

(١) شرف بن أسد المصري، أديب شاعر (ت ٧٣٨هـ)، فوات الوفيات ٢/١٠٠.

(٢) ابن شاكر الكتبي: فوات الوفيات ٢/١٠٢.

اجتاز بعض النحاة ببعض الأساكفة، فقال له: أبيت اللعن واللعن بأباك، ورحم الله أمك وأباك، وهذه تحية العرب في الجاهلية قبل الإسلام ولكن عليك أفضل السلام والسلام والسلام، ومثلك من يُعز ويكرم.

قرأت القرآن والتيسير والعنوان والمقامات الحريرية، والدرة الألفية، وكشاف الزمخشري، وتاريخ الطبري، وشرح اللغة والعربية على سيبويه ونفطويه، والحسن بن خالويه، والقاسم بن كميل، والنضر بن شميل.

وقد دعتني الضرورة إليك، وتمثلت بين يديك، لعلك تتحفني من بعض حكمتك، وحسن صنعتك، بنعل يقيني الحر، ويدفع عني الشر، وأعرب لك عن اسمه حقيقا لأتخذك رفيقا فيه لغات مؤتلفة: على لسان الجمهور مختلفة، ففي الناس من كناه بالمداس، وفي عامة الأمم من لقبه بالقدم، وأهل شهرتوزه سموه بالسارموزه، وإني أخاطبك بلغات هؤلاء القوم، ولا إثم علي في ذلك ولا لوم، والثالثة به أولى، وأسألك أيها المولى، أن تتحفني بسارموزه، أنعم من الموزة، أقوى من الصوان، وأطول عمرًا من الزمان، خالية البواشي، مطبقة الحواشي، لا يتغير عليّ وشيها، ولا يروعني مشيها، لا تنقلب إن وطئتُ بها جروفا، ولا تنفلت إن طحتُ بها مكانًا مخسوفا، لا تتلوّق من أجلي، ولا يؤلمها ثقلي، ولا تتمزق من زحلي، ولا تتعوّج ولا تتلقوج، ولا تتبعج ولا تنفلج، ولا تقب تحت الرجل، ولا تلزق بخُبز الفجل، ظاهرها كالزعفران، وباطنها كشقائق النعمان، أخف من ريشة الطير، شديدة البأس على السير، طويلة الكعاب، عالية الأجناب، لا يلحق بها التراب، ولا يغرقها ماء السحاب، تصرّ صرير الباب، وتلمع كالسراب، وأديمها من غير جراب، جلدها من خالص جلود المعز، ما لبسها ذليل إلا افتخر بها وعز، مخروزة كخرز الخردفوش، وهي أخف من المنفوش، مسمّرة بالحديد

ممنطقة، تابتة في الأرض الزلقة، نعلها من جلد الأفيلة الخمير لا الفطير، ونكون بالنزر الحقير.

فلما أمسك النحوي من كلامه، وثب الإسكافي على أقدامه، وتمشى وتبختر، وأطرق ساعة وتفكر، وتشدد وتشمّر، وتحرّج وتنمر، ودخل حانوته وخرج، وقد داخله الحنق والحرج، فقال له النحوي: جئت بما طلبته؟ قال: لا، بل بجواب ما قلته، فقال: قل وأوجز، وسجّع ورجّز، فقال: أخبرك أيها النحوي أن البشر سابخروي شطبطاب المتفرقل، والمتقبقب من جانب الشر شنكل، والديوك تصهل كنهيق زفازيق الصولجانات، والحرفرف الفرياح ببيض القرنطق... أدعوك في الوليمة: يا نيس، تش يا حمار يا بهيمة، أعيذك بالزحواح، وأبخرك بحصى لبان المستراح، وأرقيك برقوات مرقات قرقرات البطون، لتخلص من داء البرسام والجنون.

ونزل من دكانه، مستغيثًا بجيرانه، وقبض لحية النحوي بكفيه، وخنقه بإصبعيه، حتى خرّ مغشيًا عليه، وبربر في وجهه وزمجر، ونأى بجانبه واستكبر، وشخر ونخر، وتقدم وتأخر، فقال النحوي: الله أكبر الله أكبر، ويلك ما هذا العُفان[1]؟ قال: من ذلك الهذيان. والسلام.

المقامة الصوفية لابن الوردي: [2]

حكى لي إنسان من معرة النعمان، قال: سافرت إلى القدس الشريف، سفر مُنكر بعد التعريف، فاجتزت في الطريق بوادٍ وقالا لفحة الرمضاء، وقال: حكمت على الوادي الذي تروع حصاه حالية العذارى بأنه دوني، فقلنا: دائم الحكم والإمضاء، وإذا فيه عين كعين الخنساء تجري على صخر، ويقول ماؤها: أنا

---

(١) العُفان: ضعف الرأي والعقل.

(٢) ديوان ابن الوردي: ١٩

سبد مياه هذا الوادي ولا فخر، فرويت كبد صادٍ من تلك العين، ولكن نغّص عليّ منظرها الحسن تذكر ظمأ الحسين، هذا وماؤها يجري على رأسه خدمة للوارد، ويطوف بنفسه ﴿سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ﴾[1]، فأسبغت منه وضوئي، إسباغ الدروع، وصليت ركعتين فرّقت فيهما سهام دعاء من قسي ركوع، وسألت الله سبحانه حُسن مُنقلبي، ورجوت منه أن يعوّضني عن تعبي، بصحبة من يدلّني عليه، ورؤية من يقرّبني منه إليه، فأجيبت دعوتي في الحال، والتفتّ فإذا عشرة رجال، ومن جملتهم شيخ كبير السن والقدر، وقد أحاطوا به إحاطة الهالة بالبدر، فقلت لهم: مرحبًا بحاضرة جلالتهم بادية، وسُقيًا لمن تلقيت صحبتهم من عين صافية، يا ذوي الجمال والزين، من أين وإلى أين؟ قالوا: منه وإليه، ثقة به وتوكلًا عليه، ثم خاضوا في بحث يُسرّونه مني، ومناظرة يخفونها عني، بلفظ ألطف من النسيم، ومعنى ﴿مِزَاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ﴾[2]، وأطالوا في الجدال، وأنا لا أعلم حقيقة الحال، فلحظهم الشيخ شزرا، ونظر إليهم تارة وإليّ أخرى، وقال: إما أن تكفوا عن حديثكم، وإما أن تطلعوا أخاكم الآخر على أول بحثكم، فتنبهوا إليّ، وأقبلوا عليّ، وقالوا أيها الأخ، إن بحثنا الدقيق في طريق هي السر المكتوم، وغوصنا العميق في منهاج هو مفتاح العلوم، وما ذلك بطريق جُنيدها أعظم من الملوك، وأدهمها[3] وابنه غير مصروفين لنظمها في سلوك الحُسن، بحُسن السلوك، وأهلها هم أهل الكرم الصيّب، وذلها يُنبت العز، وكل مكان ينبت العزّ طيب.

ذمّ المنازل بعد منزلة اللوى ... والعيش بعد أولئك الأقوام

---

(١) الحج: ٢٥.

(٢) المطففين: ٢٧

(٣) الجنيد وإبراهيم بن أدهم من أعلام التصوف.

فكم منكر صار فيها معروفًا بالإيثار، وكم مالك أصبح معروفا بحُسنها عن دينار:

كم أسد روّع بالشّبل ... فيها وحافٍ فاق ذا نعل

وكم سريّ بحزه زاخرٌ ... وكم فضيل فاز بالفضل[1]

قلت: قد وعيت على رمزكم، وانتهيت إلى كنزكم، فزيدوني إيضاحا، زادكم الله صلاحا، قالوا: نحن- أيتها العصبة- لنا في التصوف رغبة، وجدالنا - معاشر الرفقة- في لفظة التصوف، ممّ هي مشتقة؟ وماذا شرط الصوفي المصافي؟ وإلى الآن ما تحرر لنا في ذلك جواب شاف.

قال الشيخ: على الخبير سقطتم، وبجهينة[2] الخبر أحطتم، ولكنكم ما التفتم أولًا إليّ، ولا عوّلتم في ذلك عليّ، قالوا: مثلك لا يبخل بإفادتنا، وأنت عودتنا المسامحة في المطارحة، فاصبر لعادتنا، قال: سمعًا وطاعة، واعلموا أيتها الجماعة، أنّ اشتقاق التصوف عند أهل التعريف والتعرف من الصفا والوفا والفنا، هذا من حيث عبارة الناطق، وأما اشتقاقه من حيث الحقائق، فمن أربعة أشياء، تُحيي الأسرار، وتسر الأحياء، الأول: من الصوفانة، وهي بقلة قصيرة ذات زغبة، والثاني: من صوفة، قبيلة كانت تُجيز الحاج وتخدم الكعبة، الثالث: من صوفة القفا، شعرات في قفا الإنسان، الرابع: من الصوف الغني عن البيان، وإذ قد أصغيتم لبياني، فسأتي بالبديع في شرح هذه المعاني، إن أخذ التصوف من الصوفانة التي هي البقلة، فلأن القوم اجتزؤوا في الجملة، فاقتصروا على ما يوجد الله تعالى بصُنعه من رزقه، ويمنّ به على عُبّاده من غير تكلّف فيه من خلقه، فاكتفوا به عمّا فيه للبشر صنع، فلم يبسطهم إليهم عطاء، ولا قبضهم عنه

---

(١) الشبلي والحافي والسري وفضيل، من أعلام الصلاح والزهد.

(٢) بريد المثل: وعند جهينة الخبر اليقين.

منع، كما شاع عن المجاهدين من المهاجرين، ونبّه عليه سيد الأولين والآخرين صلّى الله عليه وسلم، وشرّف وأكرم، وإن أخذ من الصوفة، وهي القبيلة المعروفة، فلأنّ الصوفي متزود من القربات والطاعات، محاسب نفسه على الدقائق والساعات، فإن أخذ أعلام الهدى، طاب خبره لطيب المبتدأ، وإن أخذ من صوفة القفا، فحسبكم بيانا وكفى، إن الصوفي معطوف إلى الحق، مصروف به عن الخلق، لا يريد به بدلا، ولا يبغي عنه حولا، وإن أخذ من الصوف المعروف، فلأن الصوفي يلبسه موصوف، اختار في الدنيا لبسه، وكسر بذلته وبذلته نفسه، نداء منه على لابس الحرير بالرعونة والبله، وإنما يلبس الحرير في الدنيا من لا خلاق له.

هذا بيان الاشتقاق، وأما شرط الصوفي باستحقاق، فأن يتخلّق بأخلاق الرسول، ويفوز من سؤل رياضاته بالشمول، ويتنكب عمّا عنه نكب، ويأخذ بما إليه ندب، ولا يتخذ محرّمه ربيعه، ولا يجري كالعاصي الذي يزيد إعراضه عن الشريعة، فقد صفا من الكدر، ونجّي عن العكر، ونجّي من الغير، ومن عدل عن سمته ونهجه، وعوّل على حكم نفسه وهرجه، وسعى لبطنه وفرجه، كان من التصوف خاليا، وفي التجاهل ساعيا، ومن داخله في ذلك مِرْية، فقد عُطّل عما ذكره الحافظ في الحلية[1].

قال الحاكي: فلما سمعت ما قاله هذا الشيخ الجليل، أكبرته وبادرت له في التبجيل، وقلت: يا سيدي، لي زمان أحرص على مثلك، فما ظفرت به من قبلك، فتمم العطا وإكشف الغطا عن أشياء تعانيها متصوفة الوقت، وبيّن لي منها ما يستحق المقة من المقت، قال: سل عمّا تريد، قلت: أول بيت في القصيد، لِمَ حلقوا الرؤوس وقصروا الثياب؟ فقال: موافقة لما في الكتاب، وهم في ذلك

---

(١) حلية الأولياء للحافظ أحمد بن عبد الله بن أحمد، أبو نعيم الأصبهاني (ت ٤٣٠هـ).

كالمذكرين أن من كان إلى العلى من المحلقين، فليعترف أنه من المقصرين.

قلت: فلم تركوا النعال ولبسوا الجماجم؟ قال: شيء أحدثته الأعاجم.

وأقسم ما ذاك منهم سُدى فأفهامهم فوق أفهامنا

ولو قلت: ما سرّ ذا أنشدوا جماجمنا تحت أقدامنا

قلت: فلم تختّموا بالعقيق؟ قال: فيه منافع وخواص هو بها حقيق، فإن خاتمه يُسكن حدة الغضب، ولمنع النزيف هو سبب، وسحالته لتآكل الأسنان، ولوجع القلب، وقروح أمعاء الإنسان، ومما ذكر عنه وقيل: إن خاتمه لم يوجد في إصبع قتيل، وما أحسن استخدام بعضهم فيه: "عج بالعقيق فمدمعي يحكيه"

قلت: فلم رقصوا في السماع؟ قال: فيه لذة واجتماع، ولهم فيه أسرار، لا يطلع عليها الأشرار، فهو كالفُخيخ أو كالشبكة في يد الشيخ المتصنع، يصيد به القوت، والصادق يصيد به الرئوت[1]، والمبادرة إلى تحريمه من الجمود والقصور، وهو رأي من لا له بالشعر شعور، ولا فهم المنظوم، ولا شمّ رائحة المنثور، ولقد رأينا المعتمدين من علماء الدين لا يطلقون القول فيه بمنع ولا جواز، ولا يحملون الفتوى في عراق ولا حجاز، بل الفتوى المعتمدة التي القلب إليها ساكن، أن الأمر في السماع يختلف باختلاف الأشخاص والأحوال والأماكن.

كانوا معاني المغاني حين ينشدهم شادٍ بجاويه حُسْنٌ وإحسانُ

ما أنت حين تغنّي في منازلهم إلا نسيم الصبا والقوم أغصان

قلت: فلِمَ يجلسون الوارد على باب الرباط، ولا يتلقونه أولا بالرحب والانبساط؟

---

(١) الرؤساء.

قال: لأنه بطارئ السفر، قد تهجّن طبعه ونفر، فأرادوا بذلك رياضة نفسه، ولينسى عشرة غير أبناء جنسه، ويبني النفس كهؤلاء على الكسر، وينصره الله تعالى على شيطانه، ﴿وَمَا النَّصْرُ﴾[1]، قلت: فلِمَ شرطوا عليه تغيير هيئة السفر قبل الدخول؟ قال: لأنها هيئة مذكرة بالوصول.

فيا لها من هيئة تُنسي الخلاف والطّرب
تغييرها رياضة تعرب عن أصل الأدب

على أنه في هذا الوقوف، ينشد من قلب عروف:

وقوفي على بابهم رفعة ويا طول طردي إن لم أقف
ولو لم تكن لي فرعيّة إليهم بأصل لقالوا: انصرف

قلت: فما معنى توجيه أباريقهم للقبلة؟ قال: هي صورة عبادة في الجملة، وفي المثل الغريب، أباريق الصوفية محاريب... قلت: فلم وضع ساقيهم إبهام رجله اليمنى، على إبهام رجله اليسرى؟ قال: فرقًا بين خدمة الخالق والمخلوق وذكرى، ففي الصلاة يصفّ قدميه، وفي خدمة القوم يفعل ما أشرت إليه، وعلى الحقيقة فالصوفي لا إبهام لفضله، ولا سبّابة للوسطى من سيرة مثله. قلت: فلِمَ طوى الخادم للوارد إذا أتاه الطرف الأيسر الأدنى من مصلّاه؟ قال:

ليدوس المطويّ بيمناه، وينقل إلى جانبها يسراه، ثم ينقل اليمنى نقلًا، ويصفّ اليسرى معها في المصلى، فقد كرّموا في هذه الهيئة اليمين، وتميز بها عنهم من يمين، وانقوا بلل الوضوء بالبطانة، توريةً إلى أنّ الوجه أحقّ بالصيانة، وسأدلك على قاعدة يحصل بها من أفعالهم كمال الفائدة، كلما فارقوا

---

(١) الأنفال: ١٠.

فيه بقية الناس من الفوائد والسمت واللباس، فليمتازوا به عن سواهم، فتبارك الذي خلقهم فسوّاهم.

ثم إن الشيخ سالت عبرته، وتوالت حمرته، وغلبه الحال، فأنشد على الارتجال:

ذهب الصّدق وإخلاص العمل ... ما بقي إلا رياء وكسل

قال الحاكي: فما زادني ما سمعت من فيه إلا إعظاما له وحُبّا فيه، فازداد تألما، وأنشد مترنما:

يا صاح حقّ لك التخوّف ... وقلّة السعي والتطوّف

لا تقرنْ بعدها رباطا ... قد خُرّقت خرقة التصوف

قلت: هيهات هيهات، هذا المحوّ عين الإثبات، وقد كانت الصوفية أحبّ الخلق إلى الرحمن، والأصل بقاء ما كان على ما كان، وللعارف هضم نفسه، مخافة طرده وعكسه.

قال: بالله لقد صدقتك في متصوفة العصر، ونصحتك في جمع السنتهم، ﴿تَزِمي بِشَزرٍ كَالْقَشْرِ﴾[1]، فإن المتصوّفة اليوم، أصحاب أكل وشرب ونوم، يروون الأقوال ولا يتبعون الأفعال، وافقوا القوم ملبسا، وخالفوا أنفسا، يدّعون ما ليسوا من رجاله، يُخيّرون الشخص بين عرضه وماله، يحبون الجاه والشهرة، ويؤملون برد النعيم على فترة.

قال الشيخ: كم ندفعك فلا تندفع، ونقطعك فلا تنقطع، الآن أعجبنا صدقك، ووجب علينا حقك.

هكذا كُنْ محبّة واحتفالا ... واعص فينا الوشاة والعذّالا

---

(١) المرسلات: ٣٢.

قال الحاكي: فأطربني هذا الكلام المطرب، وما ضمنه من شعر أبي الطيب، ثم صافحوني للوداع ﴿بِأَيْدِي سَفَرَةٍ كِرَامٍ بَرَرَةٍ﴾[1]، تلك عشرة كاملة، فسلام الله على العشرة.

من مقامة لمحيي الدين بن عبد الظاهر يصف رحلة من الشام إلى مصر: [2]

حكى مسافر بن سيّار قال: لمّا ألفت النوى عن الإخوان، تساوت عندي الرحلة إلى البين تساوي الرحلة إلى الأوطان، وتمادت الغربة تحبوني أهوالها، فتزلزل بي الأرض زلزالها، وتخرج مني ومن أمثالي أثقالها، وإذا بداعي النفير قد أعلن مناديه، وارتجل ما ارتجز حاديه، فقلت : المسير إلى أين ؟ قالوا: إلى الأين. والسفر متى ؟ فقيل : أتى:

وما دار فيما بيننا أين نبلنا يكون ولكن الزمان غبون

فعقدنا الحُبا وجنبنا الجنايب وركبنا الصبا، وتسلّمتنا من يد الربوة يد الوهاد والربا، وكان توجّهنا حين أكثرت الجبال من الثلوج الاكتساء والاكتساب، وبفصل فتحت فيه السماء أبوابها بما ليس لفصوله عن تلك المواطن من فصول، ولا لأكوابه المترعة دائمًا بجميع الفصول من بوّاب... واستقبلتنا تلك النواحي المتناوحة والمنازل المتنائية على المنازل المتنازحة، برقة جلود تتجالد على الجليد، وأوجه تواجه من تلك الجهات ما ورود حياض المنون به أقرب من حبل الوريد، كم التفت الشمس بفارة[3] من قرّها بفروة سنجاب من الغمام، وكم غمضت عينها عمن لم يغمض جفونه بمُناخ ولا مُقام، وكم سبكت الرياح

---

(١) عبس: ١٥.

(٢) الصفدي: الوافي بالوفيات ٢٦٢/١٧.

(٣) فارة بلدة شمال دمشق.

الزمهريرية فضة تلوجها فصخت عند السبك، وكم خبر من امرئ القيس أنشد عند النبك "قفا نبك" ... فدافعت الهضبات مُلاءتها البيضاء، وأتت من الإبلام ببردها بأضعاف ما يحصل من حرّ رمضاء حر رمضاء، فكم أناملَ بدٍ هنالك قعدت القرفصاء على الطروس واشتملت الصماء[1] اشتمال اليمين والشمال على النفيس من النفوس، وعجزت عن أن تُطيق للأقلام إمساكا، وكم من مُرملة[2] اشتبكت دموعها بخدودها فما تبين من بكى ممن تباكى، فلم نصل إلى حمص إلا والجليد قد أعدم الجليد صبره، وعبر تلك الأمكنة فجّرت له على أخدود تلك الخدود عبرة وأي عبرة... ودخلنا دمشق وإذا أغصانها قد ألقت عصاها وما استقر بها من الثمر والنوى وأوراقها قد اصفرت وجوهها من الهواء والهوى، وحمائمها لم تحتمل منّة الليالي فخلعت ما لها بالأعناق من الأطواق، والنهر قد توقف عن زيارة الغصون فراسلته بالأوراق فشمّرنا عنها ذيل الإقامة، وقلنا للعزم شأنك ومصر فإنها دار المقامة، فقطعنا بيدًا وأي بيد، ومنازل تمتعيد السيد وتمتعبر السيد[3]، ورمالا هي للأفاعي خدور وللنسور وكور ودخلنا مصر فتلقانا نيلها مصعّرًا خدّه للناس، وقلنا هذا الذي خرج إلينا عن المقياس، وشاهدنا ربوعها وقد فُرشت من الربيع بأحسن بُسطها، وبدت كل مقطّعة من النيل قد زُيّنت بما أبدته من قُرطها، وتنشّقنا رياحها الهابّة بما ترتاح إليه الأرواح، وشمنا بروق غمائمها التي لم تغادر في القلوب من القر قروحا لا تتعقبه، لما تُلقيه من الماء القراح ... لا تُغيّر على أهلها القوانين ولا يُحتاج إلى التدفّي في الكوانين بنيران الكوانين، كل أوقاتها سحر وأصالها بُكر، وطول زمانها ربيع لا يُشان من

---

(١) من قولهم: صخرة صماء: صلبة مصمتة.

(٢) مرملة: وعاء الرمل المعد لتنشيف الكتابة، يذري بها.

(٣) السيد الثانية: الذئب.

اللواقح الكوالح ببرد ولا يُشان من النوافح اللوافح بحر... فلما حصلنا هناك قالت النفس المطمئنة: هذه أول أرض مسّ جلدي ترابها، وهذه الجنة وهذا شرابها ...

المقامة الدمشقية المعروفة بصفو الرحيق في وصف الحريق لابن الوردي: [1]

حدّث غيث بن سحاب عن ندى بن بحر قال: بينما أنا ذات ليلة من سنة سبع مئة وأربعين، وقد أويت من دمشق ﴿إلى ربوة ذات قرار ومعين﴾[2]، وإذا بضجيج أهلها قد ملأ الآفاق، والنيران في أسافلها وأعاليها قد بلغت التخوم والطباق، فبادرت إلى الجامع الأموي لأمنه ويُمنه، فوجدت العالم كأنهم قطعة لحم في صحنه، وقد أرسل على أحاسن دمشق ﴿شواظ من نار ونحاس﴾[3]، وقربت النار من جامعها الخضر حتى كاد يحصل منه اليأس، وثارت النار لأخذ الثار، مسرفة في كلبها، وجاءت ﴿حمالة الحطب﴾[4]، فتبت يدا أبي لهبها.

حمراء ساطعة الذوائب في الدجى ترمي بكل شرارة كطراف

فتبادر إليها فتية قالوا: النار ولا العار، رزقهم الله الجنة ﴿فما أصبرهم على النار﴾[5]. هذا وقد ذوى باللهب بنفسج الظلماء، وشبّ ليذوفر النار وقوي على الماء، فارتاع النائب بدمشق لهذه النائبة، ورأى قلوب الناس كأموالهم ذائبة، وتطيّر بذلك من تكدّر دولته، فكان كما تطيّر، وتصوّر هنالك من تغيّر صولته، فسبحان من لا يتغيّر، وصادم النار فغلبها، وكيف لا وتنكز تفسيره البحر، وقابل كبد جمرها بالقطر، وعُنُقَ لظاها بالنحر، وكاثرها بالماء الذي بلغ من

---

(١) ديوان ابن الوردي: ١١٩.

(٢) المؤمنون: ٥٠.

(٣) الرحمن: ٣٥.

(٤) المسد: ٤.

(٥) البقرة: ١٧٥.

وجهين القُلل، وسدّ بمماليكه وأمرائه خلل هذا الأمر الجلل وأحكم بالماء والهدم إخماده، واستأصل شأفتها بالردم وأبادها، وأصبح أهل دمشق حيارى ﴿وترى الناس سكارى وما هم بسكارى﴾ [1]، ولا يكادون من الوجل يستثنون اسمها، ولا يعرفون حد حانوت ولا دار ولا رسمها.

فلو رأيت درج الساعات خالية من دقائق الأرصاد، ودكك الشهود تتلو ﴿إن ربك لبالمرصاد﴾[2]، والدهشة مدهوشًا عنها، واللبادين ﴿كالعهن المنفوش﴾[3] فلا إليها ولا منها... والوزاقين وقد انتظمت أوراقها في أغصان اللهب، وتطايرت الصحف كأنها فضة قد مستها ذهب... فيا لسوق الكُفت[4] ما كفّت النار عنه لسانا، ولا ثنت سوابقها عنه عنانا، ونعوذ بالله من نار علكت عليه اللجم، وسبكت مهجته حتى أفصح التأسف له الألسن العجم، ووثبت إليه من بعيد، وقالت: ﴿آتوني زُبر الحديد﴾[5]. ويا لسوق الخِيم كيف خيّمت عليه، وتجلّد لها والنار بين جنبيه، إنها عليه ﴿مؤصدة في عمد ممددة﴾[6]، فلولا اللطف ما مدّ لها طنب، ولا سلم لعروضه وتدٌ ولا سبب، ولكن تداركه من الماء والتراب برد وسلام، وشكت خيامه الظلماً فقيل لها: سُقيت الغيث أيتها الخيام، وبالسوق القسي كيف تبرأ منه قوس السحاب، وشُويت من قِسيّه كلُّ نون كانت تسبح في ماء الذهب فآلت إلى الذهاب، ورُمي بسهام من النيران وقالت له النار: قد

---

(١) الحج: ٢.

(٢) الفجر: ١٤.

(٣) القارعة: ٥.

(٤) الكفت: القدور الصغيرة.

(٥) الكهف: ٢٩.

(٦) الهمزة: ٩٩.

دخلت في باب (أنّ) من الأنين، وستدخل باب (كان)، فقد قست على قسيّك ناري وطلبتها بأوتاري...

فبينا الحنايا في المراقب من اللهب، وقلوب أصحابها في المعزّة وأعينهم في حلب، وإذا بالنائب قد أقبل، وصبره مقلّص ودمعه مسبل، وقال: واأسفا لمدينة عمرتها، ووالهفا لأوقاف ثمّرتها، كيف تصل النار إلى محاسنها وتتمكن من أماكنها؟ فقال له لسان القدر الصادع، هذه أول عقوبتك بإخراج الكلاب والضفادع، فالعُجب أخبث سجيه، وللكلاب -كما قيل- خطية...

ثم إن النائب بادر بأصحابه إلى إطفائها ولكن كيف، وأحكم نسخها ولا عجب في النسخ بآية السيف، وجاست ممالكه الحسان خلالها وأصداغهم كالعقارب وشعورهم كالأفاعي، وتمّت لهم الكرامة الأحمديّة باقتحامها فسلام الله على ابن الرفاعيّ[1]، وأشفق الناس من مسّ سقر، وبرحوا عزيز قوم ذل، وغني قوم افتقر، واختجلت الظنون في سبب هذا الأمر، وأعملت الفكر في مسعّر هذا الجمر، بغيظ أهم الصبح فتنفس الصعدا، وحُنق انفلق له الفجر زفيرا وكمدا.

مقامة الرياحين للسيوطي[2]:[3]

حدثنا الريان عن أبي الريحان، عن أبي الورد أبان، عن بلبل الأغصان، عن ناظر الإنسان عن كوكب البستان عن وابل الهتان، قال: مررت يومًا على حديقة، خضرة أنيقة، طلولها وديقة، وأغصانها وريقة، وكوكبها أبدى بريقه، ذات ألوان وأفنان، وأكمام وأكنان، وإذا بها أزرار الأنهار مجتمعة، وأنوار الأنوار

---

(١) أحمد بن علي بن أحمد صاحب الطريقة الرفاعية (ت ٥٧٨هـ)، وفيات الأعيان ١/١٧١.

(٢) الحافظ جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد الخضيري (ت ٩١١هـ)، شذرات الذهب ٨/٥٠.

(٣) مقامات السيوطي ١/٤٣١.

ملتمعة، وعلى منابر الأغصان أكابر الأزهار، والصُّبا تضرب على رؤوسها بأن الأوراق الخضر بالمزاهر، فقلت لبعض من عبر، ألا تحدثوني ما الخبر؟

فقال: إن عساكر الرياحين قد حضرت، وأزاهر البساتين قد نظرت لما نضرت واتفقت على عقد مجلس حافل، لاختيار من هو بالملك أحق وكافل، وها أكابر الأزهار قد صعدت المنابر، ليبدي كل حُجّته للناظر ويناظر من بين أهل المناظر في أنه أحق أن يُلحظ بالنواظر، من بين سائر الرياحين النواضر، بأن يتأمر على البوادي منها والحواضر، فجلست لأحضر فصل الخطاب، وأسمع لما يأتي به كل من فنون الحديث المستطاب، فهجم الورد بشوكته، ونجم من بين الرياحين معجبًا بإشراق صورته، وإفراق صولته، وقال:

بسم الله المعين، وبه نستعين، أنا الورد ملكُ الرياحين، والوارد منعشًا للأرواح ومتاعًا لها إلى حين، ونديم الخلفاء والسلاطين، والمرفوع أبدًا على الأسرّة لا أجلس على تراب ولا طين، والظاهر لوني الأحمر على أزهار البساتين، والأشرف من كل ريحان فخرا، لأني خُلقت من عرق المصطفى وجبريل والبراق ليلة الإسرا، والمظفر بقوة الشوكة والصولة، والمنصور على من ناوأني لأني صاحب الدولة والعادل في المزاج، والصالح في العلاج...

فقام النرجس على ساق، ورمى الورد منه بالأحداق، وقال: لقد تجاوزت الحد يا ورد، وزعمت أنك جمع في فرد، إن اعتقدت أن لك بحُمرتك فخرة فإنها منك فجرة، فقال النبي ﷺ: "إن الشيطان يُحب الحُمرة فإياكم والحُمرة، وكلّ ثوب ذي شهرة". وإن قلت: إنك النافع في العلاج، فكم لك في منهاج الطب من هاج، ألست الضار للمزكوم...

ولكن أنا القائم لله في الدياجي على ساقي، الساهر طول الليل في عبادة ربي فلا تطرف أحداقي، وأنا مع ذلك المُعد للحروب المدعو عند تزاحم

الكروب، ألا ترى وسطي لا يزال مشدّدا وسيفي لا يبرح مجردًا، وأنا فريد الزمان في المحاسن والإحسان، وأنا المشبّه بي عيون الملاح، والمعروف في مُهمّات الأدواء بالصلاح، أنفع غاية النفع من داء الثعلب والصرع...

Damascus University

تمثيليات ابن دانيال نصوص كتبها لتُعرض على شاشة خيال الظل بواسطة دمى من الجلد، وأصل هذا الفن الشرق الأقصى، الصين أو الهند، وكان معروفًا قبل العصر المملوكي، يمتهنه لاعبو خيال الظل، ويقدمون عروضه في الساحات العامة، وربما مالوا في عروضهم نحو المجون، ليستميلوا العامة إلى مسرحهم، فكانوا يتعرضون لنقمة الحكام وتحرق ستائرهم وشخوصهم وأدواتهم.

ليس واضحًا كيف اهتم ابن دانيال الشاعر الكحال بخيال الظل، وما دواعي تأليفه لتمثيلياته، ومن المؤكد أنه كان يحضر عروضه، وله علاقة بلاعبيه، لأنه أظهر معرفة بكل ما يتعلق بهذا الفن، وَحَدَتْه رغبة للمشاركة فيه، فألف له. وذكر في مقدمة تمثيلياته أنّ أحدهم تحدّاه في قدرته على تأليف تمثيليات خيال الظل، وأنه قبل هذا التحدي، فألف ثلاث تمثيليات ، هي طيف الخيال، وعجيب وغريب، والمتيم والضائع اليتيم، فكيف تسنى لابن دانيال تأليف هذه التمثيليات وهي أول نصوص مسرحية كاملة تصلنا من تراثنا الأدبي؟

لا بدّ أن ابن دانيال قد اطلع على النصوص التي كانت تمثل على ستارة خيال الظل، وأن هذه النصوص لم تكن تكتب، وكان اللاعبون يحفظونها، ويزيدون عليها قصدًا أو ارتجالًا في أثناء عروضهم وحسب ما تقتضي المواقف التي مروا بها، فوجد ابن دانيال أمامه الطريقة التي يتم فيها التأليف لهذا الفن، مع معرفته لاحتياجاته، فاتبعها في تأليف تمثيلياته، ووجد المقامات أقرب الفنون إلى مراده، فاستعان بها في التأليف، لأن تمثيلياته تحمل روح المقامة وأسلوبها وبعض موضوعاتها، فجمع بين المقامات والنصوص التي كانت تمثل، وبين احتياجات فن خيال الظل الذي يعرفه وخرج بهذه التمثيليات.

أما مضمون هذه التمثيليات، فلم يبحث عنه في التراث، ولم يستمده من الخيال، بل استقاه من الواقع، فكان يأخذ الحادثة أو الموقف من الواقع، ثم يمضي بها إلى الخيال، ليؤلّف فنًا مسرحيًا، يقبل عليه الناس، لأنه يحوي المتعة والفائدة، المتعة المتأتية من عرض ما يحبونه ويميلون إليه، والفائدة من انتقاد بعض أوضاع المجتمع، وتنبيه الناس على المظاهر الخاطئة فيه، وهكذا لاءم ابن دانيال بين العناصر الفنية والتراثية والواقعية في تمثيلياته، ولكن المؤسف أن هذه التمثيليات لم تصل إلينا نسختها الأصلية، وإنما نسخ كتبت بعد وقت طويل من وفاة صاحبها، فلحقها تزيّد وتحريف.

سميت التمثيلية آنذاك بابة والجمع بابات، وأقرب تفسير لكلمة بابة أنها آتية من كلمة باب، الجزء من الكتاب، وأنثت الكلمة، فكان العرض المسرحي يتألف من عدة أقسام أو أبواب، وكأن كل جزء من العرض باب من كتاب.

تروي تمثيلية طيف الخيال قصة زواج، يُخدع به الأمير وصال، فتُقدم له عروس أخرى غير التي وُصفت له، عجوز شمطاء، وحين لا يستطيع الانتقام من الخاطبة لسبق الموت عليها، يعزف عن الزواج، ويعتزم أداء فريضة الحج. وأدّيت البابة في حوار هزلي، فيه الف ن الشعبي والعبارات العامية، والمواقف المحرجة القائمة على التناقض بين ما هو كائن، وما يجب أن يكون، وبين ما هو متوقع وما هو حاصل، وفيها يجمع الشعر والنثر، والهزل والجد والحكمة والفحش.

بدا ابن دانيال عارفًا لفن العرض المسرحي، فوضع أغاني مسرحياته وألحانها، وحدد للاعب خيال الظل طريقة العرض وطريقة الأداء ووصف الشخصيات، وهذا يعني أنه أدرك طبيعة العرض المسرحي من معايشته للاعبي خيال الظل وتجربته معهم.

وأخذ ابن دانيال مضمون تمثلياته من مجتمعه، وقدم موضوع المحرمات والفواحش تقديمًا مقززًا، وكشف العيوب المستترة في المجتمع، التي يحظر الحديث عنها، فوضع الناس أمام عيوبهم ليتخلصوا منها.

البابة الثانية (عجيب وغريب) قدّم فيها ابن دانيال مكانًا عامًا يظهر فيه أفراد، كل منهم يمثل فئة أو حرفة، فأتى على سبعة وعشرين منهم، فضح فيها ألاعيب المكدين والمحتالين وكشف أسرارهم، وأوضح طرائقهم في الاستيلاء على أموال الناس، فعرّف الناس بها، وحذرهم منها.

فموضوع البابة الكدية والحيلة للرزق، وهو موضوع المقامات، وأسلوبها قريب من أسلوب المقامة، لكن أبطالها كثيرون وكأنها عدد من المقامات، وأسلوبها قريب من أسلوب المقامة، دُمجت وأخذت شكل الحوار لتناسب عرض خيال الظل المسرحي، وقد تمكن ابن دانيال من جمع المشاهد المتفرقة في نسق واحد، كأنه بنى (سيركًا) يتابع فيه النظارة ألعابه المتنوعة.

البابة الثالثة (المتيم والضائع اليتيم) تختلف عن سابقتيها في موضوعها، وتتناول ظاهرة الحب والهيام بالذكور، هي ظاهرة تفشت آنذاك، وقد امتلأت هذه البابة بالشعر المنحط والمواقف الجنسية وحالات العشق المرذولة، فكأن ابن دانيال أراد بهذه التمثيلية جلب المشاهدين، وكشف الجانب المستتر في المجتمع لينفر الناس منه، ويدفعهم إلى مقاومته، فوضع المجتمع أمام أمراضه وانحرافاته، لأن سترها والسكوت عنها يتيح لها الاستمرار والاستفحال، وأظهر سوء عاقبة المنغمسين بهذه المحرمات.

وهذه التمثيليات ريادة صعبة، ولولا ذكاء ابن دانيال وثقافته وملاحظاته الدقيقة، لما استطاع فعل ذلك فقد جمع الملامح التراثية المتشابهة، والعروض البدائية لخيال الظل ومظاهر واقعه، ليصنع من ذلك كله فنًا جديدًا، هو ضرب

من التأليف المسرحي الذي جمع الشعر والنثر، والعامية والفصحى، والقص والغناء، وملامح المقامة، واللهو والإمتاع إلى جانب النقد والموعظة.

بابة طيف الخيال لابن دانيال:[1]

كتبت إليّ أيها الأستاذ البديع والماجن الخليع، لا زال سترك رفيعا، وحجابك منيعا، تذكر أن خيال الظل قد مجّته الأسماع، ونأت عنه لتكراره الطباع، وسألتني أن أصنف لك من هذا النمط، ما يكون بديعًا في أشخاص السفط[2]... وأجبت سؤالك لساعتي، وصنفت لك من بابات المجون، والأدب العالي لا الدون، ما إذا رسمت شخوصه، وبوّبت مقصوصه، وخلوت بالجمع، وجلوت الستارة بالشمع، رأيته بديع المثال، يفوق بالحقيقة ذاك الخيال، واستبد بالتنشيد، وغنّ في "راست"[3] بهذه القصيدة:

الريّس:

خيالنا هذا لأهل الرتب ... والفضل والبذل لأهل الأدب

حوى فنون الجد والهزل في ... أحسن سمط وأتى بالعجب

فانظر يا من فهمه ثاقب ... ففيه للعرفان أدنى سبب

مذاهب الفضل به جمّة ... فنطّقوه سادتي بالذهب

طيف الخيال:

(فيخرج شخص أحدب، وينقض كالباز الأشهب، فيسلم سلام القادم، ويقف مطرقًا كالواجم، فيرد الريس عليه السلام، ويتلقاه بهذا المديح قبل الكلام)

---

(١) ابن دانيال: خيال الظل: ١٤٤.

(٢) دمى الجلد التي تستخدم في أداء فن خيال الظل.

(٣) من مقامات الموسيقى العربية.

قســـمًا بحُســـن قوامـــك الفتّـــان يـــا أوحـــد الأمـــراء فـــي الحـــدبان...

طيف الخيال:

لا فض الله فاك، ولا قال من سيف الحسبة قفاك

ســـلام علـــى الســـادة الحاضـــرين ســـلام المشـــوق الكئيـــب الحـــزين...

الســـلام عليكم أيهـــا الســـادة، ودمـــتم فـــي نعمـــة وســـعادة... إن لكـــل أســـلوب طريقـــة، وتحت كل خيال حقيقـــة، وفـــي الهـــزل راحـــة من كـــلال الجد، والنحس يظهر السعد، وقد يُملّ المليح ويُحب القبيح... وفـــي القهـــوة ســـلوة الأحـــزان، لـــولا خفـــة الميـــزان ومطاوعـــة الشـــيطان وعصـــيان الســـلطان... ولا كمصـــفاعنة الحـــرافيش[1] الـــذين عرفـــوا ســـر الحشـــيش، لأنهـــم ذاقـــو بهـــا لـــذة الكســـل، وهربـــوا مـــن نصـــب العمـــل... فأكلوهـــا فـــي الأســـواق والمشـــاهد، وهـــاموا فـــي طلـــب الـــرقص والمشـــاهد، إلا أننـــي مـــن حـــين تـــوبتي مـــن هـــذه الخصـــال، وتـــوديعي لأخـــي وصـــال، وجـــدت تلـــك الرســـوم دارســـة ومـــواطن أنســـها غيـــر آنســـة، وقـــد هـــزم أمـــر الســـلطان جـــيش الســـلطان، فانكفـــت ألســـنة البـــواطي[2]، وتابـــت البغايـــا والخـــواطي، وغلـــب علـــى ظنـــي أن أبـــا مـــرّة قـــد مـــات، وعُـــد من جملـــة الرفـــات...

رســـيل الخيـــال: يـــا أميـــر وصـــال، يـــا كامـــل الخصـــال (فيخـــرج جنـــدي بشـــريوش، وسباله منفوش).

الأمير وصـــال: ســـلام علـــى مـــن حضـــر مقـــامي وســـمع كلامـــي، مـــن عرفنـــي فقـــد تمتـــع بأنســـي، ومـــن جهلنـــي فأنـــا أعرفـــه بنفســـي، أنـــا أبـــو الخصـــال المعـــروف بـــأمير وصـــال، صـــاحب الـــدبوس والنـــاموس والكـــابوس والســـالوس، أنـــا ملاكـــم الحيطـــان

---

(١) الذين يتمارجون بالصفع.

(٢) أواني الخمر.

وأنهش من ثعبان، أنا عيبة عيوب، وذنوب ذنوب، أنا أبرم من حبل وأثقب من نبل، وآكل من نار وأشرب من رمل...

ناسك فاتك.. فلا تجهلوا مقداري وقد كشفت لكم عن أسراري.

طيف الخيال: أنت جمال المقامات، ومَن خلْف مثلك ما مات.

الأمير وصال: أين تلك الأيام التي كانت مواهب، وكانت بإشراق الأحبة حبايب، وأين أوقات المعشوق، والاجتماعات ببات اللوق، وأين قصفنا في بستان الخشاب، وشربنا في عرصة أم شهاب... اطلب لي كاتبي التاج بابوج، فإنه فارقني عند الخروج.

طيف الخيال: يا شيخ (فيخرج على هذا المثال، ويقبل يد الأمير وصال).

الأمير وصال: أيش حالك يا شيخ بابوج؟

بابوج: قد أضرتني البطالة، وأنا لذلك في أسوأ حالة...

الأمير وصال: أخي طيف الخيال، قد عزمت على ترك مسلك الخلاعة، والتوبة لله المخلصة والعمل بالسنة والجماعة، فقد دنا الرحيل، وما بقي إلا القليل، وقد عزمت على الزواج والنسل والاستنتاج. فاطلب لي أم رشيد الخاطبة، وإن كانت كالتي تخرج بالليل حاطبة، لأنها تعرف كل حُرّة وعاهرة، وكل مليحة بمصر والقاهرة، ولأنهن يخرجن من الحمامات، متنكرات في ملاحف الخدامات، وتعيرهن الثياب والحلي بلا أجرة...

طيف الخيال: يا أم رشيد يا ست العبيد (فتخرج العجوز وتقول:)

أم رشيد: مُسَيتم بالسعادة، ولا زلتم في نعمة وسيادة... مَن هذا الذي طلبني في الليل الدامس، والدروب مغلقة والطرف ناعس...

طيف الخيال: طلبك الأمير وصال.

أم رشيد: ونعم من الأمير وصال، الذي رُبي في النعيم والدلال.

الأمير وصال: يا خالتي أم رشيد، كيف نعم الله عليك، ولقد كنت قسمًا بالله مشتاقًا إليك، وما طلبتك إلا لتزوجيني، وإلى غيرك لا تحوجيني، وأريد هذه العروس تكون درّية اللون، حسنة الكون ملفوفة البدن، لا رقيقة، ولا مفرطة السمن، أسيلة الخد قائمة الدهد.

أم رشيد: يا ولدي، عندي صبية كأنها الشمس المضيّة، وإذا وقع التراضي، فلا بد من الولي القاضي.

الأمير وصال: قد عزمت متوكلًا، فبارك الله كما باركت في لا ولا، وهذا اليوم اتصاله محمود، فأحضري العاقد والشهود.

العاقد: هذا الأمير وصال، مشكور الخصال، قد عزم على الاتصال بالست المصونة والدرة المكنونة، ضبية بنت مفتاح، على ما أصدقها في هذا النكاح، وهي مئة معجلة وأربعة وأربعون مؤجلة، قل: قبلت هذا النكاح بهذا الصداق، عصمك الله من الفراق والطلاق.

الأمير وصال: قلت، ولبئس ما عملت، لا بدّ من تدبير الحال وتجهيز المال، على أني الليلة أعوز من زنبور، وأفلس من طنبور.

طيف الخيال: يا أمير وصال، عهدتك ذا مال، وجمال وخيل وبغال.

الأمير وصال: مَال المال وحَال الحال، وذهب الذهب وسُلب السلب، وفضّت الفضة، وقعدت النهضة، وفرغت الكيس وبعت العقار برشف العقار.

أم رشيد: مسيتم بالسعادة، يا ولدي وقع الفاس في الراس، فاعمل عمل الناس، فاكثر الجلا ولو عشرين شمعة، وقد اكتريت زهر البستان، والمغنية الورد الطري الريان، والماشطة أم شهاب، فاحمل نقوطك من الدراهم، والأنصاف، وإلا صفعونا بالدلاكش والأخفاف...

(فيدخل ويخرج في زفة، وقدامه المغاني والشموع منصفة، ثم يترجل بأدب وناموس، وتبرز للجلا والمواشط بالعروس، فإذا كشف عن وجهها الخمار، شهقت شهيق الحمار، وإذا هي من أكبر الدواهي، بأنف كالجبل، وشافر كمشافر الجمل، ولون كلون العجل، وأجفان مكحولة بالعمش، وخدود مضرجة بالنمش... وعندما يراها الأمير وصال يخر من الاختلال)

العروس: أرجفتني وأفزعت ابني الصغير، يا أم رشيد ماله قد وقفت أعصاله.

أم رشيد: يا بنتي كأنه سكران، وبات البارحة سهران.

(فيخرج لها ابن بنت يتعوذ من الشيطان، ويهج من مجاورته المقيم في الأوطان)... فيثب إليه الأمير وصال وثبة الأسد إذ غضب وصال، ويهشمه بالدبوس، ويضرب المواشط والعروس، فيقفزون وهم خائفون.

الأمير وصال لطيف الخيال: رأيت ما اعتمدته أم رشيد، فأحضروها وزوجها الشيخ عفلق، فلابدّ من ضربه وضربها.

طيف الخيال: ارجع إلى الله من قريب، فإنه رجل غريب.

الأمير وصال: لا بدّ منهما وحق راسي ومداسي.

الشيخ عفلق: أم رشيد ماتت.

طيف الخيال: أستغفر الله من هذه الخصال، وأعوذ بعفو الغفار ذي الجلال من تحمل الأوزار والعمل بعمل أهل النار، فالإنابة أجمل، ونحن نقول ما لا نفعل...

الأمير وصال: يا أخي طيف الخيال، ما بقي إلا الارتحال، وقد عزمت على الحجاز، وخرجت بالحقيقة عن المجاز، وقصدت غسل هذه الآثام بماء زمزم والمقام، ونويت زيارة سيد الأنام، صلى الله عليه وعلى آله الكرام، اجعلني نصب عينك، و"هذا فراق بيني وبينك".

من باية عجيب وغريب:

عواد القرامطي: (وينقضّ كالأجدل، وينظر في المرآة ويضرب في المنديل، ويشير إلى الكف النحاس وإلى الصورة، ويحرك المرآة في البلورة، ويقول:)

اللهم يا من له الأسماء الحسنى، وصاحب الآخرة والأولى، ذو المقام الأسنى، الذي أمات وأحيا، وأفقر وأغنى، وخلق الإنسان من منى يمنى، وكرّمه بالإحسان والحسنى، أسألك بالاسم الذي رفعتَ به السماء، وأطلعت عليه آدم عليه السلام إذ علمته الأسماء، أن تصلي على أنبيائك والمرسلين، واخصص اللهم بأكمل الصلوات والسلام على سيدنا محمد خاتم النبيين، وعلى آله وأصحابه المنتخبين، وقولوا يا من حضر: آمين، اللهم أعذنا من همزات الشياطين، وسخط السلاطين، واصرف عنا حسد الحسود، وكيد النساء واليهود، وحصّنا بحصنك الحصين، وأفض علينا من بركات طه وياسين، وانفع بما علمتنا إخواننا المسلمين، أمين، آمين، قال رسول الله صلى الله عليه وسلّم، ومجّد وعظّم وكرّم: "من تعلم علمًا نافعًا وكتمه ألجمه الله بلجام من نار"، فأعوذ بالله أن أكون من الأشرار، البخلاء الفجار، فلذلك لا أبخل بما آتاني الله من العلم المكنون، والسر المصون، لأنه تعالى أطلعني على خواص الحروف، وعلمني آفاق المشين والألوف، حتى جمعت في هذه الأوراق، زبد العزايم والأسماء والأوفاق، ومنافع سور القرآن العظيم العزيز، وسطرت بالزعفران واللازورد والذهب الأبريز، (ثم يخرج الحروز ويقول:) قولوا عند رؤيتها: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، بسم الله الرحمن الرحيم.

(ثم يفتح تلك المهارق، ويصفها صف النمارق). أول ما كتب اليمين وعرف فيه الجبين، هذا الاسم الأعظم، وخاتم سليمان المعظم، عليه السلام، وكف مريم، وأتبعته بالحصن الحصين، وحرز أبي دجانة لأمير المؤمنين، وهذا باب للعين

والنظرة، والحمى والحسرة، وهذا باب عقد لسان الأضداد، وهذا باب للتوابع في الأولاد، وهذا باب لاستخراج المسجون، وإبراء المجنون، وهذا باب لحل المعقود وبر المكبود، وهذا باب للجاه والقبول، ولمنع الحديد وركوب الخيول، استأهل على هذه النسخة دينار، وأنا أرخص عليكم بطريق الإيثار (وينشد):

ألا خير ما تسعى لتحصيله الورى ... كتاب من الرحمن بالنور سطرا

كتاب كريم شافي الخط كافيا ... يجلّ ويغلو أن يُباع ويُشترى

ولقبته الحصنَ الحصين وإنه ... لحصن بآي الله بات منورا

غدا للبلاء في التمائم جنة ... لمن كان منصور اللواء مظفرا

يلوح عظيمًا في النفوس مبجلا ... عزيزًا مهيبًا في العيون موقرا

وكم حامل لما رأته تخلصت ... وأحضرها الطلق الذي قد تعسرا

وكم أرمد بالسحر قد كان أكمها ... فلما رأى ما فيه في الحال أبصرا

وأرملة عطل من الزوج قد غدا ... بسه أمرها بالخاطبين ميسرا

فيا نسك حرزًا أحرز النفع كله ... وأربى على من حازه ملك قيصرا

(ثم يقول:) اعلموا بارك الله فيكم، وأطال بفضله عوافيكم، أن أسماء الله دروع، ليس معها ما يروع.

(فيخرج شخص صغير من أولاده ويسقط كالمصروع، فيتجاهل عنه، والصبي احمرّت وجنتاه، وتغرغرت عيناه بالدموع (فيقول):)

الرئيس علي: هذا وقت تمائمك، والانتفاع برقاك وعزائمك (فيقول:)

الصبي: أجل (فيدنو منه ويقول:)

عواد القرامطي: الوحا الوحا، العجل العجل (ويحمل حرزًا من تلك الحروز بيمينه، ويضعه للصبي فوق جبينه) أقسمت يا معاشر الجان والشياطين، والأبالسة المتمردين، من جنود إبليس اللعين، إن كنتم من اليهود فباهيا شراهيا[1]، وإن كنتم من النصارى، فبانارشين أو لوغص كراهيا، وإن كنتم مجوسًا بالنار وبالنور، والظل الحرور، وإن كنتم مسلمين، فبحق الكتاب المبين، وبفضل بركة طه وياسين وسيد المرسلين، أجيبوا عزائمي، واجتمعوا لتمائمي، لا سماء تظلكم ولا أرض تقلكم، بالذي أمر البرق فلمع، والنجوم فطلع، أيها الجان اللابس لهذا الإنسان، اخرج من الأملة، وادخل في هذه المكحلة (فيعطس هذا الصبي ويقول:)

الصبي: يا حكيم دخل كله، وما بقي إلا أقله.

(فيحرزه مبسطرون... ثم يقول:)

عواد القرامطي: سد رأس المكحلة بشمعة، وادفنها في هذه البقعة.

(فيفيق الصبي ويقعد ويترنم وينشد:)

الصبي: جمال وجهي يسبي بحسنه كل جنس

بحسن خلقي وخلقي ولطف ودي وأنسي

قد صرت أدعى حبيبًا لكل جني وإنس

(وينصرف فيخرج).

---

(١) أصلها سرياني بمعنى الأزلي الذي لم يزل.

حكايات ابن سودون الملافيق

الحكايات الملافيق باب أفرده ابن سودون في كتابه (نزهة النفوس ومضحك العبوس)، وهو باب فريد في تراثنا الأدبي، يشكل خطوة متقدمة في فن القص عند العرب، تجاوز فيه شكل المقامة، على الرغم من اعتماده عليها في كتابة حكاياته، فقد حافظ على الراوي أحيانًا، وجعله بطلًا أحيانًا أخرى، أي جعل طريقة عرض الأحداث تتم على لسان البطل الذي يقترب من بطل المقامات في تحصيل رزقه، ولكنه غالبًا من روّاد أماكن اللهو، وابتعد عن أسلوب المقامة، فلم يستخدم الأسلوب المتصنع الذي يحد من الاسترسال في السرد، ولم يكن التعليم اللغوي والأسلوبي من غايات هذه الحكايات.

لو وقفنا على التسمية لأدركنا ما أراد ابن سودون من حكاياته، فهي حكايات، وهذا يعني أنه ميّزها من المقامات، وقد كتب مقامات وسمّاها باسمها، أي إنه أدرك الفرق بين المقامات وبين حكاياته، وتسمية حكايات تُظهر أن ابن سودون دخل عالم القصة، لأنه لم يكن قد حصل التمييز بين القصة والحكاية في المفهوم الأدبي، واستخدمت الكلمتان استخدام المترادفات، ووصفها بالملافيق، أي إنه لفّقها، فقد استمدّ عناصر حكاياته مما شاهده، ومما حصل حوله، ثم مضى بها إلى عالم الخيال، فأضاف وغيّر حتى ابتعدت عن الواقع، وهذا التلفيق هو ما يفعله كتّاب القصة في عصرنا الحالي، إذ الفنّ لا يطابق الواقع، بل يعيد تشكيله وصياغته، ولو طابقه لكان تقريرًا له، ولم يكن من الفن في شيء.

وإذا نظرنا إلى حكايات ابن سودون وأخباره، نجد عنده استعدادًا كبيرًا لإبداع فن القصة، فهو يميل إلى إقامة الحبكة القصصية، ويُحسن شدّ القارئ إلى حكاياته، ويجيد تجسيد شخصياتها، ولو تهيأ لهذه الحكايات من يسير بها

إلى الأمام، لوصلنا إلى مرتبة متقدمة في فن القصة، ولما احتجنا إلى أخذه عن الغرب.

حاول ابن سودون إظهار مقدرته على الاستنباط والابتكار والإضحاك، عارضًا أمام الناس ما يخشون الحديث عنه أو كتابته في ذلك الوقت، ونجح في تجسيد خيال العامة وأحلامهم وطريقة تفكيرهم وتصرفهم وما يشغل بالهم، ساخرًا من كل شيء، هازئًا مما تواضع عليه مجتمعه، أدى حكاياته وأخباره بلغة متدفقة لم تُعِقْها الصنعة، فيها رشاقة الانتقال بين الحكاية والوصف والحوار، مع شيء من التساهل اللغوي الذي يقربها من العامة.

وهكذا تبدو هذه الحكايات جديدة على التراث العربي في طبيعتها ومنطلقها ومنهجها، ليست من المقامات وإن أشبهتها، ولا من المنامات وإن قاربتها، وإنما هي نسيج وحدها، ومن إبداع ابن سودون الذي تمرد على مجتمعه، فأتاه بما لم يعهده، وتمرد على الأشكال الأدبية السائدة في عصره، فأتى بما لم يُعهد في التراث العربي.

كتب ابن سودون: [1]

قال ابن غيدشة الزلابياني:

كنت وأنا صغير بليدًا، لا أصيب في مقال، ولا أفهم ما يُقال، فلما نزل بي المشيب زوّجتني أمي بامرأة كانت أبعد مني ذهنًا، إلا أنها أكبر سنًا، والتمست مني مرة طعامًا، فمضيتُ إلى السوق ومعي الصحفة، ثم تذكرت أني قد نسيت المكبة، فقلت: ليس من الحشمة أن تُحمل الصحفة مكشوفة، فرجعت أخذت المكبة ونسيت الصحفة، فلما كنت في السوق تذكرت ذلك، فرجعت أخذت الصحفة ونسيت المكبة، ولم أزل كلما أخذت واحدة نسيت الأخرى حتى غربت

---

[1] ابن سودون: نزهة النفوس: ١٨٢.

الشمس، فقلت: والله لا شريت لها شيئا، ودعها تموت جوعا، ثم رجعت إليها فإذا بها قد ماتت، وصار ولدها يستغيث، ففكّرت كيف أربّيه، فخطر في بالي أن الحمامة إذا فرّخت وماتت ذهب زوجها والتقط الفول، ثم يأتي وينفخه في مناقير أفراخه فيشبعون بذلك، فقلت في نفسي: والله لا أكون أعجز من الحمام، ولا أدع ولدي يذوق كأس الجمام.

ثم مضيت وأتيته بجوز ولوز، جعلته في فمي، ونفخته في فمه فُرادى وأزواجا، وأفواجًا أفواجا، حتى امتلأ جوفه وصار يتناثر من أشداقه، ثم نظرت إليه فإذا به قد مات، فحمدته على ذلك، وقلت: يا بني، أما إنه قد انحط سعد أمك وسعدك ارتفع، لأنها ماتت جوعًا وأنت مُتّ من الشبع، ثم مضيت آتيهما بالكفن، فلما رجعت لم أعرف طريق المنزل، وها أنا في طلبه إلى يومنا هذا.

وكتب ابن سودون: [1]

قال ابن مفتجة:

رأيت حبيقة بن قديد قد وضع يده على خدّه وهو يبكي، فقلت له: ما يبكيك؟ قال: يا عم أبكي لقلّة قسمي وعدم حظي من أمي، رأيتها البارحة في هرج ومرج ودخل وخرج، فسألتها عن ذلك، فقالت: يا بني الليلة عرس أختك، فهربتُ منها لئلا تسخّرني في بعض حاجاتها.

ثم رجعت بعد العشاء ودخلت المنزل، وإذا به بُسط مفروشة ومقاعد منقوشة، ودكك منصوصة ومخدّات مرصوصة، وقناديل معلّقة، وحوائج مزوّقة، قد ارتفعت فيه أصوات المغاني وامتلأ بالناس حتى الأغاني[1]، فدُهشت من

---

(١) ابن سودون: تزهة النفوس: ١٩٣.

(١) بريد الأعناء: إملاكات العرائس.

ذلك، وقلت: لعلي غلطان، وما هذا إلا بيت السلطان، فجعلت يدي على وجهي، وصرت أنسل من بين الناس لئلا يفطن بي أحد فيقبض علي.

فبينما أنا كذلك، وإذا بأختي قد برزت في هيئة مدهشة عليها حلّة مزركشة، على رأسها تاج يأخذ الأبصار، قد علتها السكينة والوقار، وهي تخطر في الحلي والحلل، وتهوي الهوينى دون العجل، بقمة مياسه، ومقلة نعاسة، لها من المسك على ورد الخدود شامات، تدبدب على مشرب النفوس شامات[1]، قد اختبأت تحت عقارب السوالف، يذهل من شاهدها عن مشاهدة السوالف، تترقص في خطواتها كأنها الغصن في أزهارها أو البدر في إسفارها، والدفوف تسفق والمزامير تزعق، تزفّها المغاني، وتقول في وصفها أم هاني:

يسا عروسة في الدلال انجلي ولا تُبالي...

والعريس جالس في صدر الإيوان، عليه حلل سنيّة ذات ألوان، قد مدّ إليها ناظره، وقصر عليها خاطره، فلما دنت منه قام إليها، وقبّل بين عينيها، ثم نثر الدنانير من جيبه، وكذلك فعل من كان بقربه، ثم تراجع القهقرى، وتأخرت تمشي إلى ورا، والزغاريط صاعدة والأفراح زائدة، ولم تزل كذلك حتى انتهت إلى الستارة فأرخيت عليها ساعة جيدة، ثم ارتفعت عنها، وظهرت في حُلّة أبهى من الأخرى وأسنى منها وأجمل، وأنا أحسدها على ذلك ملئا، وأمقت نفسي إذ كنت صبيا، ولم يزالوا يفعلون بها ذلك مرة بعد أخرى، حتى كدت أموت حسدا، وأتقطّع كمدا، فقلت: يا أماه بحقي عليك، إذا رجعت أختي البسيني ما عليها، ودعيني أنجلي عنها مرة واحدة، ليجبر قلبي وينكشف كربي، قالت: يا بني ما جرت العادات أن يكون هذا إلا للبنات، قلت: يا أماه دعيني أفرح مرة في

---

(١) من قولهم في الشطرنج شاه مات.

حياتك، واحسبي أني من بعض بناتك، ولم أزل أترقى إليها، وأستنجد بخالاتي عليها، حتى أنعمت لي بذلك.

ولما رجعت أختي أجلستها، وألبستني ما كان عليها، ثم أمرت المواشط، حزكن المقاصيص، وأصلحن لحيتي بالتقاصيص، فجعلنها ظفيرتين وطُرّة، ومَكّن وجهي بالاسبيداج والحُمرة، وزيّنني بزينة العرايس، وعلمنني أن أنظر نظرة المتناعس، وجعلن على صدري أنامل يدي اليسرى، وعلى صدغي أنامل الأخرى، وقد طال على العريس الانتظار وتقلق من في الدار، فبينما هم كذلك إذ ظهرت بهذا الشكل العجيب والنمط الغريب، أغمز بعيني وأغزل، وقد انذهل كل من في المنزل، وكثرت التخاليط، وعلت الزغاريط، فقالت فيّ الواصفة، وكانت لي عارفة:

يـــا كنينـــه يـــا حنينـــه أي وغيـــره يـــا حزينـــه...

قال: وبينما أنا كذلك، قد طاب قلبي وانشرح، وكدت أطير من الفرح، وكان بعض الناس قد أصابني بالعين، فسقطت من طرف الإيوان، وكدت أعفص بعض النسوان، فشكشكني بالإبر، وصار لقرصهن في سيقاني أثر، فهربت منهنّ وتركت المغاني، وشكوت لأمي ما دهاني، فنزعت ما كان عليّ وألبسته لأختي، وطربتني لغلة بختي، فازددت في نفسي مقتًا، وألبسته قلبي إذ لم أكن بنتًا، وهذا سبب غبني وبكائي وحزني.

فقلت: طِبْ نفسًا، وقرّ عينًا، فقد بلغني أن بظاهر المدينة بركة، لا يُعرف لها يمين من يسار، ولا تطلع عليها الشمس إلا بالنهار، من انغمس في مائها سحرا، يصير أنثى إن كان ذكرا.

فلما سمع ذلك شمّر ثوبه وجرى، وما عرفت له بعد ذلك خبرا.

خاتمة

حمل الشعر المملوكي ملامح عصره، وأظهر ما كان يحتدم فيه من تيارات فكرية وفنية، والتفاوت الذي كان عليه المشاركون فيه، مقدرة وثقافة، وهذا الاختلاف بين مبدعي الشعر سمة عامة للشعراء في شتّى العصور، وليست وقفًا على شعراء العصر المملوكي وحده، فأهل كلّ عصرٍ لهم أسلوبهم في التعبير، ولهم ذوقهم الجمالي، ولهم مفهومهم للأدب.

وإذا كانت ظروف العصر قد حرمت الشعر من الشعراء المتفرغين لفنّهم، فإنها دفعت الشعر للنزول إلى حياة عامة الناس، فظهرت فيه طرائق العامة في حياتها، وآلامها وآمالها، ومواقفها من الحوادث التي تقع حولها، وأصبح الشاعر ينظم إرضاء لقريحته، وتعبيرًا عمّا يعتلج في نفسه، وأدى هذا إلى اتساع فنون النظم الملحونة، ورسوخها إلى جانب الفنون المعربة.

أما النثر فقد كثرت فنونه، وارتفع شأن الكتابة، وشهد النثر الفني تطورًا ملحوظًا، وصار النثر أدب الخاصة، والشعر أدب العامة، وظهرت فيه فنون جديدة اقتربت من القصة والمسرح، وتقرب بعض الكتاب بنثرهم إلى العامة، فأصبح النثر الوسيلة التعبيرية الأولى في أدب العصر، حوى ألوانًا مختلفة، ومستويات متباينة من قمة الكتابة الفخمة إلى الكتابة العامية، أو القريبة منها.

وفي مجمل القول فقد اتسع نطاق الأدب، وتنوعت موضوعاته، فنزل إلى حياة الناس اليومية، ونقل كل ما كان يشاهده الأديب أو يحسّ به، فانتقد مظاهر عصره السلبية، ودعا إلى تصحيحها، وأشبع الحاجة الجمالية للذين توجّه إليهم، فلم يكن أدبًا منفصلاً عن الحياة، ولم يكن أدبًا للمتعة والتسلية فقط، بل كان أدبًا فاعلاً، متأثرًا بالمجتمع ومؤثرًا فيه.

في الأدب المملوكي الجيد والرديء، وهذه سُنة الأدب في عصوره كلها، وعند الأمم جميعها، ولا يمكننا أن نأخذ من عصر محاسنه فقط ونتجاهل مساوئه، ومن عصر آخر

مساوئه ونتجاهل محاسنه، ولا يمكننا ألا نثني على كثير من الأدباء، وأن نعجب بكثير من النصوص الأدبية التي بلغت مبلغًا كبيرًا من الجمال والإبداع في الشعر والنثر.

ولا بدّ من الإشارة إلى أن الظواهر الأدبية التي عُرفت في العصر المملوكي، كانت استمرارًا لما وجد من قبل، لكنها بلغت مداها فيه، وأخذت طابعه وملامح بيئته، وعكست اختلاف الأذواق والقيم والمؤثرات.

وإن الإنصاف يقتضي منا ألا نحاكم أدباءه إلا بمفهوم عصرهم، وبالذوق الذي يصدرون عنه، وأن نصون لكل أديب ما جاد به دماء اللغة وآفاق الأدب، بعد أن نربط الإبداع بالبيئة التي انطبعت في وجدان المبدع، واستقبلت إبداعه وباركته وخلّدته، وربما كان هذا ما رمى إليه الباحث محمد الحبيب بن الخوجة عندما قال: "وأدب المماليك لون متميز في فنه وطريقته وخصائصه، ومَنْ لم يُجهزْ بمقوماته لا يستطيع الكشف عنها فيه، ولا الالتذاذ به عند قراءته، فهو لون خاص من الإنتاج تبلورت فيه الاتجاهات الفنية الخالصة، ...إنه عمل رجال انتهوا إلى القمة في هذه الصناعة، وكانوا لا يقصدون به سواهم، فهم أحذق من أن يخاطبوا به كل إنسان"(١)، وكان الصلاح الصفدي قبله يرى أنّ "أدباء عصره قد بلغوا محطّ الرّحال"(٢)، وذلك بمقاييس عصره الفنية ومعاييرهم الجمالية، لذا نجد اهتمام الأدباء بإنتاج عصرهم وبجمعه، حتى وصلت إلينا من صنعهم مجموعات شعرية وفيرة ودواوين كثيرة.

---

(١) عصر المماليك – الترسل وابن عبد الظاهر: ١٠ – ١١

(٢) نصرة الثائر: ٣٣١

المصادر والمراجع

١- الأبشيهي، محمد بن أحمد: المستطرف من كل فن مستظرف، مطبعة الاستقامة، القاهرة ١٣٧٩هـ.

٢- ابن الأثير الجزري، نصر الله بن محمد: المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تحقيق أحمد الحوفي وبدوي طبالة، مطبعة نهضة مصر، القاهرة ١٩٥٩م.

٣- ابن الوردي، عمر: تتمة المختصر في أخبار البشر، تحقيق: أحمد رفعت البدراوي، دار المعرفة، بيروت ١٩٥٠م.

٤- ابن إياس، محمد بن أحمد: بدائع الزهور في وقائع الدهور، تحقيق محمد مصطفى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط٢، القاهرة ١٩٦١م.

٥- ابن تغري بردي، يوسف: المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي، تحقيق أحمد يوسف نجاتي، مطبعة دار الكتاب، القاهرة ١٩٥٦.

٦- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، تحقيق مجموعة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٧٠م.

٧- ابن حجة الحموي، أبو بكر: ثمرات الأوراق، تحقيق أبو الفضل إبراهيم، مكتبة الخانجي، القاهرة ١٩٧١م.

٨- خزانة الأدب وغاية الأرب، تحقيق: د. محمد ناجي بن عمر، دار الكتب العلمية، بيروت ٢٠٠٨م

٩- ابن حجر، أحمد: الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة، تحقيق سالم الكرنكوي، دار الجيل، بيروت.

١٠- ابن خلدون: مقدمته، دار إحياء التراث العربي، ط٤، بيروت.

١١- ابن خلكان، أحمد: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس،

دار صادر بيروت.

١٢- ابن دانيال، محمد: خيال الظل وتمثيليات ابن دانيال، تحقيق إبراهيم حمادة، وزارة الثقافة، القاهرة ١٩٦٣م.

١٣- ابن سناء الملك، هبة بن جعفر: دار الطراز في عمل الموشحات، تحقيق جودت الركابي، دار الفكر، ط٢، دمشق ١٩٧٧م.

١٤- ابن سودون، علي: نزهة النفوس ومضحك العبوس، تحقيق: د. محمود سالم محمد، دار سعد الدين، دمشق ٢٠٠١م.

١٥- ابن شاكر الكتبي: فوات الوفيات، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت.

١٦- ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، تحقيق: د. قسطنطين زريق، المطبعة الأميركانية، بيروت ١٩٣٩م.

١٧- ابن عبد الظاهر، محيي الدين: الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر، تحقيق عبد العزيز الخويطر، الرياض ١٩٧٦م.

١٨- تشريف الأيام والدهور في سيرة الملك المنصور، تحقيق: مراد كامل، القاهرة ١٩٦١م.

١٩- ابن عجيبة الحسني، أحمد: إيقاظ الهمم في شرح الحكم، المطبعة الجمالية، ط٢، القاهرة ١٣٣١هـ.

٢٠- ابن عربي، محيي الدين: ترجمان الأشواق، دار صادر، بيروت ١٩٦٦م.

٢١- ابن عطاء الإسكندري: لطائف المنن، تعليق خالد الحك، دار البشائر، دمشق ١٩٩٢م.

٢٢- ابن فضل الله العمري، أحمد: التعريف بالمصطلح الشريف، تحقيق محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٨٨م.

٢٣- ابن كثير، إسماعيل: البداية والنهاية، مصور طبعة المطبعة السلفية، بيروت

١٩٦٧م.

٢٤- أبو زيد، د. علي: البديعيات في الأدب العربي، عالم الكتب، بيروت ١٩٨٣م.

٢٥- أبو علي، نبيل خالد: الأدب العربي بين عصرين المملوكي والعثماني، دار المقداد للطباعة، غزة ٢٠٠٧م.

٢٦- الأدفوي، جعفر: الطالع السعيد الجامع أسماء نجباء الصعيد، تحقيق محمد حسن، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة ١٩٦٦.

٢٧- الأصفهاني، العماد: خريدة القصر وجريدة العصر، قسم شعراء الشام، تحقيق: د. شكري فيصل، المطبعة الهاشمية بدمشق، ١٩٥٥م.

٢٨- الأيوبي، ياسين: آفاق الشعر العربي في العصر المملوكي، دار جرّوس برس، طرابلس ـ لبنان ١٩٩٥م.

٢٩- الباعونية، عائشة: الفتح المبين في مدح الأمين، تحقيق: د. مهدي عرار، دار الكتب العلمية، بيروت ٢٠٠٧م.

٣٠- المورد الأهنى في المولد الأسنى، المطبعة الحنفية، دمشق ١٣٠١هـ.

٣١- مولد النبي، المطبعة الحنفية، دمشق ١٣٠١هـ.

٣٢- الحلي، صفي الدين: العاطل الحالي والمرخص الغالي، تحقيق حسين نصار، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨١م.

٣٣- الحموي، ياقوت: معجم البلدان، دار صادر، بيروت ١٣٧٦هـ.

٣٤- الحنبلي، محمد بن إبراهيم: در الحبب في تاريخ أعيان حلب، تحقيق: محمود الفاخوري، منشورات وزارة الثقافة، دمشق ١٩٧٢م.

٣٥- الخوجة، محمد الحبيب: عصر المماليك- الترسل وابن عبد الظاهر، منشورات كتاب البعث، مطبعة الترقي، تونس ١٩٥٦م.

٣٦- الحنبلي، ابن العماد: شذرات الذهب في أخبار من ذهب، دار الكتب العلمية،

بيروت، د.ت.

٣٧- ديوان ابن الوردي: تحقيق أحمد الهيب، دار القلم، الكويت ١٩٨٦م.

٣٨- ديوان ابن مليك الحموي (النفحات الأدبية من الزهرات الحموية): تحقيق: إسراء أحمد فوزي الهيب، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، دمشق، ٢٠١٠م.

٣٩- ديوان ابن نباتة: دار إحياء التراث العربي، بيروت ١٣٢٣هـ.

٤٠- ديوان البرعي، عبد الرحيم، شرح حافظ المسعودي، مكتبة البابي الحلبي، ط٢، القاهرة ١٩٥٠م.

٤١- ديوان البوصيري: تحقيق محمد سيّد كيلاني، مكتبة البابي الحلبي، ط٢، القاهرة ١٩٧٣م.

٤٢- ديوان التلعفري: تحقيق: د. رضا رجب، دار الينابيع، دمشق، ط٢، ٢٠٠٤م.

٤٣- ديوان الشاب الظريف: تحقيق شاكر هادي شاكر، مطبعة النجف ١٩٦٧م.

٤٤- ديوان الشرف الأنصاري: تحقيق عمر موسى باشا، مجمع اللغة العربية، دمشق ١٩٩٧م.

٤٥- ديوان الصرصري، تحقيق: مخيمر صالح، عمان ١٩٨٩م.

٤٦- ديوان العفيف التلمساني: تحقيق العربي دحو، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر ١٩٩٤م.

٤٧- ديوان المتنبي بشرح العكبري، تحقيق مصطفى السقا وآخرين، مكتبة البابي الحلبي، القاهرة ١٩٧١م.

٤٨- ديوان خطب ابن نباتة: مكتبة المليجي، القاهرة ١٣١٨هـ.

٤٩- ديوان صفي الدين الحلي: تقديم: كرم البستاني، دار صادر، بيروت،

٥٠- ديوان الموشحات المملوكية في مصر والشام، جمع وتحقيق: د. أحمد محمد عطا، مكتبة الآداب، القاهرة ١٩٩٩م.

٥١- الرافعي، مصطفى صادق: تاريخ آداب العرب، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٢، ١٩٧٤م.

٥٢- السبكي، عبد الوهاب: طبقات الشافعية الكبرى، تحقيق الطناحي وحلو، مطبعة البابي الحلبي، القاهرة ١٩٤٦م.

٥٣- السخاوي: الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، دار مكتبة الحياة، بيروت.

٥٤- سلام، محمد زغلول: الأدب في العصر المملوكي، دار المعارف، القاهرة.

٥٥- سليم، محمود رزق: عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والأدبي، المطبعة النموذجية، ومطبعة الآداب، القاهرة، ط٢، ١٩٦٢م.

٥٦- السيوطي، عبد الرحمن: حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، مكتبة الكتبي، القاهرة ١٣٢١هـ.

٥٧- مقامات السيوطي، مطبعة الجوائب، القسطنطينية ١٢٩٨هـ.

٥٨- نظم العقيان في أعيان الأعيان، تحقيق: فيليب حتي، المطبعة السورية الأمريكية، نيويورك ١٩٢٧م.

٥٩- الشهاب محمود: حسن التوسل إلى صناعة الترسل، المطبعة الوهبية، القاهرة ١٢٩٨هـ.

٦٠- أهنى المنائح في أسنى المدائح، مطبعة جريدة الشورى، القاهرة ١٣٢٨م

٦١- الشوكاني، محمد: البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، تحقيق خليل المنصور، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٩٨م، ومعه الملحق لابن زبارة الحسني.

٦٢- الشعراني، عبد الوهاب: الطبقات الكبرى المسماة (لواقح الأنوار في طبقات الأخيار)، المطبعة العامرية الشرقية، القاهرة ١٣١٥هـ.

٦٣- الصفدي، خليل: أعيان العصر وأعوان النصر، تحقيق مجموعة، دار الفكر،

دمشق ١٩٩٨م.

٦٤- ألحان السواجع، تحقيق: إبراهيم صالح، دار البشائر، دمشق ٢٠٠٤م.

٦٥- جنان الجناس، مطبعة الجوائب، القسطنطينية ١٢٩٩هـ.

٦٦- الغيث المسجم في شرح لامية العجم، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢، ١٩٩٠م.

٦٧- المختار من شعر ابن دانيال، تحقيق: محمد نايف الدليمي، مكتبة بسام، الموصل ١٩٧٩م.

٦٨- نصرة الثائر على المثل السائر، تحقيق: د. محمد علي سلطاني، مطبوعات مجمع اللغة العربية، دمشق ١٩٧١م.

٦٩- الوافي بالوفيات، تحقيق مجموعة المعهد الألماني للدراسات الشرقية، بيروت ١٩٨٠م.

٧٠- ضيف، د. شوقي: تاريخ الأدب العربي، عصر الدول والإمارات، مصر وبلاد الشام، دار المعارف، القاهرة.

٧١- العاملي، زينب فواز: الدر المنثور في طبقات ربات الخدور، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٩٩م.

٧٢- العلاوي، فارس أحمد: عائشة الباعونية الدمشقية أشهر أعلام دمشق أواخر عهد المماليك، دار معد، دمشق ١٩٩٣م.

٧٣- العيدروس، عبد القادر: تاريخ النور السافر عن أخبار القرن العاشر، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٣، ١٩٨٥م.

٧٤- الغزولي، علي: مطالع البدور في منازل السرور، مطبعة إدارة الوطن، ط١، القاهرة ١٣٠٠هـ.

٧٥- الغزي، محمد: الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة، تحقيق جبرائيل جبور،

دار الآفاق الجديدة، ط٢، بيروت ١٩٧٩م.

٧٦- فروخ، عمر: تاريخ الأدب العربي، دار العلم للملايين، بيروت ١٩٧٩م.

٧٧- الفيروز آبادي: القاموس المحيط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢، ١٩٨٧م.

٧٨- القلقشندي: صُبح الأعشى في صناعة الإنشا، دار الكتب، القاهرة ١٣٤٠هـ.

٧٩- محمد، محمود سالم: أدب الدول المتتابعة (الدولة المملوكية)، دار الكتب الوطنية، هيئة أبو ظبي للسياحة والثقافة، ٢٠١٢م.

٨٠- أدب الصنّاع وأرباب الحرف، دار الفكر، دمشق ١٩٩٣م.

٨١- ابن نباتة، دار ابن كثير، دمشق ١٩٩٧م.

٨٢- ابن الوردي، دار سعد الدين، دمشق ٢٠٠٢م.

٨٣- المدائح النبوية، دار الفكر، دمشق ١٩٩٦م.

٨٤- مسند أحمد: شرح أحمد شاكر، مكتبة التراث الإسلامي، القاهرة، ١٩٩٠م.

٨٥- المقري: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت،١٩٦٨م.

٨٦- المقريزي: إغاثة الأمة بكشف الغمة، دار ابن الوليد، دمشق، ١٩٥٦م.

٨٧- السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق سعيد عاشور، دار الكتب، القاهرة ١٩٧٢م.

٨٨- معيد النعم ومبيد النقم، المطبعة الأدبية، القاهرة.

٨٩- المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار، مكتبة المليجي، القاهرة، ١٣٢٤هـ.

٩٠- موسى باشا، عمر: أدب الدول المتتابعة عصور الزنكيين والأيوبيين والمماليك، دار الفكر الحديث، بيروت ١٩٦٧م.

٩١- ابن نباتة المصري أمير شعراء المشرق، دار المعارف، القاهرة، ط٣، ١٩٦٩م.

٩٢- تاريخ الأدب العربي (العصر المملوكي)، دار الفكر، دمشق ١٩٩٩م.

٩٣- المقدسي، أبو شامة: الذيل على الروضتين، دار الكتب العلمية، بيروت

٢٠٠٢م.

٩٤- النبهاني، يوسف: المجموعة النبهانية في المدائح النبوية، المطبعة الأدبية، بيروت، ١٣٢٠هـ.

٩٥- النواجي، محمد: حلبة الكميت في الأدب والنوادر المتعلقة بالخمريات، القاهرة ١٣٥٧هـ.

٩٦- الهيب، أحمد فوزي: الحركة الشعرية في زمن المماليك في حلب الشهباء، مؤسسة الرسالة، بيروت ١٩٨٦م.

اللجنة العلمية:

أ.د نبيل أبو عمشة

أ.د محمد شفيق البيطار

أ.د علي كردي

حقوق الطبع والترجمة والنشر محفوظة لمديرية الكتب والمطبوعات